Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

محمود تيمور
كليوبترة في خان الخليلي

محمود تيمور

كليوباترة

سيد ابراهيم

في خان الخليلي...

893.1T136
S4

18520F

الطبعة الأولى — يناير ١٩٤٦

حقوق الطبع للمؤلف

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

[من مذكرات « محيي الدين فريد »
أحد موظفي وزارة الخارجية المصرية]

سنة ١٩؟؟

٧ يناير

إنه ليومٌ صاخبٌ عنيف .

حفلت اليومَ ساحاتُ الوزارةِ وأبهاؤها بالوفود على اختلافِ ألوانها ، وقد اندسَّ بينها زُمرةٌ من الصَّحفيِّين ، جاءوا ليتثبَّتوا من النَّبأ الذي طلعَتْ به صُحُف الصباح على الناس ، وليتلقَّطوا جديداً من المعلوماتِ في شأنِه ، ذلك هو أنه قد قرَّ الرأيُ على اتخاذِ القاهرةِ مقرًّا لـ « مؤتمرِ المدينةِ الفاضلة لدعْمِ السلام » ، وهو مؤتمر أهليّ أمميّ ، لاصلةَ له بالحكومات ، فكَّرتْ بعضُ الهيئاتِ الكبرى في العالم أن تُقيمَه استكمالاً لـ « مؤتمرِ الصُّلْح الدَّوْليّ الرسميّ العتيد » . وقد وعَدَت الحكومةُ المصريةُ أن ترحِّبَ بمؤتمرِ المدينةِ الفاضلة وأن

تعملُ على تيسيرِ مهمَّتِه إكباراً وتقديراً للفكرةِ المثاليَّةِ التي يَسْعَى لنشرِها وتحقيقِها .
ولقد اختارتْ هذه الهيئاتُ الأهليةُ الحرةُ القاهرةَ مقرًّا لهذا المؤتمر ، إذْ آنَستْ فيها المثلَ الأسمى المدينةِ المسالمةِ الوادعةِ الرُّوحِ التي لم يخْفقْ قلبُها بغيرِ المحبةِ الإنسانيةِ والسلام .

كان اللَّغَط على أَشَدِّهِ في الوزارة ، والأصواتُ تتطايَرُ من الأفواه ، فيَصْدِمُ بعضُها بعضاً ، وآلاتُ التصويرِ تَبِصُّ بعيونها الملتمعةِ متطلِّعَةً في الوجوهِ تَطَلُّعَ الفضول .

وأذكُر أني صَعِدْتُ ونزَلْتُ في الدَّرَجِ عَشَراتِ المراتِ ، وتناولتُ خمسةَ أقداحٍ من القهوة ، وابتلعتُ أربعةَ أقراص من الأسبرين ، وبَحَّ صوتي من تتابُعِ الصِّياح . ولما عدتُ إلى داري في أعقاب النهار مهدَّم الأعصاب ، ساءلتُ نفسي عما قمتُ به من عمل مُجْدٍ ، فلم أجدْ لسؤالي جواباً شافيا !

٨ يناير

أصابنى من زحمةِ أمْسِ إعياء ، فلم أبرَحْ دارى طَوالَ اليوم . وفى المَساء أقبلَ « عبد العال » حاجبُ الوزارة يحملُ إلىّ رِزْمَةً من الأوراق ، وكان على حالِه هزيلاً ضئيلا ، ممتقعَ الوجه ، يجرُّ قدميه جرًّا ، فكأنه دودةٌ جافَّة تزحَفُ على بطنها ، وهو شيخٌ فى الحَلْقةِ السادسةِ من عُمرِه ، شُغِفَ وقتاً بالدَّرْس والتحصيل ، فقضى الشَّطْرَ الأولَ من حياته بين الكُتُب والأقلام ، يقرأُ ويحلُمُ مرةً ، ويسعَى لكَسْبِ قوته مرةً أخرى ، وهو بين هذا وذلك يُرمِّمُ عبثاً من جسمِه المريضِ المكدود ، فخرج من كلّ هذا بخيبةِ أَملٍ قاتلة ، وإخفاق فى الحصولِ على ما يَنشُدُه من علمٍ وكَسْب وعافية ، فترك العلمَ والأدبَ ساخطاً متبرِّماً ... وقد قرَّ فى ذهنِه أن الدرسَ أُسُّ نكبتِه ، فأَقْسَمَ أن يتجنَّبَه ما عاشَ ... وامتهن بِضْعَ مِهَنٍ ليست بذاتِ شأن ، ثم استقرَّ به المَطافُ أخيراً فى الوزارة فعُيِّنَ فيها حاجباً .

ناوَلَنِى « عبدُ العال » الرِّزْمة ، وجلسَ من تِلْقاءِ نفسِه وهو يَنْهَجُ .

ثم قال لى : أتسمَح لى ياسيدى البك بقليلٍ من مُغْلَى النَّعْناع ؟

فَرَبَتُّ كَتِفَه وأنا أتضاحَكُ ، وقلتُ :

أىُّ نعْناعٍ هذا الذى تطلُبُ ؟ عليك بكأسٍ من الويسكى أو الكونياك ...

— دَعْنى من هذا ياسيدى ... أَتَصِفُ لى الخمرَ وحالى كما ترَى ... مِعْدَةٌ خرِبَة ، وكَبِدٌ مَقْرُوحة ؟ والأدهى من كلّ هذا الإمْسَ ...

— والإِمساك ... أعلمُ ماستقوله ...

— وهل لديك دواءٌ له ؟

— دواؤكَ ياعبدَ العال الحركةُ والنشاط ... جانِبْ عقاقيرَكَ وانس مرضك وتحرَّكْ ... لماذا لاتلتحقُ بأحدِ النوادى الرياضية ؟ لديك نادى العَلَم الأخضر مثلاً على مَقْرَبَةٍ من دارِكَ بباب الخَلْق ... تعلَّمْ فيه المصارعةَ والملاكمة ونحوَها ... فلن يمضِىَ عليكَ قليلُ وقتٍ حتى ترى نفسَك قد عُدْتَ شاباً قوياً لايشكو من مِعْدَةٍ ولا من كَبِد ... ولا يَعْرِف ...

— الإمساكَ !

وطَفِقَ يقهقهُ هُنَيْهَةً ، ثم غمْغَمَ : مُرْ لى بقليل من مُغْلَى النَّعْناعِ .

وما هى إلا أن نادى الخادِمَ ، وطلبَ منه قَدَحاً من ذلك الشراب .

ثم وَاجهَنِى وقال : لم تَفُضَّ رِزْمَةَ الأوراق ...

— وهل فيها جَدِيد ؟

— خَبَرٌ عظيم ... فُضَّ واقْرَأْ .

— قلْ ... ماهو ؟

— قلتُ لكَ فُضَّ واقرَأْ ...

— بل أَخْبِرْنى أنتَ بالأمر ...

— لقد نَدَبُوكَ « كاتمَ سِرِّ للمؤتمرِ » .

— أنا ؟ !

— وجَنَابى « الحاجب الأوّل للمؤتمر » !

ومددتُ يدى إلى الرِّزْمَة ، وسَرْعانَ ما بَسطْتُ أوراقها أمامى ، فتأكَّدَ لى صِدْقُ ماقاله « عبدُ العال » ، فأخذتُ يَدَه بين يدىَّ ، وهَزَزْتها وأنا أُرَدِّدُ : أُهنِّئُك ... مباركٌ لك ... مباركٌ لنا ...

فتثاءَبَ طويلاً ، وقال : علامَ التهنئة ؟

— سنعمَلُ فى المؤتمرِ العالمىِّ العظيم : « مؤتمر المدينةِ الفاضلةِ لدعْمِ السَّلام » !

— سيُرْهقونَنا بالمتاعِبِ !

ووقعتْ عينى بينَ أوراقِ الرِّزْمَةِ على ورقة فيها أسماءُ أعضاءِ المؤتمر ، فواصلتُ قولى : ستعمل ياعبدَ العال مع عَشَرَةٍ من مندوبى أُمَمِ العالم بينهم مندوبُ مِصْرَ ... كلُّهم من عِظَامِ الشخصيَّات !

وجاء الخادمُ بالنَّعناع ، فراح « عبدُ العال » يجرَعُ من القَدَحِ على مَهَلٍ ، وهو يقول : وما فائدةُ هذا المؤتمر ؟

— مَنْعُ الحروب ، وإقرارُ سلامٍ دائمٍ يهنَأُ به العالَم ، وبَسْطُ أسباب العدل ، ومَحْوُ الفَقْر ... و ...

— عجيب ! ... أيستطيعُونَ تحقيقَ هذا كلِّه ؟

— أتشكُّ فى ذلك ؟

— إن الفسادَ قد تغلْغل فى العالَم تَغَلْغُلَ المرضِ فى جسمى ، فلم يَعُدْ له دواءٌ يُصْلِحُه ...

— أنتَ رجلٌ متشائمٌ !

— بل إنى لا أَثِقُ بهؤلاء الزعماءِ من أهلِ العِلْمِ والرَّأْيِ والحِجا ...

— سترى ... سترى : أَيَّةُ معجزةٍ يقومونَ بها ؟

— أيةُ مُعْجِزَة ؟

— إن هؤلاء السادةَ أيها الرَّجْعِيُّ المتفلسِفُ سيُعِيدُونَ بناءَ صَرْحِ المجتمعِ على دعائمَ جديدةٍ ... سيُبِيدُونَ الأنظمةَ العتيقةَ المُهَلْهَلَةَ فى التعليمِ والصحةِ والاقْتصادِ والاجْتماع ، وسيُحِلُّونَ محلَّها نُظُماً فَتِيَّةً صالحةً لإنشاءِ دنيا جديدةٍ تُظِلُّها السعادةُ بظِلِّها الوارف ...

فتضاحك برهةً وهو يغمغم : إنهم إذن لآلِهَة !

— فيهم من رُوحِ الله ...

— لم يبرهِنْ ابنُ آدمَ حتى الساعةَ على أنه اقتبسَ شيئاً من نُورِ اللهِ عز وجل ... إنه يقتبسُ من لَهيبِ الشيطان ... والشيطانُ عاملٌ على خرابِ العالمِ ودمارِه .

— أنتَ رجلٌ تعيشُ بعقليَّةِ القرونِ الوُسْطَى ، ولا ترى إلى أىِّ مَدًى نعِمَ الكَوْنُ بما قَدَّمه إليه العِلْمُ ورجالُه من منافِعَ ...

— حقًّا ياسيدى ... ولولا هذا العِلْمُ ورجالُه لما رأينا العالمَ يسبَحُ فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ من الدِّماء ، ويَخُطُّ القبورَ المُكْتَظَّةَ بالقَتْلَى على أطلالِ مُدُنِه العامرة ...

— افهمْ يارجلُ وتعقَّلْ ... إن زعماءَ هذا العصرِ أنبياءُ بُعِثُوا ليُشيِّدُوا لنا مَدَنِيَّةً جديدة ويُخْرِجُوا للعالَمِ نَشْئًا يَدِينُ بدِينٍ جديد وعقليَّةٍ جديدة ... سيكون الهدفُ الأكبرُ إسعادَ البشرية !

— ولكن خَبِّرْنِى كيف يَتِمُّ ذلك ؟

— يَتِمُّ ذلك بوسائلَ كثيرة ، فى مقدِّمَتِها : التربيةُ والتعليم ، فإذا سَهِرَ رجالُنا الأفذاذُ على تَنْشِئَةِ الأجيالِ المتعاقِبَةِ تَنْشِئَةً مِثَالِيَّةً أساسُها التخلُّقُ بأخلاقٍ نبيلةٍ سامية ، تأصَّلَتْ هذه الأخلاقُ على مَرِّ الزَّمَن ، وأصبحتْ لها قُوَّةُ الغرائز ، بل تَغْدُو هى نَفْسُها غرائزَ خَيِّرَةً تدفعُ الإنسانَ بقوةٍ غيرِ شعوريَّةٍ إلى إيتاءِ الخير ...

فأخذ « عبدُ العال » يُصَعِّدُ فىَّ بصرَه هنيهة ، ثم قال :

أَو تُصَدِّقُ هذا ياسيدى وتُؤْمِنُ به ؟

— أَكْمَلَ تصديق ، وأشدَّ إيمان !

فهزَّ رأسَه مراتٍ ، ثم تثاءَبَ ، وقال :

أَلَا تأْخُذُ مِثْلِى قَدَحًا من مُغْلَى النَّعْناع ؟ !

١٨ يناير

قدِمَ أعضاء المؤتمرِ بالطائرةِ ، واستُقْبِلوا استقبالًا حافلًا ... وعَمَّ أهلَ القاهرةِ شعورُ ابتهاجٍ عظيم ، فالشوارعُ مزدانة بأعلامِ الأُمَمِ العَشْر ، والموسيقى لا ينقطعُ لها عَزْف ، والناسُ رائحون غادُونَ فُرادَى وزرافاتٍ تهتِفُ وتتصايح ، ويخْطُبُ قادتُها متلاحِقِينَ ، وعواصفُ التصفيقِ يتجاوبُ بها الفضاء ... حتى في الأحياءِ الوطنيةِ كنتَ ترى العرباتِ الكارَّةَ تَغَصُّ بتلك الشراذِمِ الآدميَّة ، وقد لَفُّوا على خواصِرِهم أَحْزِمَتَهم وراحوا يرقُصون ويُغَنُّون على دَقِّ الطبول وصوتِ المِزْمار . فإذا سألتَهم : لِمَ ذلك؟ صاحُوا بمِلْءِ أفواههم :

إن يومَ الفرَجِ قريب ... سيَهَبُونَنَا بِدَرَ الأموال دونَ حِساب ، ويوزِّعُونَ علينا الكِساءَ والغِذاء دونَ مقابِل !

ونَزَلَ أعضاء المؤتمر في « قَصْرِ الوَرْدِ » ذلك المبنى الجديدِ الرائعِ المُشْرِفِ على النيلِ في مِنْطَقَةِ الجيزة ... وقد كنتُ هناكَ بالبابِ في استقبالِهِمْ فراعَني مظهرُهُم النبيلُ ، وما ارتسَمَ على مُحيَّاهم من أَماراتِ الدَّعَةِ ولِينِ الجانب . وكانوا وهم يتحدَّثُ بعضُهم إلى بعضٍ كأنهم أطيارٌ ملائكيَّةٌ رخيمةُ النَّغَمِ عَذْبَةُ التغْريد ... وكان بينهم رجلٌ مَهيبُ الطَّلْعَةِ جَمُّ الوَقار ، تنبسط على صدره لحيتُه الشَّهْباء ، وله رأسٌ حاسِرٌ بشَعرٍ غَزيرٍ يتهدَّلُ على كَتِفَيْه ، وهو يرتدِي الملابسَ الفضفاضَةَ من الحريرِ الأبيض . وصورتُه أقربُ شَبَهًا بصُوَرِ القِدِّيسينَ الأطهارِ التي حفلَتْ بها آثارُ الفنَّانينَ من المصوِّرينَ والمثَّالين القُدامَى ... فما إن وقَعَ بَصَرُ « عبدِ العال » عليه ، حتى قال هامِسًا :

من يكونُ هذا الشخصُ ؟

— إنه عالِمٌ رُوحانِيٌّ كبير ممن يُحضرُونَ الأرواحَ من عالَمِ الغَيْب …

— وما مُهِمَّةُ هذا المُحَضِّرِ للأرواح فى مُؤْتَمرٍ يعملُ لدنيا الأحياءِ ولمستقبلِ العالمِ الأرضِيِّ ؟

— لقد استدْعَوْهُ ليسترشِدوا بآرائِه فى حَلِّ مُعْضِلاتِ المؤتمر …

— كيفَ ؟

— سيتصلُ هذا العالِمُ بالأرواحِ ليستشيرَهَا فيما يَغْمُضُ من الأُمُور … يقولونَ إن هذه الكائناتِ النُّورانيَّةَ قد صفَا جوهَرُها ودقَّ إحساسُها واستنارتْ بصيرتُها ، فلا تلبثُ أشدُّ المسائلِ خَفاءً وإشْكالًا أن تستبِينَ أمامها وتَنْجلِيَ …

— وهل ترضَى الأرواحُ أن تفعلَ ذلك من أجلِنا ؟

— هذا ماسيَجْلوه لنا ذلك العالِمُ الجليلُ …

— ألا فليَدَعُوا الأرواحَ هانئةً فى مُسْتَقَرِّها … لقد فَرَغتْ جَعْبَتُها من مشكلاتِ الدنيا بعد أن عانَتْ من ضجيجها ومُنَغِّصاتِها ما كفاها . فلماذا يريدُون إقحامَها فى مشكلاتنا المعقَّدةِ المُضْنِيَة ؟!

— على الأرواحِ أن تُسهِمَ فى خَيْرِ المجتمع !

— إن خيرَ المجتمعِ فى نَظَرِها هو زوالُ هذه الدنيا بما حوَتْ من شرورٍ وآثام ، ولَحَاقُ أُناسِها بالعالَمِ الآخر . هناك تصفُو النفوسُ وتزولُ الأحقادُ ويعيشُ الناسُ فى وِئام …

— إنه ليُؤْسِفُنى أن أراكَ دائمًا جامدَ العقل ضَيِّقَ أُفقِ التفكيرِ ، خاضعًا دائمًا لنَزْعَتِكَ المتشائمةِ الغَلَّابة … افهمْ يارجلُ أنَّ العِلْمَ الحديثَ أثبتَ أنْ ليس ثمةَ انقطاعٌ بين عالَمِ الأحياء وعالمِ الأرواح ، فالاتصالُ دائم على نحوٍ يدعُو إلى العَجب … إن الأرواحَ تملأُ الدنيا وتشارِكُنا فى كلِّ شيء … وإنها أقربُ

إلينا من أىِّ كائنٍ آخرَ ...

— إنى أُدْرِكُ بعقليَّتى الكليلةِ القاصِرةِ أن الروحَ خيرٌ كلُّها ... أما الإنسانُ فهو شرٌّ كلُّه .. وثَمَّةَ بَوْنٌ شاسع بين الخَيْرِ الصِّرْفِ والشرِّ المَحْض ... فكيف تريدون المَزْجَ بينهما ؟

— لا يصعُب شىءٌ على العِلْمِ الحديث .. إنه معجزةُ العصر ، وسترى كيف تكونُ جَوْلاتُه الموفَّقةُ فى سبيلِ خيرِ الإنسانية !

— يسمعُ اللهُ مِنْكَ ! ...

١٩ يناير

حَرِصَ المؤتمرُ على أَلَّا يُهدِرَ من وقتِه شيئًا ، فقد بدأ عملَه فى صباحِ اليوم التالى لوُصُولِ أعضائه ... وعند ماقَدَّمْتُ للرئيسِ بَرْنامَجَ التسليةِ والتنزُّه الذى أعددْناهُ للأعضاءِ بعد جَلَساتِ العمل ، قال لى وابتسامته العذبةُ تَشِيعُ فى وجهِه :

لغيرِ التسليةِ والتنزُّهِ جِئْنا أيها الصديقُ الكريم ، إنما جِئْنا لإِنقاذِ العالَمِ مما حَلَّ به من خرابٍ ودَمار ... سيكونُ لدينا الوقتُ الكافِى لهذه التسلياتِ حين ننتهِى من وضع بَرْنامَجِ التعميرِ العالمىِّ ...

— وحفلةُ التكريمِ ياجنابَ الرئيس ؟

فَرَنا إلىَّ دَهِشًا ، وقال :

تريدُونَ أن تُكَرِّمونا ؟ شُكرًا لكم ! ... ولكننا لم نأتِ بعدُ بشىءٍ نستحِقُّ عليه هذا التكريمَ ... سنرجِئُ هذا أيضًا حتى نَنْتَهِىَ من حلِّ مشكِلاتِ العالَم ...

— ولكن المراسمَ والتقاليدَ ياجنابَ الرئيسِ تَحْتِمُ علينا أن نُقِيمَ لكم حفلةَ تكريمٍ يَخْطُبُ فيها الخطباءُ معدِّدِينَ للمِلإِ آثارَكُمْ و ...

— سندَعُ لأعمالِنا أن تتكلَّمَ هى بنفسِها عن مآثِرنا إن كان لنا مآثِرُ ...

كانتْ أُولى الجلساتِ ممتعةً حقًّا ... ولا أُبالِغ إذا سَمَّيْتُها بالجلسةِ الرُّوحانيَّة ، فقد مضى الوقتُ كلُّه فى التحدُّثِ عما سيفيدُه المؤتمرُ من الأرواح . وقد انتهَوْا إلى نتيجةٍ خطيرة لم أكُن أتوقَّعُ أن نصلَ إليها بأيَّةِ حال ...

التَفَّ أعضاءُ المؤتمر حول المِنْضَدَةِ المستديرةِ العظيمةِ فى بَهْوِ الاحتفالات الكبير . وكان تِمثالا « رمسيسَ الثانى » و « محمدِ علِىٍّ الكبيرِ » اللذان

يحتلُّ كلٌّ منها أحدَ أركانِ القاعةِ يُشْرِفانِ من عَلٍ على المِنْضَدَةِ ، كأنما يَرْعَيانِ الأعضاءَ ، ويُلْهِمَانِهِم الحكمةَ والمَضاءَ !

وكان لَألاءُ الشمسِ المتمعُ على صفحةِ النيلِ أمامَ القصرِ يَتَدَفَّقُ من النافذةِ المستطيلةِ الكبيرةِ ، وينعكسُ على المرايا العظيمةِ التى تُزَيِّنُ جُدرانَ القاعة ، فيَبهر الأنظار ...

والتفتَ إلىَّ رئيسُ المؤتمر بوجهِهِ العريضِ ذِى البَشَرةِ الوردِيَّةِ الملتمعةِ ، وبعد أن حَكَّ بخِنْصَرِه جِلْدَةَ رأسِه الأَصْلَعِ ، قال :

يلُوحُ لى أنَّ الأعضاءَ لم يكتملْ عددُهم ...

— ثلاثةٌ لم يحضُروا ياصاحبَ السعادة ، الأولُ : مندوبُ الجَبْهَةِ العُليا للمحارِبِينَ القُدَماء ، لقد كان متغَيِّبًا فى أقاصِى السودانِ حينما تمَّ انتخابُه ، وهو حاضرٌ غداً . والثانى : مندوبُ البلاغةِ الدَّوْليَّة ، وسيحضُر بعدَ يومين على الأكثر ، لاشتغالِه الآنَ برياسةِ مؤتمرِ توحيدِ اللغات فى مدينة « ماين » .

— والثالث ؟

— مندوبُ مصرَ نورُ الدِّين بك .

— صائدُ الدِّببَةِ العالَمِىُّ ؟

— هو نفسُه ... إنه الآنَ مع البَعْثَةِ العلميَّةِ لتحسينِ نَسْلِ الدِّببَة والعملِ على إكثارها بمدينةِ أورلوفَ بمنطقةِ القُطْبِ الشمالىِّ ، وقد أبرَقَ إلينا أنه آتٍ فى أقربِ فرصة ، فالبَعْثَةُ قد أوْشَكَتْ أن تُتِمَّ أعمالَها ...

— حَسَنًا ...

ونهض الرئيسُ قائلا : فُتِحَتِ الجلسة .

وقام على أَثَرِه العالِمُ الرُّوحانىُّ يتحدَّثُ إلى الجَمْعِ فى صوتِه الأغنِّ الساحِرِ ، فقال :

أيها الزُّصَفاء الأفاضلُ من دُعاةِ السلام ... لقد رغبتُم إلىّ ليلةَ أمس فى الاتِّصالِ بعالَمِ الأرواح ، وقد اضطلعتُ بما كَلَّفتُمونى إياه . وها كم تقريرى .

وحَبْسنا أنفاسَنا مُرْهِفينَ المسامعَ . فاستأنَف قائلا :

لقد طلبتُم إلىَّ أن أتحدَّثَ إلى أقطابِ السلام ودُعاةِ المحبَّة فى العالَمِ الآخر ، مَنْ وقَفُوا حياتَهم على خدمةِ الإنسانيةِ ومحاربةِ الطُّغيان ، والتبشيرِ بمُثُلِ الخير ، أمثالِ : بوذا ، وكونفشيوس ، وغيرهما . ولكنَّ خِبْرتى الطويلةَ فى عالَمِ الرُّوح دَعَتْنى إلى التخلِّى عن تنفيذِ هذه الفكرة ، مع احترامى لهيئةِ المؤتمر الموقَّرة ، فليس لمثلِ بوذا وكونفشيوس ذِكْرٌ اليوم فى العالَمِ الثانى . فإنى لم أسمَعْ بخبرهما ، ولطالما بحثتُ عنهما ، فلم أهتدِ إلى مستقرِّهما ...

فنهَضَ مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى ، بقامَتِه القصيرة ، وقال وعيناه الضَّيِّقتان تلتمعانِ حيرةً وغضَباً : كيف لم تهتدِ إلى مستقرِّهما ؟ وأينَ هما إذن ؟

— قد يكونان مختفيَيْن فى مكانٍ منزوٍ منعزلٍ فى ذلك العالَمِ السِّحرىِّ المملوءِ بالأسرار ، وقد يكونان شخصيَّتَيْن من صُنْعِ الوَهْمِ والخيال ! ... إن كُتُبَ التاريخ التى بين ظَهْرانَيْنا هى من صُنْعِ أيدينا ، فليس لنا أن نَثِقَ بصِدْقِ كلِّ ماجاء فيها ... كم فى هذه الكتبِ من تمويهٍ وتضليل ! ...

فسَرَتْ همهمةٌ بين الجالسين ، ولَفَظ مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى بعضَ كلماتِ احتجاج ، جلَسَ على أثرِها وهو يداعِبُ عُثْنُونَه المنتفشَ مداعبةً عَنيفة ... وواصلَ العالِمُ الرُّوحانىُّ حديثَه قائلا :

لسنا فى مؤتمرٍ تاريخىٍّ مقصدُه الأولُ التثبُّتُ من شخصياتِ عصورِ التاريخ ، بل نحن جماعةٌ من دُعاةِ السَّلام يريدونَ الاستئناسَ برأى الأرواح فى تحقيقِ هذه الدعوة ... وقد وقعَ اختيارى على زعيمَيْن كُفْئَيْن لن تجدُوا لهما مثيلا ، وسنُفيد من رأيهما الناصعِ أكبرَ الفائدةِ بلا رَيْب ...

فصاح أعضاءُ المؤتمرِ فى صوتٍ واحد : من هما ؟

وانثنى العالِمُ الجليلُ يمشِّطُ لحيتَه الفضيَّةَ صامتاً وهو يُرَاعِينا بنظرةِ حنان ...

ثم قال : لقد اخترتُ لكم تيمورلنكَ ، وكليوبترة .

فغمغم الجَمْعُ مدهوشِين . ونهض مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشماليةِ بقامتِه الفارعةِ وعودِه النحيفِ الأعْجَفِ ، وهو يمسَحُ نظارتَه الفرديةَ فى إلحاحٍ ومعاوَدَة ، وقال :

كيف تريدُنا على أن نسترشِدَ برأيِ زعيمَيْن من الطُّغَاة لم تخلُ سيرتُهما المسطَّرَة فى كتبِ التاريخِ من استعبادٍ للناس وعَيْثٍ فى الأرضِ فسادا ؟

فأجابَه العالِمُ الرُّوحانىُّ بابتسامةٍ ساحرة ، شفَعَها بقوله : لقد قلتُ إن التاريخ لم يكنْ أميناً فى كلِّ ما نقلَه إلينا من أحداثِ الدهرِ الغابر ، بَيْدَ أنِّى قد اعتمدتُ فى اختيارِى لهاتَيْن الشخصيتَيْن على رأيٍ أبسُطه أمامَكم الساعةَ ، لكمْ أن تأخذوا به وأن تطرَحُوه جانباً ... نَعْلَمُ جميعاً كما قرَّرَ زميلُنا مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشماليةِ البالغُ الاحترامِ أن تيمورلنكَ كان طاغيةً سفَّاكاً شَقِيَتْ به الإنسانيةُ رَدَحاً من الزمن ، ولكنه قضَى فى عالمِ الرُّوحِ حِقَباً طويلةً تطوَّرَتْ فيها نفسيَّتُه كبيرَ تَطَوُّر ، وانتهى به الأمرُ اليومَ إلى أن أصبحَ من شِيعَةِ السَّلام ، فقد اقتنَعَ بِعِظَمِ الجُرْمِ الذى ارتكبَه فى حَقِّ الإنسانية ، ويرغبُ الآنَ فى أن تُتاحَ له الفرصةَ ـ وهو الخبيرُ الفنَّانُ بالحروب ، والعالِمُ المتفقِّهُ فى مآسِيها ونكباتِها ـ حتى يُصْلِحَ بعضَ ما أفسَدَ بما يقدِّمُه لهيئةِ المجالسِ الموقَّرِ من آراءٍ صائبةٍ فى السلامِ ومَنْعِ الحرب ، ولا مِرْيَةَ أن آراءَه تلك وليدةُ خبرةٍ عميقة وتجاربَ طِوَال ...

وارتفع صوتٌ دقيقٌ حادّ ، فالتفتنا كلُّنا صَوْبَه ، فإذا بوزيرِ المناطِقِ الجنوبيةِ السَّبعِ قد قام بجسمِه المتكتِّلِ القصيرِ ووجهِه الكُرَوِىِّ المُقبَّبِ ، وقال :

وما حُجَّتُك أيها الأستاذُ الجليلُ فى دعوةِ كليوبترة ؟

فقال العالِمُ الرُّوحانيُّ على الأثرِ : إني بانتخابي لكليوبترة أَهْدِف إلى غرضٍ وجيه عزَبَ عن بالِ المؤتمرِ الموقَّر ، وهو اشتراكُ الجِنْسِ اللَّطيفِ معَنا في هـذا العملِ الإنسانيِّ . ومَن أَحَقُّ من الجنسِ اللطيفِ - وهو رمزُ الحنان والحبِّ - بأن يُدْلِيَ برأيه ؟ ومَن أولَى منه بأن يُقيمَ الحجةَ في مؤتمرٍ قضيَّته الأولَى والأخيرةُ : الحبُّ الإنسانيُّ في أسمى مراتبِه ؟

فأجابه مندوبُ المناطقِ الجنوبية السَّبْعِ وهو يغـلو في الإشارةِ بيديه : ولِمَ انتخبتَ كليوبترةَ دونَ سواها ؟

— لأنها تأَمَّرَتْ على هذا الوادِي الجميلِ حِيناً من الدهر ، فنحن اليومَ في ضِيافتها ! ... هذا إلى أنها ملـكةٌ قديرة عَرَكَت الحياةَ الدنيويةَ وخاضَتْ غِمارَها في كلِّ ناحية من نواحيها ، فاستبان لهـا خَيْرُها وشَرُّها . وكان عصرُها عصرَ حروبٍ متلاحقة ، وملتقَى قادةٍ جبابرة ، فهي إذا تـكلمتْ صَـدَرَ كلامُها عن خبرةٍ وحصافة ...

وصاح وزيرُ المناطقِ الجنوبية السَّبْعِ وهو يُشَـكِّلُ مَلامِحَ وجهِه تشكيلاً عجيباً : لِتُؤْخَذِ الأصواتُ ...

فوافق أَغْلَبُ الأعضاءِ على رأيِ العالِمِ الرُّوحانيّ ، فنهَضَ من فَوْره يشكرُ المؤتمرَ في لهجتِه الهـادئةِ الساحرةِ ، وقال متابعًا حـديثَه :

والآنَ أُنْهِي إليكم أيها السادةُ الأجلاءُ رغبةَ كلٍّ من تيمورلنكَ وكليوبترةَ في الحضورِ لِلاشتراكِ في جلساتِ المؤتمر ...

ففغرَ الأعضاءُ أفواهَهم ، وشَمِلَهُم الصمتُ العميقُ هُنَيْهَة ، ثم لاحَ الوجْهُ الـكُرَوِيُّ المقبَّب وقال في لهجةِ المتلعْـثِم :

تَقْصِد أيها العالِمُ الجليلُ ... أن صاحِبَي الجلالةِ الإمبراطوريةِ تيمورلنكَ وكليوبترة ... سيحضُران هما ... هما نفساهما ، من العالَمِ الآخَر ؟

— هذا ما أعْنِيه ... سيحضُران متجسِّدَيْن ...

فعاد وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السبعِ يُتَأْتِئُ بصوتِه الدقيقِ قائلا :

ولكن ... الأرواحُ أيّها العالِمُ الجليلُ ... لاتتجلَّى متجسِّدَةً إلا فى ملابَسات خاصّة وفى أمكنة مُعَيَّنَة ... ولا تلبثُ إلا أوقاتاً قصيرة ... و ...

— هذا عملى أيُّها الزميلُ المحترم ... إن شئتم قصَدْنا جميعاً إلى المطارِ غداً فى مَطْلَعِ الفَجْر ، لاستقبال صاحِبَى الجلالةِ الإمبراطوريةِ ، فسيحضُرانِ على مَتْن طائرة ...

فتكلم رئيسُ المؤتمر بلهجتِه الرصينة وصوتِه الواضحِ النَّبَرات ، وهو يَحُكُّ صَلْعَتَه :

تَقْصِدُ طائرةً من طِرَازِ طائراتِنا ؟

— إنها طائرة مصنوعةٌ من السحابِ الوَرْدِيِّ ...

فهمهَمْنا جميعاً :

من السحابِ الوردِيِّ ... !

---

٣٠ يناير

قضيتُ ليلةَ أمسِ مُسَهَّدَ الجفْنِ ، فريسةً لحيرةٍ شديدة واضطرابٍ بالغ . وكان رأسي يَمُوجُ بشتَّي الأمور ، لاأفتأُ أذْرَعُ بخُطُواتي أرضَ الغرفةِ جَيْئةً وذُهُوبا . و « عبدُ العال » الحاجبُ جالسٌ على حَشِيَّةٍ في ركن قَصِيّ ، يَجْرعُ من مُغْلَى النَّعناع ، ساهماً في تبلُّد . ووقفتُ أمامَه مَغِيظًا وقلتُ :

أَحسَبُكَ تظلُّ على هذه الحال تَجْرَع من نَعْناعك ، هادئًا مُسْتَنِيماً ، حتى لو أَطْبَقَتِ السماء على الأرضِ ...

— وماذا تريدُني أن أفعلَ ... ؟

— تكلمْ ... قلْ شيئًا ... حدِّثني في الأمرِ الخطيرِ الذي سيتمخَّضُ عنه مَطْلَعُ الفَجْر .

— مازلتَ تُقْلِقُ نفسكَ بهذا الحادثِ على غيرِ جَدْوَى ... !

فهززتُ كتفَيْه قائلا : اصْحُ ياعبدَ العال افندي ... ياحاجبَ مؤتمر المدينةِ الفاضلةِ لدَعْمِ السلام ... ألا تعلمُ أن صاحِبَيْ ...

فقاطعَني بقوله وهو يتثاءَبُ : أن صاحِبَي الجلالةِ الإمبراطوريةِ تيمورلنك وكليوبترةَ سيهبطانِ على مَتْنِ سحابة ... ؟ !

— إذن ...

— إن الله على كلِّ شيءٍ قَدير ... !

— ولكن تَصوَّرْ أنكَ سترى أمامَك رُوحَيْ تيمورلنكَ وكليوبترةَ مُتَجسِّدَيْن ... سيقعُ نظرُكَ أولَ مرةٍ على رُوحَيْن ... تستطيعُ

أن تتحدَّثَ إليهما وتجالسَهما بل تلامِسَهما ...

— لستُ ممن يرهَبُونَ الأرواحَ !

— مهما يكنْ من الأمرِ فالحادثُ خَطِير ...

— الحادثُ خَطِير حقًّا فى ناحيةٍ واحدة ...

— أيَّة ناحيةٍ يا عبدَ العال ؟ !

فأفرغ « عبدُ العال » جُرْعةً وافيةً من مُغْلَى النَّعْناع فى حَلْقِه ، ثم قال على الأثر :

لو تمادَى هذا العالمُ الرُّوحانىّ فى دعوة الأرواحِ من العالَم الثانى ، وجاءَ لنا كلَّ يومٍ ببضعةِ أرواحٍ من آبائنا الأتربينَ وأجدادِنا الأوَّلين ... فماذا يَحْدُثُ ؟ !

— ألا تُسَرُّ إذا عادتْ إليك رُوحٌ محبَّبةٌ من أرواحِ ذَوِيك ؟

فأطرقَ « عبدُ العال » وتلاعب بقَدَحِه وقتًا ، ثم قال :

أتريدُ الحقَّ ؟ ... لاأَدْرِى على وجهِ التحقيق ، ولكنى أستطيعُ أن أؤكدَ لكَ أنى لا أرتاحُ لرؤيةِ رُوحٍ يناقشُنى الحسابَ !

وانسرحتُ أفكِّر فى جملةِ هذا الرجلِ الساذَجِ المتفلسف ، وتبيَّنَ لى أن فلسفتَه الرجعيةَ لاتخلُو من طرافة . وربَّتُّ كَتِفَه مداعِبًا وأنا أقول :

ماذا يكونُ مَصِيرُ صاحبِنا العالِمِ الرُّوحانىِّ إذا قام بهذه التجربةِ الخطيرة ، وأعاد إلينا أرواحَ مَوْتانا ؟

فغمغم « عبدُ العال » : أكبرُ ظنِّى أن الجمهورَ لن يُمَكِّنَه من التمادِى فى ذلك ... سيبعثُ به هو نفسِه وَشِيكًا إلى عالَمِ الأرواح ... !

... وفى منتَصَفِ الساعةِ الثالثةِ صباحًا خرجتُ مع « عبدِ العال » إلى البابِ ، فألفيتُ سيارةَ المؤتمر فى انتظارِى . ووقعَ بصرى على الشاويش « سيد متولى » ، وكان واقفًا عن كَثَبٍ من السيارةِ وقفتَه الصُّلْبة المتخشِّبَة ، ورأسُه

مرفوع ، وصَدْرُه بارز يكاد يَشُقُّ صِدَارَه ... فقلتُ له على الأثَر :

هل أشرفْتَ على إعدادِ الجناحَيْن فى فُنْدُقِ : الشَّرْقِ المُتَوَّج ؟

فأدّى التحيةَ العسكريةَ ، كأنه دُمْيَةٌ تتحرك بلَوْلَب ، وقال :

كلُّ شيءٍ على أتمِّ استعداد ...

— وأعضاء المؤتمر ؟ !

— سَيَنْتَقِلُونَ الساعة بكامِلِ هيئتهم إلى المَطَار ...

وركبتُ السيارةَ ومعى الحاجبُ « عبدُ العال » والشاويشُ « سيد متولى » وسرنا قاصِدِينَ المطار . وما كاد المطارُ يلوحُ لنا على ضوءِ المصابيحِ الكهربيَّةِ الكشَّافة حتى تراءَت جموعُ الناسِ الزاخرةُ فى هَرْجٍ ومَرْجٍ ... وتركتُ السيارةَ وقصدتُ تَوًّا إلى المكان المُعَدّ لأعضاءِ المؤتمر . وما لبثْتُ أن رأيتُ سيارةَ الأعضاءِ الفخمةَ العظيمةَ تتهادَى فى سيرِها نحوَنا ، فما أسرعَ أن هرْوَلْتُ إليها ... ونزل الأعضاءُ يتقدَّمُهم العالِمُ الرُّوحانىُّ ، وكانوا كلُّهم فى لَبُوسِ الحفلاتِ تحلّى صدورَهم أوسمتُهم البرَّاقةُ ، ولمحتُ الرئيسَ يهمِسُ فى أُذُنِ العالِمِ الرُّوحانىِّ بقولِهِ :

أثمّةَ تأجيلٌ فى موعدِ وصولِ الطائرةِ أيها العالِمُ المبجّل ؟ !

— كن مطمئِنًّا ياصاحبَ السعادة ، فقد انتهتْ إلىَّ برقيةٌ سَمَاعِيَّةٌ رمزيَّةٌ تؤكّد لى أن الطائرةَ ستهبطُ المطارَ عند بزوغِ أولِ خيطٍ من أضواءِ الفجر .

وتطلّعَ الرئيسُ فى الأُفُقِ مَلِيًّا ناحيةَ المَشْرِق ، ثم حكَّ بإصبعِهِ جلدةَ رأسه اللامعة . ووقفنا جميعاً موقِفَ الانْتظار ، قلِقِينَ لانستقرُّ على حال . بَيْدَ أن وزيرَ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْع كان أكثرَنا قَلَقاً ، يتابِعُ الهمسَ والإشارة ، والنظرَ فى ساعةِ مِعْصَمِه . وظَلِلْنا كذلك وقتاً ... وكنتُ أنظُرُ خُلْسَةً بين الفَيْنَةِ والفينةِ إلى العالِمِ الرُّوحانىّ ، فما هى إلا أن رأيتُ وجهَه قد استنار بغتةً وسمعتُه يهمهم ، وهو يشيرُ بإصبعِهِ نحوَ السماء : انظُروا ...

فتحولَتْ نظراتُنا على التَّوِّ حيثُ أشارَ ، فلمحْنَا خَيْطاً دقيقاً من نورٍ يشُقُّ السماءَ شَقّاً ... وما لبثْنا أن تبيَّنّا فى مقدِّمةِ هذا الخيطِ جسماً يبدُو فى توهُّجٍ وَرْدِيٍّ ، فعلَتْ صَيْحَاتُ الجَمْعِ بغتةً مهلِّلةً مبتهجة . وظلَّ هـذا الجسمُ يكبُرُ رُوَيْداً رويداً ووِجْهَتُه المطار . وكان كلما تَدَانَى نحونا خَفَت الضَّجَّةُ والتصايُح ، فما إن توضَّح لنـا هـذا الجسمُ وتكشَّفَ عن سحابةٍ ورديَّةٍ شفَّافةٍ حتى غَشِيَ المـكانَ صَمْت ...

وَهَبَطَت السحابةُ على الأَرْض ، وخُيِّلَ إلىَّ أنى أستمعُ إلى مُوسيقى خافتةٍ تصحَبُها أهازيجُ تُنْشِدُها جماعةٌ مستورة . وكان اللحنُ بالغَ العذوبة حتى أنسانى نفسى وموقِفِى من هـذا الجَمْعِ ... وانتبهتُ على صـوتِ الرئيسِ وهو يَصِيحُ :

أينَ كاتمُ السِّرِّ ؟ ... فليتقدمْ كاتمُ السِّرِّ ... !

وأحسستُ قدمَىَّ تدفعانِى إلى مكانِ الطائرة ، وما كدتُ أرفعُ بصرى إليها حتى رأيتُها تَرِقُّ وتتزايلُ معالِمُهَا فى سرعةٍ عجيبة ، واختفتْ فى لحظة . فتلفتُّ حولى ، فإذا بالعالِمِ الرُّوحانِىِّ يتقدمُ إلى سيدةٍ متَّشِحَةٍ بِشِبْهِ غِلالةٍ ورديةٍ ووجهُها يسطَعُ بهاءً وعظمة . وعلى مَقْرَبَةٍ منها رجلٌ أسمرُ مُتَهَدِّلُ الشاربِ على رأسِـهِ شِـبْهُ طُرْطُورٍ طويلٍ لُفَّتْ عليه عِمامةٌ ناصعةُ البياض . وشاهَدْتُ العالِمَ الرُّوحانىَّ ينحنى على يدِ السيدة يقبِّلُها فى خشوع ، فإذا بها تجذِب يَدَها فى تلطُّف وهى تقول : لا . لا ياسيدى ... أستغفرُ اللهَ ... !

ووخَزَنِى رئيسُ المؤتمر فى جنبى وهو يهمِسُ :

تقـدَّمْ ... تقـدم ... وَحَيِّ الزائرَيْن الجليلَيْن ... !

ومشيْتُ بخُطاً مضطربة ، وحاولتُ الكلامَ فخانَتْنِي حنجرتى . وأحسستُ الألفاظَ تتراقص على شَفَتَيَّ بلا صـوت ، فانحنيتُ انحناءةً بالغةً ، ثم ارتددْتُ خُطْوَةً إلى الوراء ، فإذا بوزيرِ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبعِ يَدْرُجُ بجِسْمِهِ الـكُرَوِىِّ

نحوَ الملكةِ ويَقِف وقْفَةَ ترحيب جريئةٍ . ثم يصيح :

فليحيَ صاحبا الجلالة الإمبراطورية ... !

وما لبثَ أن تخاذلتْ أعضاؤه ، وسقطَ على الفَوْر مغْشيًّا عليه ... فحُمِلَ على التَّوِّ إلى ظُلَّة الإسعاف ...

ولم أجِدْ بُدًّا من التقدُّم ، فدنوت من الملكةِ وقلتُ :

أنا كاتمُ سِرِّ المؤتمرِ ورئيسُ المراسِم ... تجديننِي دائمًا رَهْن إشارةِ جلالتِك ... أتأمُرينَ بشيء يامولاتى ؟ !

فقالتْ فى صوتِها الرقيقِ المُنَغَّم : لا شيء ... شكراً لكَ ...

وشعرتُ بشيءٍ يحفِزُنى إلى أن أرْفَعَ بَصَرِى إلى وجهِها أتبيَّن مَلامحَهُ ولاسيَّما الأنفُ ... ذلك الذى قيلَ فيه إنه لو كان صغيراً أكثرَ مما هو قِيدَ أُنْمُلةٍ لتغيَّرَ وَجْهُ التاريخ ! .. ولكنَّ عينَىَّ ارتدَّتا حسِيرَتَيْن ، وقلتُ وأنا أسْتُر حَيْرَتى :

وأين حقائبُ صاحبةِ الجلالة ؟ !

فرَنَّتْ فى أذنى قهقهةٌ لطيفة ، وإذا بالرجلِ الأسمرِ ذى الطُّرطورِ يقول :

هوِّن عليكَ ياصاحبي ... لا حاجةَ لنا بحقائبَ .

فالتفتُّ إليه فإذا به يسير فى تباطُؤ ، يُعانِى عَرجًا خفيفًا ... فانحنيت أحيِّيه تحيةً بالغة ، مردِّداً :

صاحبُ الجلالةِ سلطانُ المُغول وأميرُ سَمَرْقَنْد وعاهلُ مملكةِ ما وراءَ النَّهرِ و ...

فسمعته يقاطِعُنى بقوله فى صوتٍ هادىٍٔ ليِّن : على رِسْلِكَ ياصاحبى ... إنها لألقابٌ كلُّها زَيْفٌ وبُهتان ... سمِّنى بتيمورَ الأعْرجِ وكفى .

... وأقبلَ أعضاءُ المؤتمر يحيُّون الملِكَيْن واحداً إثْرَ واحد ، وشعرْتُ بالنشاطِ يَدِبُّ فى جِسْمى ، وأدرتُ بصرى حولى وأنا أجمجم : أين الشاويش متولى ؟ أين الشاويش متولى ؟ ... وما كدتُ أُتِمُّ قولى حتى علا صوتُه قائلا :

قرقول سلاح ... !

وصَلْصَلَ العَسْكَرُ بالسلاح ، وضربوا بأقدامِهم الأرض فاهتزَّتْ ، ومرتْ «كليوبترة» يرافِقها «تيمورلنكُ» بين صَفَّين من الجند ، وأعضاءُ المؤتمر يسيرُونَ خلفَهما فى خُطًّا متعثِّرة ... ووقفتْ «كليوبترةَ» بغتةً أمام جنديّ ومضتْ تُحدِّق ببصرِها فى بندقيَّتِه ، ثم رنَتْ إلى «تيمورلنكَ» تقول : أترَى هذا السلاحَ العجيبَ ؟

فلاحَ على وجهِهِ طَيْفُ ابتسامةٍ وقال : يقولونَ إنه أشَدُّ فتكاً من القِسِىِّ والرماح !

— ماأغناهُمْ عنه !

ومالتْ على رئيسِ المؤتمرِ تقول :

لِمَ لايستبدِلُون بهذا السلاحِ سَعَفَ النخل وطاقاتِ الزُّهورِ ؟ !

— سنفعلُ ياصاحبةَ الجلالة ... هذه مهمَّتُنا التى من أجلِها جِئنا ...

وخرجْنا من الصَّفَّيْن ، فألفيْنا أنفسَنا نسيرُ وَسْطَ طُوفانٍ زاخرٍ من الناس يتدافَعُون حولَنا بالمناكِبِ ، ويتطاولونَ بالأعناقِ ، ويتطلَّعُون إلى الضَّيفَيْن الكريمَيْن فى شغفٍ وإقبال . وتَسلَّلَ من بين هذا الجمع الحاشِدِ كلبٌ هزيل متراخِى الأذنَيْن يَثْنِى ذَيلَه بين ساقيْه ويعدُو فى رِعْدَةِ الجبان ، فإذا بالشاويش «سيد متولى» يمضِى فى أثَرِهِ وَشيكاً وقد رفع فى يده هِراوَتَه القصيرةَ يريد أن يَهوِىَ بها عليه ، تأديباً له على اقتحامِ ذلك المكانِ وإفسادِ نظامِ الاِحْتفال . ولكن ماأسْرعَ أن نَدَّتْ صيحةٌ من «تيمورلنكَ» تهيبُ به ألَّا يفعلَ ، فتراجعتْ يدُ الشاويش «سيد متولى» إلى مكانها صاغرةً ، ورأينا «تيمورلنكَ» يتقدمُ من الكلبِ مستوقفاً إيَّاه فى صوت وافِرِ الحُنُوِّ والرَّأفة ، فاطمأنَّ إليه بعضَ الاطمئنان ، وتطلَّعَ إليه ذاهلاً . . فجثا «تيمورلنكُ» أمامَه وراح يربِّتُ ظهرَهُ ويقول : أيها الحيوانُ الطَّرِيد ... لاتَخْشَ بأساً ... لن تشقَى بعدَ اليوم ! ...

وحمله بيدَيْه وسلَّمه إلى الشاويش «سيد متولى» وهو يقول :

فلتُعْنَوْا بأمرِه ... أحْسِنوا إطعامَه ... إنه حيوانٌ أخرسُ مضطَهد ... إن بين هاتِه العجماواتِ ما يَفْضُلُ بنى الإنسانِ خصالًا !

وحيَّا الشاويشُ « تيمورلنكَ » تحيةً عسكرية والكلب على ذراعِه يُرْعَدُ ... وما كدنا نَخْطو بِضْعَ خُطُواتٍ حتى تقدَّم نحوَ المَلِكَيْنِ مندوب الصحافة المتحدة وخَلْفَه جَمْعٌ من المصوِّرين ، فانحنى انحناءةً شديدةً ثم قال :

أيسمَحُ صاحبا الجلالة بأن نلتقطَ لهما بضعَ صُوَرٍ تَذْكاراً لهذه الزيارةِ السعيدة ؟ !

فتخايلتْ على شَفَتَى « كليوبترة » ابتسامةٌ رقيقةٌ وقالت لـ« تيمورلنكَ » : انظرْ ... إنهم الصحفيونَ والمصوِّرونَ ، مَنْ وَصَفَهُم لنا بعضُ رُفَقائنا المُحْدَثِينَ فى العالَمِ الآخر .

ثم دَنَتْ من مندوبِ الصحافة المتحدة وقالت : يُؤْسِفُنى ياسيدى أن أُخبرَكَ بأنه ليس فى مقدورى أن أُلبِّيَ لك هذا المَطْلَب ... إن صُوَرَنا لا تظهرُ البتةَ على الألواحِ الحَسَّاسَةِ لهذه الآلاتِ المُصَوِّرَةِ ...

فوقف مندوبُ الصحافةِ لحظةً فاغراً فاه ، وانطلق الجَمْعُ يَنْظُرُ بعضُه إلى بعض مغمغماً . وما كاد مندوبُ الصحافةِ المتحدةِ يملِكُ نفسه حتى انحنى ثانيةً أمام الملكةِ وقال : يقينى أن الملكةَ لن تُخَيِّبَ رجائى فى حديث قصير .

— أىَّ حديثٍ تريد ؟

— سؤالٌ واحدٌ ...

— سَلْ ما بدا لكَ ...

فتريَّث مندوبُ الصحافة وقتاً ثم قال :

أتأذَنُ الملكةُ أن تتحدثَ إلينا بكلمةٍ مختصرةٍ فى شأنِ العالَمِ الآخر ؟ ...

فأرسلَ « تيمورلنكُ » قهقهةً فيها رزانةُ الحكماء ، وقال :

أتحسبُونَ العالَمَ الآخَرَ دنيا غريبةً لا تَصِلُها بدنياكم هذه مشابهة ؟ !

وتقدم العالَمُ الرُّوحانىُّ ، يُنَقِّلُ بَصَرَه فى اضطرابٍ بين « كليوبترة »

و « تيمورلنكَ » ، فقالتْ له الملكةُ على الأثر وهى تُكرْكِرُ ضَحِكاً :

اطْمَئِنَّ أيها الصديقُ الجليل ... لن نُفْشِىَ سرَّ المِهْنة ... !

ثم التفتتْ نحو مندوبِ الصحافةِ ، وقالت :

ثِقْ ياسيدى أن العالمَ الآخرَ ماهو إلا دنيا مُتَمِّمَةٌ لدنيا كم هذه ، ولكنها دنيا أوسعُ وأرحَبُ وأسمَى ... حسبُك هذا مِنِّى ...

ومضتْ فى خُطُواتِها الهادئةِ ونحنُ خلفَها سائرون .

وظهرتْ أمامنا السيارةُ الفخمةُ التى أُعِدَّتْ لركوبِ الضيفَيْن ، فهرولتُ أفتحُ بابَها وقلتُ للملكَيْنِ : فليتفضلْ صاحبا الجلالةِ بالركوبِ ... !

فسمعتُ « كليوبترةَ » تقول « لتيمورلنكَ » : إنها السياراتُ التى وصفها لنا الرِّفاقُ المُحْدَثُونَ بأنها تتحرَّكُ من تِلقاءِ نفسِها دون أن تقودَها الدوابُّ ...

وطَفِقَتْ تُطَوِّفُ ببصرِها فيها ، ثم غمغمتْ :

وَدِدْتُ لو أحضرتُمْ لى دابَّةً مكانَها ... !

فقلتُ على الأثَر :

إن الشُّقَّةَ بعيدةٌ ، والدابَّةَ بطيئةُ الحركةِ ، وفى ركوبِها مَشَقَّة ... !

فقالت « كليوبترةُ » لـ « تيمورلنكَ » : ماذا تَرَى ... ؟ !

— الأمرُ لكِ ... إذا لم تجدِى بأساً فلنركَبْها على سبيلِ التجرِبَةِ ...

والتفتتْ نحوى « كليوبترةُ » وقالتْ : وإلى أين تريدُوننا أن نذهبَ ؟ !

— إلى فُنْدُقِ الشَّرْقِ المُتَوَّجِ ياصاحبةَ الجلالة ...

فقالت على الفور فى لهجةٍ حازمة : كلا ، لن أسكنَ الفنادقَ البتةَ ...

ووجهتْ كلامَها إلى « تيمورلنكَ » : وأنتَ ؟

— وأنا أيضاً لا أسكُنُها ...

وتقدم رئيسُ المؤتمر من الملكَيْن ، وهو ينظُر إلىَّ مستنجداً . فرنوْتُ إلى

العالم الرُّوحانىّ فى استعطافٍ ورجاء ، فأقبلَ العالمُ على الضيفيْن يتحدَّثُ إليهما هامِساً ، ثم التفتَ إلينا وقال :

إن لصاحبةِ الجلالة رغبةً فى أن تسكُنَ المعبدَ المجاورَ لأبى الهَوْل !

فقلتُ : ولكنَّ المعبدَ ليس مُعَدًّا للإقامة ...

فقالت « كليوبترة » : لقد اخترتُه لنزولى ولن أستبدلَ به مكاناً آخر ... حسبى منه حجرةٌ واحدةٌ لاتحوى إلا حصيراً ووِسادة ...

فانحنيتُ مستسلما وأنا أردِّدُ : أمرُ صاحبةِ الجلالةِ مُطاع ...

وسمعتُ « تيمورلنكَ » يقول : أما أنا فانطلقوا بى إلى جامعِ السلطانِ حسنٍ ، سأصطَفِى رُكْناً هادئاً أقضى فيه وقتى بين الصلاة والتأمُّل .

ودخلَا السيارةَ ومعهما العالمُ الرُّوحانىُّ ، ودخلتُ فى أثرِهم ، على حين اعْتَلَى « عبدُ العال » مقعدَه بجوارِ السائق . وقد وقع أثناءَ ركوبِ الملكيْن حادثٌ خَشِيتُ أن يُثيرَ غضبَ « تيمورلنك » لما أعلَمُه من حُمْقِه وصَلفِه ، كما وصفتْه لنا كتبُ التاريخ . وذلك أنه حين دخولِه السيارةَ اصطدم طُرْطُورُه بأعلى البابِ فوقع الطُّرْطُور على الأرض يتدحرجُ ، فما أسرعَ أنِ التقطْتُه وأحسنتُ مَسْحَه وإماطةَ الغبار عنه ، ثم ناولتُه إياه ، فأخذه منى شاكراً فى دَعَةٍ وإيناسٍ ، وأحلَّه من رأسِه محلَّه .

ومضتِ السيارةُ وفى أثرِها رَتَلٌ من السيارات الأخرى تُقِلُّ أعضاءَ المؤتمر وبعضَ كبار المستقبلين . وكان الناسُ فى بعض الطريقِ وقوفاً جماعاتٍ تحيِّى الضيفيْن ، فيردُّ الضيفان التحيةَ بإشاراتٍ يتجلَّى فيها أسمَى معانى النُّبل وسماحةِ الخُلُق . وانطلق العالمُ الرُّوحانىُّ يتحدَّث إلى الملكين عن القاهرةِ وما حَفَلتْ به من مبانٍ فخمة ، ومعاهدَ راقية ، وحدائقَ فيَّاحة ، وما إلى ذلك من أسبابِ التمدُّن والعُمران . فكانا يَسْتَمِعان إليه فى لُطْفٍ ومودَّة ويُنقِّلان بصرَهما بين مشاهدِ الطريق ، دون أن يَظهرَ على ملامحِهما أثرٌ للدهشةِ أو الفضول ...

وانتهى بنا المسيرُ إلى فُنْدُقِ مينا هاوسَ حيثُ طلبْتُ أن يسارِعُوا بإرسالِ بعضِ العُمَّالِ إلى معبدِ أبي الهوْلِ ليُهيِّئُوا مكانًا يليقُ بمقامِ صاحبةِ الجلالة . . ووصلْنا سيرَنَا إلى المعبَدِ ، ووقفْنا عن كثَبٍ منه . وبارَحَتْ « كليوبترةُ » و « تيمورلنكُ » السيارةَ ، ووقَفَتِ الملكةُ وقتًا أمامَ أبي الهَوْلِ صامتةً تتأمَّلُه ... ومعارفُ وجهِها على حالِها هادئةٌ صافية . ولاحظتُ أنها كانتْ تُهمهم في صوتٍ خافض ... أما « تيمورلنكُ » فانطلقَ يطوِّفُ ببَصَرِهِ فيما حَوْلَه لا ينبِسُ . على حينِ كان أعضاءُ المؤتمر واقفِينَ صَفًّا خلفَهما في لَبُوسِهِم الأسوَدِ وقد بدأتْ أشعةُ الشمسِ يشتدُّ وَهَجُها فأخذتْ وجوهُهم تحتقِنُ ويتحلَّبُ منها العَرَق .

وانتبهتْ « كليوبترةُ » من أحلامِها فوقع نَظَرُها على الأعضاءِ وهم كالدُّمَى واقفونَ لا يتحرَّكُونَ والشمسُ لا ترْحمُهُمْ من سِياطِها الملتهبةِ ، فأقبلتْ عليهم وقالت :

لا تؤاخِذُونِي ... لقد شُغِلْتُ لحظةً عنكم بحديثٍ مَعَ أبي الهَوْل ... إني شاكرة لكم حُسْنَ استقبالِكم ... سنلتقِي غداً ...

وحَيَّتْهُمْ في وَدَاعَةٍ واتجهتْ نحو المعْبَد ، فانصرفُوا إلى سياراتِهم راجِعِين .

وكانت يَدُ الإصلاح والتجميل قد بدأتْ تمتَدُّ إلى المعبَدِ وما حولَه فتُزيلُ كُثْبانَ الرمالِ المحيطةَ به ، وتثْقُبُ بعضَ النوافِذِ في حجراتِه استجلابًا للضوءِ والهواء .

ودخلنا المعبَدَ فاختارتْ « كليوبترةُ » حجرةً صغيرةً لها نافذةٌ تُطِلُّ على رِحابِ الصحراء ، ثم قالتْ : هذه طَلِبَتي ...

وأقبلَ العُمَّالُ ينظِّفون المَكانَ ، ويُعِدُّونه وَفْقَ مَشِيئَةِ الملكة ... وعُنِيَ بعضُهم بوضعِ آلةِ التليفون اللاسلكيّ ، فقالتْ لِيَ الملكة :

أكبرُ الظَّنِّ أنهم يُعِدُّون الجهازَ المسمَّى بالتليفون ...

— الأمرُ كما قالتْ صاحبةُ الجلالة ...

— لماذا تريدونَ مضايقتي بهذه الأجهزَةِ ؟ ... أريدُ أن أَقضِيَ وقتي هنا

فى العبادةِ والتأمُّل ...

— قد تدْعو الحاجةُ يامولاتى إلى أن تتَّصِلى ببعضِ أقطابِ السَّاسَة ...

فقاطَعَتْنى بقولها : حسناً ... حسناً ... افْعَلُوا ما تريدون !

واستأذن « تيمورلنكُ » الملكةَ فى الذهابِ إلى مستقرِّه بجامعِ السُّلطان حَسَنٍ ، فاذِنَتْ له ، وجعل يتفقَّدُ الحاضِرين هُنَيْهَةً ، ثم استقرَّتْ عينُه على الشاويش « متولى » وكان واقفاً بجوارِ عَمُودٍ من عُمُدِ المَعْبَد ، وقْفَةَ الدُّمْيَةِ كعادتِه لا يتحرَّك ولا يَطْرِف ، فدنا منه مبتسماً وهو يقولُ : ستكون مُرَافِقِى أيها الصديقُ ...

فأدَّى الرجلُ التحيةَ العسكريةَ فى ضَجَّةٍ وعُنْفٍ وقال : أمرُ مولاى مُطاع ...

— والكلب ... ؟ !

— لقد عَهِدْتُ به إلى شخصٍ أمينٍ سيُعْنَى به أشدَّ عناية ...

— شكراً لكَ ... سيكونُ جزاؤُكَ عندَ اللهِ عظيماً ...

وخرجا فاستقلاَّ السيارةَ وتبعَتْهما سيارةٌ أخرى من السياراتِ الكبيرةِ غاصَّةً برجالِ الشُّرْطَة .

وما أسْرَعَ أنِ انتهى العمالُ من إعدادِ المعبَد ، فقد كانتْ مطالبُ الملكةِ غايةً فى السذاجةِ والتواضُعِ ، وقد أمَرَتْ أن تكونَ حجرتُها خاليةً من أدوات الزينةِ والتجمُّل ... حتى لقد رفضَتْ أن يكونَ للمرآةِ فيها مكانٌ ...

وجاء مهندس التليفونِ وانحنى أمامَ الملكةِ وقال :

ألا تتكرمُ صاحبةُ الجلالةِ فتجرِّبَ جهازَ التليفون ...

فنظرتْ إلىَّ الملكةُ وقالتْ : مع من تريدوننى أن أتحدثَ ؟

فقلت : مع من تشائينَ يامولاتى ... مع صاحبِ الجلالةِ تيمورلنكَ إذا رغبتِ ... إن فى السيارةِ التى أقلَّتْه الساعةَ جهازاً لاسلكيًّا ...

فابتسمتْ وقالت : لا بأسَ ... ستكونُ مباغتةً لهذا المسكين ... !

وسبقتُها إلى مكان التليفون ، فما كادتْ تخطو خطوةً إثْرى حتى دَقَّ الجرسُ ، فتوقفتْ عن المسير وتطلَّعت إلىَّ ، فأسرعتُ بقولى : إنه التليفون ...

— أيطلبونى ... ؟

— أحسَبُ ذلك ...

— اذْهبْ وانظرْ ماذا يريدون ؟ ...

وهُرِعْتُ إلى التليفون . وما إن انْتَهَيْتُ من مكالَمَتِى حتى عدتُ إليها أقولُ : مولاتى ... إنها إشارةٌ من مأمور قسم الصَّحْراءِ الشرقية يقولُ إنهم ضَبطوا شخصاً غريباً فى ملابسَ خير مألوفةٍ كان يحاولُ التعلُّقَ بأعقاب السيَّارةِ التى أقلَّتْ جلالتَك من المَطار ... ولما سُئل عن اسْمِه وعما كان يريدُ ، أجاب بأنه لن يُفْضِىَ بدَخيلةِ أمرِه إلا بمَحْضَرٍ منكِ يامولاتى ...

فانسرحتْ « كليوبترةُ » تفكّرُ وقتاً فيما تلتُه ، ثم انثنتْ تقول :

لابأسَ ، فليتقدمْ إلىّ ...

فعدتُ إلى التليفون ونقلتُ إلى المأمور إشارةَ الملكة ، ثم رجعتُ فإذا بقعقعةِ سلاحٍ تعلُو فى الخارج تصحبُها تحيةٌ مجلجلة . ثم ظهرَ بعدَ حين على عَتَبة البَهْوِ شخصٌ أسمرُ البَشَرة منبسطُ العود مَهيبُ الطلعة ، وَضَّاءُ المُحَيَّا ، فى مُكْتَمَلِ رجولتِه ... يلبَس ملابسَ الضُّباط على الزِّىِّ القديم ، وعلى صدْره تزدحِمُ مختلِفُ الأوْسِمةِ وهو متقلِّدٌ سيفاً طويلا مُرصَّعَ المَقْبِض ... دخل فى خُطُواتٍ رصينةٍ رنَّانة ... فما إنْ تَوَضَّحَ له شَبَحُ « كليوبترة » فى الضوءِ الخافتِ حتى تباطأتْ خُطاه وارتسمتْ على قَسَماتِ وجهه مظاهرُ الحيرة والتهيُّب ... ثم وقفَ يتطلَّع إلى الملكةِ فى خشيةٍ وتردُّد . وبدا عليه أنه يحاولُ الكلامَ ولكنه لم يفعلْ ... ورأيتُ « كليوبترة » ترنُو إليه فى وداعتِها المحبَّبَةِ ، وقالت :

تقدمْ ... تقدمْ ياسيدى ...

وبسط الرجلُ قامتَه ورفع هامتَه وقد زَمَّ قدميْه فى فَرْقعةٍ ، ورفع يدَه إلى حاجبِه يؤدِّى التحيةَ العسكرية ، وهو يقول :

السلامُ على ملكةِ الشرق كليوبترة العظيمة .

ثم وقف لا يتحرَّكُ ، فقالت الملكةُ : تقدمْ أيها الفارسُ ... من تكونُ ؟

واهتز شاربُه الغليظُ المفتولُ بإحكامٍ وأناقة ، ثم خطا خُطْوَتين الى الأمامِ وهو يقول : خادمُك زَيْنُ السُّيُوف !

فقلتُ على الأثر وقد وَضَحت لى شخصيَّتُه :

إنه الجنرالُ زَيْنُ السيوفِ باشا مندوبُ الجبْهة العليا المحاربينَ القُدماء ... لقد كان متغيِّباً فى أعالى النيلِ فى مهمَّةٍ ، وقد حضرَ اليومَ على مَتْن طائرة .

فقالت « كليوبترةُ » : أهلاً وسهلاً بالجنرال ...

ومدت له يدَها فما أسرعَ أن هَبَط عليها يُودِعُها قبلةَ احترامٍ بالغة ...

وواصلتْ « كليوبترةُ » حديثها قائلةً :

أكانت غَيْبتُكَ فى أعالى النيل لِشأنٍ من شئونِ الحرب ؟

فتكلمَ « زينُ السيوف باشا » بصوتٍ رصينٍ ، وقد تملَّكَ نفسَه : كنا نحاربُ العوضَ ... نرغَبُ فى القضاءِ عليه القضاءَ المُبْرَمَ . وكنا نخوضُ المعاركَ ضدَّ السُّدُودِ الكَتَّةِ العنيفةِ الرابضة فى الأنهار وعلى الجُسُور ، معاركَ حاميةً متصلة ... أما الحربُ بمعناها الصحيح فلم يَعُدْ لها فى هذا العصر سُوقٌ قائمة يامولاتى ... إن السلامَ يُخيِّمُ على الدنيا بأسْرِها ، وخاصةً فى بلدِنا هذا ...

— وقد اجْتمعْنا لنَدعَمَ هذا السلام .

— حسبُنا أن نُصْغِىَ لمشورتك ياصاحبة الجلالة ...

وجلستْ « كليوبترةُ » على مقعدٍ حجريٍّ من مقاعد المعبد ، وأشارتْ الى « زين السيوف باشا » أن يجلسَ بجوارها . فنظر اليها خاشعاً وهو يقول : مولاتى ...

— تعالَ اجلسْ ... لا تُثرِيبَ عليك ...

— إنى جُنْدِىٌّ ياصاحبةَ الجلالة ... ومن أوَّلِ واجباتِ الجندىِّ أن يرعَى من هو أعلَى منه مَقاماً ...

— أنَسِيتَ أننا أعضاء مؤتمرٍ واحد ؟ ... لا يَفْضُلُ شَخْصٌ شخصاً ... كلُّنا سواء .

— مهما يكن من أمرٍ فإنى جندىٌّ صميم ...

— وأنا أدْعُو هذا الجندىَّ الصميمَ ليشاركَنِى مقعَدِى ...

— سأُلَبِّى طلبَكِ يامولاتى كأنه أمرٌ صادرٌ لى من رئيسى ...

وفَسَحَتْ له مكاناً فجلسَ بجانِبِها ... وواصلتْ حديثَها قائلةً :

لماذا تتحرَّجُ أن تجالسَنِى و « المساواةُ » طابَعُ هذا العصرِ وشعارُه ؟ !

— لى فى المساواةِ رأىٌ خاصٌّ ...

— أو تَعُدُّ نفسَكَ من معارِضِيها ؟

— لستُ ممن يعتقِدُ صلاحيتَها كلَّ الصلاحيَة ...

— كيفَ ؟

— إن « المساواةَ » يامولاتى أمرٌ مُنَاهِضٌ لمظاهِرِ الطبيعة نفسِها . . إن الطبيعةَ تَزْخَرُ بالفُرُوق . هنا سَهْلٌ منبسِطٌ وادعٌ ، وهناكِ جَبَل شامِخٌ شاهق . هنا جدولٌ يجرى ماؤه فى سكونٍ وطُمأنينة ، وهناكِ بَحْرٌ ثائرُ الأمواجِ لايهدأُ له زئير ... أفرادُ الجنسِ البَشَرِىِّ يختلفُ بعضُهم عن بعضٍ فى الذَّكاءِ والنشاطِ والقوة ... إن منهم عباقرةً يتسامَوْنَ إلى مرتبةِ القدِّيسينَ والأنبياء فى حين نرى غيرَهم وقد خَتَمَ اللهُ على عقولِهم غباوةً وجهلاً فأضحَوْا يتدانَوْنَ من مرتبةِ الأنعامِ ... كيف أسمَحُ لنفسى أن أُساوِىَ بين هؤلاء وهؤلاء ؟ ... إنى أُنكرُ المساواةَ يامولاتى الإنكارَ كلَّه ، وخاصةً ما كان منها بين الجنسِ

اللطيفِ والجنسِ الخَشِنِ !

— ولكن لاتنسَ ياجنرالُ أن المساواةَ بين الجنسين قد أصبحتْ في العصرِ الحاضرِ ، كما علمتُ من رفقائنا الجُددِ في العالَمِ الآخرِ ، حقيقةً راهنةً . إن المرأةَ قد نالتْ حقَّها كاملاً من الرجلِ فلَمْ يَعُدْ بين الجنسيْنِ من فُروقٍ في الحقوقِ والالتزامات والمعاملاتِ .

— مهما قِيلَ يامولاتي فالمساواةُ اسْمِيَّة ... والفروقُ مازالتْ قائمةً ولن تُمْحَى أبدَ الدهرِ ...

— أتَزْعُمُ ياجنرالُ أن الرجلَ هو المسيطِرُ على المرأةِ مهما يكن من أمر ؟

— بل الأمرُ على خلافِ ذلكِ يامولاتي . إنّ المرأةَ هي المسيطرةُ على الرجلِ مهما يكن من شيء ... وإنه لن ينجوَ من سيطرتِها أبداً ... !

فأضاءتْ وجهَ « كليوبترةَ » ابتسامةٌ وضّاحة ، وقالت وهي ترسلُ ضحكةً خفيفة : ظريفٌ منكَ هذا القولُ !

— ثِقِي يامولاتي أنه لا مكانَ للمساواةِ في القلوبِ والغرائز . وقد فُطِرَ الرجلُ على عبادةِ المرأة ، فهل ثَمَّةَ مساواةٌ بين العابِدِ والمعبودِ ؟ !

ورفع طرفه إليها يجتَلِي محاسنَها ، فما إن لَمَحَتْهُ يحدّقُ فيها حتى أشاحتْ بوجهِها عنه ، فغضَّ من بصره . وبعد لحظةٍ تكلمتْ « كليوبترةُ » في صوتٍ هادئٍ خافتٍ قائلةً :

بالرغمِ من كلِّ ماتقولُه ياجنرالُ فالمساواةُ تحملُ معنىً سامياً نبيلاً ...

— إن العقلَ البشريَّ يامولاتي قد اخترعَ فيما اخترعَ هذه الألفاظَ البراقة : مساواة ، إخاء ، عدالة اجتماعية الخ ... وأضفى عليها تلكِ المعانيَ السامية النبيلة ليخدَعنا بلمعتِها ...

— أراكَ تنتقصُ من قيمةِ العقلِ ياجنرال !

— كلا يا مولاتى ليس لمخلوقٍ أن ينتقصَ من قيمةِ «العقل» ولكننى لا أحبُّ منه هذه العُنْجُهيَّةَ والتطاوُلَ وهذه الشهوةَ القاتلةَ في فَرْضِ سلطانِه على كلِّ شيء ... إنه ليقتحمُ على النفسِ البشريَّةِ حَرَمَها المقدَّسَ يريدُ أن يَنْفُذَ إلى قواها الخفيَّةِ من غرائزَ ونوازعَ ليحاولَ أن يَتَحكَّمَ فيها ويُسيِّرَها وَفْقَ مشيئَتِه .

— أَتُراهُ قد نجحَ فى إخضاعِ الغرائزِ لسلطانِه ؟

— إنه يحاولُ أن يوهِمَنا ذلك ويُقْنِعَنا بأن النفسَ البشرية إنما تعملُ تحتَ إمْرَتِه ...

— ألا تَرَى فى ذلك تَغَالِيًا ؟

— كلَّ التَّغَالِى ... أيستطيعُ العقلُ أن ينكرَ قوةَ الغرائز ؟... ثمَّةَ حربٌ طاحنةٌ تقومُ بينهما ، لا هوادةَ فيها ولا رحمةَ .

— ولمنْ ستكونُ الغلبةُ يا تُرَى ؟

— هذا أمرٌ عِلْمُهُ عند ربى !

— ولكن إذا انتصرتْ الغريزةُ يا جنرالُ ، أليس هذا معناه العودة إلى الهمجيَّةِ الحيوانيَّةِ ؟

— وإذا انتصرَ العقلُ يا مولاتى واستطاع أن يَفْرِضَ ديكتاتوريَّتَه القاسيةَ الجافَّة ، أليس هذا معناه شقاءُ المجتمعِ البشرىِّ إذ يتحولُ إلى آلةٍ يسيطرُ عليها مَزْهُوٌّ عاجز !

— ولكن العقل - كما يقولون - يَسْعَى لخيرِ المجتمع .

— إن هذا «العقلَ» الذى يبدو لنا قوةً أساسُها المنطقُ والاتّزانُ والرزانةُ يُخْفِى بين أعطافِه قصوراً وغروراً . وهو مُجِدٌّ دائبٌ فى سبيل الكشفِ عن أسرارِ الوجود . فإذا نال نَصْراً امتلأَ زَهْواً وَعُجْباً وسار يطلبُ نَصْراً آخرَ وهو يَدَّعِي أنه مَلَكَ ناصيةَ المعرفةِ وأنه لن يَمْضِيَ قليلُ وقتٍ حتى تَذِلَّ له عناصرُ

المادةِ فيستغلُها لخير الإنسان .

فقالت « كليوبترة » : ولكن لا تنسَ أنه يقعُ أحيانًا أن تمتدَّ يدُ الغريزةِ إلى ما أنتجهُ العقلُ فتستغِله استِغلالاً قد يكونُ سبباً في شقاءِ الإنسانية .

فقال « زينُ السيوف باشا » : يجبُ الحدُّ من سلطانِ العقلِ على كلِّ حال ، كما يجبُ أن نجعلَ من الغريزةِ قوةً مناهضةً . ليست الغريزةُ ياسيدتى - كما يتوهَّمُها البعضُ - شرًّا كلَّ الشرِّ . إن جوهرَها ينطوى على الخير ، ويهدِفُ إلى سعادةِ البشريَّةِ ، ويدفعُها دائمًا فى سبيلِ تطوُّرها وارتقائِها .

— العقلُ يعمَلُ من ناحيةٍ فى سبيل خيرِ الإنسانِ ، والغريزةُ تعملُ كذلك من ناحيةٍ أخرى فى هذا السبيل . ولكننا نرى أن كلاًّ منهما يعملُ على إضعاف الآخرِ والنَّيْلِ منه والتحكُّمِ فيه ... فما العملُ إذن ؟ ألا نستطيعُ أن نَعقِدَ بينهما صُلحًا ؟

— حبذا الصُّلحُ بينهما .

— صُلحٌ عادلٌ شريف .

— صلحٌ خالٍ من ذلكَ البَنْدِ العتيدِ : تسليم بلا قيدٍ ولا شَرط ...!

ورأيتُ « زين السيوف باشا » يضربُ جبهتَه بيدِه ويصيحُ : ألا يمكننا أن نُحيلَ هذا الصلحَ إلى عقدِ زواجٍ بين الطرفَين : زواجٍ بين العقل والغريزة ؟

— إنهما كالذكر والأُنثى لا يصلُحُ أحدُهما بدونِ الآخر .

— بل إن أحدَهما مكمِّلٌ للآخرِ ...

ثم ابتسمتْ « كليوبترة » وواصلتْ كلامَها : ولكنك ياجنرالُ نسيتَ أن الزواجَ ليس صُلحًا خالصًا .. وقد يؤدِّى إلى انفِصامٍ إذا احتدَمتِ المناقشةُ واندلعَ لهيبُ المنافسة .

فتضاحك « زين السيوف باشا » يقولُ : بربِّكِ ياسيدتى فليكنْ الزواجُ هذه

المرةَ وحدَها صُلحاً كلُّه ... وليكنِ الطلاقُ مُحرَّماً بالثلاثِ ... !

وهنا قَدِمَ شُرْطيٌّ يعلِنُ حضورَ الغريبِ الذى أخبَرَنا به مأمورُ الصَّحْراء الشرقيةِ ، فأذِنَتِ الملكةُ بلقائه على الفَوْر . وما عتَمْنَا أن رأينا شَخْصاً حاسِرَ الرأسِ بوجهٍ مستطيلٍ عليه طابَعُ النُّبْل ، وعينين تلتمعان بوَميضٍ هادئ . دَخَلَ يَدْلِفُ بقامَتِه المبسوطةِ فى خُطاً متَّزنَة ، وهو يرنُو إلى الملكةِ فى ابتسام ويعبَثُ بملحَفهِ الرُّومَانِيّ الأبيضِ ، فما إن وقعَ بصرُ « كليوبترة » عليه حتى صاحت :

أنطونيو ...

فتقدم منها والابتسامةُ لم تبرحْ مُحَيَّاه ... وقالت الملكة :

ماذا ؟ ... أأنت هنا ؟ ... أجِئْتَ تلاحِقُنى ؟

فقال وفى صوته ضَراعَةٌ محبَّبَة : جئتُ لأكونَ منكِ على مَقْرُبَة !

— إنكَ حقًّا تضايقُنى .

— لن تَشْعُرِى بوُجُودِى .

— طالما سَمِعتُ منكَ هذا القولَ ، ولكنك كنتَ تُضجِرُنى دائماً بنظراتِكَ المُلِحَّة . كنتُ أطلبُ منكَ دائماً في العالَمِ الثانى أن تلتزمَ جانبَ العقلِ وتسلُكَ سبيلَ الحكمةِ ، ولكنكَ كنتَ ...

— كنتُ طَوْعَ أمرِكِ دائماً ...

— كلا ... لن تعاوِدَ أمامى هنا ما كنتَ تفعلُه هنالِكَ ...

— وما الذى تأخُذِينَه عليَّ فى حياتِنا في العالَمِ الآخرِ ؟ أتأخُذين عليَّ صداقتى الصافيةَ الرُّوحَانيةَّ لكِ ؟ أتأخذين عليَّ ذلك الطُّهْرَ الذى يَفِيضُ به رُوحى نحوَكِ ...؟ سأكونُ فى الأرضِ معك كما كنتُ هنالِكِ !

— يجبُ أن تعودَ !

— أتخشَيْنَ من شَبَحِ أنطونيو القديمِ ، أنطونيو الأرْضِيّ ؟ لقد غدَوْنا رُوحَين

يا كليوبترة ، رُوحين لايربطهما إلا رباطُ الصداقةِ العميقةِ النُّورانيَّةِ ..

— ولكننى في شُغلٍ عنك بربِّكَ قلْ لِي لماذا جئتَ ؟ أدعاكَ أحدٌ ؟

— دعاني واجِبي أن أكونَ من حُرَّاسِكِ وِضمنَ حاشِيَتِكِ ...

— أيُّ فضولٍ هذا ؟ !

— ألم أكنْ إلى جانِبِك في حُكمِ هذا الوادى ؟ ...

وخطا « زين السيوف باشا » خطوةً نحو « أنطونيو » وحَنَى رأسه يُحَيِّيهِ ثم قال :

إذا لم يخطئْ ظنِّى فأنا أمامَ عاهلِ رومةَ الكبيرِ القيصرِ ماركَ أنطوانَ .

— لم يخطئْ ظنُّكَ ياسيدى ... !

— لى كبيرُ الشَّرَفِ أن أحظى بالتعرُّفِ إلى قائدٍ عظيمٍ من قوَّادِ العالَمِ القديم . ولكن أتسمحُ لى ياسيدى أن أقولَ إنه يبدُو لى أنكَ مُتْعَب ؟ .

— كلا ... كانت رِحْلَتى من العالَمِ البعيدِ طيِّبَةً ...

وقالت « كليوبترة » تخاطبُه وهى تُزيغُ بصرَها :

أكنتَ معنا في الطائرة دون أن نراكَ ؟!

— كنتُ متعلقًا بذَيْلِها ... !

— ونزْعُمُ أن رحلتَكَ كانت طيبةً ؟ !

— مادمتُ عن كَثَبٍ منكِ أُحِسُّ وجودَكِ معى فكلُّ شيءٍ طيِّب ...

فقالت « كليوبترة » وقد بدا على وجهِها الضِّيقُ :

ستقضى الليلةَ فى قصرِ الورد .. سيرافقُكَ الجنرالُ إلى مكانِكَ ، وغداً نقطعُ فى أمرِك برأى ...

ونظر « زين السيوف باشا » إلى « أنطونيو » وقال له : ثِقْ ياسيدى أن ليلةً هادئةً تقضيها في قصرِ الورد سيكونُ لها أحسنُ الأثر فى صحَّتِك ...

— أتحسَبُنى مريضاً ياجنرالُ ؟ !

— إنكَ شديدُ الشُّحوب ياسيدى ...

— هذا من فَرْطِ إقبالى على العبادةِ ..

— عبادة ... ؟ !

— نعم ياجنرال ... عبادة الجَمال ... إنى مشغوفٌ بالجمالِ ... الجمالِ في كلِّ مظاهره ، وعلى اختلاف ألوانه ومذاهِبه ...

— لك العُذْرُ في هذا ، لأن العالَمَ الآخَرَ يزخَرُ بمظاهِرِ ذلك الجمالِ ... أما هنا فلن تجِدَ شيئًا تعبُدُه ...

— اسمحْ لى بأن أقولَ لك ياسيدى إنك لستَ في قولِكَ على حقٍ . إن دنيا كم تزخَرُ أيضا بالفتنةِ والحسْنِ .

— إنى لأراها مَلأَى بالبشاعة والقُبْح . .

— خلفَ ماتسمِّيه بشاعةً تكمُنُ عناصرُ الجمال . . ولكن العبرةَ بالعين التى تنظُر وبالنفسِ التى تُلقِى بضوئها السِّحْريِّ على المَرْئِيَّاتِ فينفُذُ إلى مواطنِ الجمالِ الأصيلةِ ويكشفُ عنها ..

— امْنَحْنى فَدَيْتُكَ هذه النفسَ وتلكَ العينَ لِأُبْصِرَ الجمالَ كما تبصرُه كلُّ الأعينِ والنفوسِ . .

— إن الله لم يفرِّقْ بين عينٍ وعينٍ وبين نفسٍ ونفْس . كلُّها جوهر واحد . ولكنْ هناك عينٌ ناعسةٌ وأخرى يَقِظَة . وثَمَّةَ نفسٌ بليدة وأخرى نَشيطة . ولن تستيقظَ العينُ وتنشَطَ النفسُ إلا بالرياضة الصوفية الرائعة ..

وسمِعنا « كليوبترة » تقولُ فى شىءٍ من المَلَل :

متى تسمَحُ لضيْفِك ياجنرالُ أن يستريحَ ؟

— بأمرِ مولاتى أصطحبُه الساعةَ ...

— إذا راقكَ هذا ...

وتنحنح « زَيْنُ السيوف باشا » وهو يسوى طَرَفَ سُتْرَتِه ، ثم قال : لى مَطْلَبٌ يامولاتى ، أرجو أن ينالَ منكِ شرفَ القبول ...

— تكلَّمْ ياجنرالُ ...

— إنها لَجُرْأَةٌ حقًّا أن أسمحَ لنفسى بدعوةِ مولاتى إلى تناوُلِ الشاى ...

فصمتَتْ « كليوبترة » لُحَيْظَةً ثم عادتْ تقول : كنتُ أودُّ تلبية طلبكَ ... ولكنك تعلمُ أنى قَدِمْتُ هنا وقد تجردْتُ من مظاهِرِ الحياةِ الدُّنْيَوِيَة ... لقد سمعتُ الكثيرَ عن حفلاتِ الشاى فى عصرِكم هذا ...

— لن تكونَ حفلةً جامعة مما انتهى إليكِ خبرُ مثيلاتِها ... إنما أهدِفُ إلى أن أُقَدِّمَ إليك قدحاً من الشاى فى جَلسةٍ هادئة بعيدةٍ عن شراذِمِ المتطفِّلين ...

— إذن لنشرَبْ هذا القدحَ هنا في هذا المعبدِ فى الوقتِ الذى يَرُوقُكَ .

— ألا ترغَبُ مولاتى في التنزُّه قليلا ؟... نخرجُ مثلا إلى ضاحيةِ حُلْوانَ ... هناكِ قهوة الإسكندر الأكبر ، مشرفةً على النيـل في بقعةٍ كلُّها رَوعةٌ وسكينة ...

— قهوة الإسكندر ؟ !

— أجل يامولاتى ، لقد سُمِّيَت قهوةَ الإسكندرِ الأكبر تيمُّناً باسمِ ذلكِ الملكِ العظيم ... إذ أن أحدَ المُنَقِّبينَ عن الآثارِ يزعُمُ أنه عُثِرَ فى هـذه البُقْعةِ على قبرِ الإسكندر .

— وهل وَجدوا رُفاتَه ؟ !

— وجدوا رَميمَ عِظام ...

— وهل ثبت أن هذه عظامُ الإسكندر ؟ !

— إنهم مختلفون حتى اليوم في نوعِ هـذه العظام ... بعضهم يقولُ إنها عظامٌ آدميَّة ... وبعضٌ آخرُ يقولُ إنها عظامٌ مصنوعةٌ وردتْ إلى هذه الديارِ من أمريكا ...

فقالت « كليوبترة » : كيف ؟ أتُصْدِرُ إليكم أمريكا عظامَ الملوكِ الغابرين ؟ !

فقال « زَينُ السيوف باشا » : إن أمريكا بلادُ العجائب حقًّا . يقولون إنها تصنعُ العادِيَّاتِ والآثارَ على اختـــلافِ أنواعِها وترسِلُها إلى مِصر لتباعَ في أسواقِها للسائحين من الأمريكيين الذين يَقْدَمونَ هـذه الديارَ شَغَفًا بآثارها ... حتى المُومْياواتُ الملفَّفةُ في أكفانِها القديمةِ تلكِ التى نستطيعُ أن نَشَمَّ منها عِطْرَ الزمن السَّحيق ، هى من وارِدِ أمريكا ... إنى أخشَى أن أقولَ إن القبورَ المطمورةَ فى بطنِ الصحراء التى يكشِفُ عنها المنقِّبون من علماءِ الآثار قبورٌ من صنعِ أمريكا أيضًا !

فقال « أنطونيو » : إذن ليس كلُّ ماسمعْنا به مما تزدانُ به المتاحفُ من الآثارِ المصريةِ جديراً بأن نَعُدَّه أصيلا ... !

— بتُّ أشكُّ فى أصالةِ كلِّ شيء ، قديمًا كان أم حديثًا ... إنى لَأَشُكُّ حتى فى نفسى ...

— ماذا ... ؟ !

فتضاحك « زين السيوف باشا » مِلْءَ شِدْقَيهِ وقال :

أخشى أن أكونَ أنا أيضا من واردات أمريكا دون أن أشعُر !

وقالت « كليوبترة » بعد لحظةٍ : إذن لنا أن نرتابَ فى نسبةِ هذا القبر وما ضَمَّه من رُفَات الى الإسكندر ...

— إن اللهَ وحده هو الذى يعلمُ أقبرُ الإسكندرِ هذا أم قبرٌ مُزَيَّف ؟ !

ورأيتُ « كليوبترةَ » تقفُ لحظةً ساهمةً ، ثم قالت :

وقبرى ، هل عَثروا عليه ؟ وماذا وَجدوا فيه ؟ ...

فبدت الحيرةُ على « زين السيوف باشا » ، ولبث برهةً يفكّرُ ثم قال : يؤسِفنى أن أُعلنَ جهلى بهذا الموضوع ...

وتقدم « أنطونيو » يقولُ لـ « كليوبترةَ » : إنى لأذكرُ أننا دُفِنّا معاً .

فقالت « كليوبترة » : إنى أسألُ هل عَثروا على رُفَاتى ؟

فأجاب « أنطونيو » : وماذا يَهمُّكِ من أمرِ الرُّفَاتِ البالى مادامتِ الروحُ قد خلَدَتْ محتفظةً بكلِّ عناصرِها على مرِّ العصور ؟ ..

— يَهُمُّنى ألّا أُعرَضَ فى المُتْحفاتِ كالسِّلْعةِ المُزجاة الفاسدةِ ... إنه امتهانٌ لقُدْسِيَّةِ الموت ...

فقال « زين السيوف باشا » : كونِى على ثقةٍ يامولاتى أن أحداً لم يَخطِرْ بباله أن يتهجّمَ على قُدْسِيَّةِ شخصِك الجليل ... لم أسمعْ قطُّ عن قبرِكِ ولا عما حواهُ شيئاً ... والآن هل قبِلْتِ دعوتى الى قهوة الإسكندر ... ؟

— أخشى أن يكونَ المكانُ حافلا بالرُّوَّاد ..

— إنه على عكس ماتظُنِّينَ ... قليلٌ من الناسِ من يفكّرُ الآنَ فى زيارةِ هذا المكان ... إنه ليس فى حُلوانَ المدينةِ ، بل فى ضواحيها العازِبة ... ثِقى أنكِ ستقضِينَ فيه وقتاً هادئاً لطيفا ...

— أشكرُ لك ياجنرالُ ... إنى أقبلُ دعوتك ...

— متى تأمُرُ مولاتى ؟

— غدا أستريحُ فلا أغادرُ حُجرتى ... نستطيعُ أن نذهبَ بعدَ غدٍ ...

— لقد أَنلْتِنى شرفًا به أَعْتَزُّ ...

وانحنى أمامَها انحناءةً عسكرية ، وزمَّ قدميه في فَرْقَعَةٍ ، ثم استدارَ وقال لـ « أنطونيو » : هيَّا ياسيدى القائد ...

وخرج يُقعقِعُ بسيفه ومعه « أنطونيو » يسيرُ فى تباطؤ ...

ونظرتْ إلىّ « كليوبترة » قائلة : مُرْهُم ألّا يُدْخِلوا علىّ أحداً ... سأخلدُ إلى الراحةِ فى حجرتى ... تستطيعُ أن تستريحَ أنتَ أيضا ياسيدى ...

— أمرُكِ مطاعٌ ياصاحبةَ الجلالة ...

وما كادت تخطو خُطوتين نحو حجرتها ، حتى التفتتْ إلىّ وقالت :

لتعلمْ ياحضرةَ السكرتير أنى لاأرغَبُ فى أن يخدُمَنى غيرُ النساء ... النساء فقط ... أما الحُرَّاسُ فلا رغبةَ لى فى إبقاءِ أحدٍ منهم حولَ المعبد .

— ولكن يامولاتى لابدَّ من الحرَّاسِ . وأولُ واجبٍ علينا هو المحافظةُ على النظامِ حولَ مسكنِ جلالتِكِ ...

فرفعتْ هامتَها وقالت فى جِدّ :

لارغبةَ لى فى الحُرَّاس ... أرجو أن تنفِذُوا رغائبى .

فانحنيتُ أمامَها طائعاً ... وما لبثتُ أن تقدَّمْتُ منها وقلتُ :

إن هيئةَ المؤتمرِ الموقَّرِ قد وضعتْ تحتَ تصرُّفِ جلالتِكِ وجلالةِ تيمورلنكَ مبلغاً من المالِ للنفقاتِ النَّثْرِيَّةِ الطارئة . والمؤتمرُ على استعدادٍ دائماً أن يستجيبَ لأيِّ مطلبٍ ترغبانِ فى تحقيقِه ...

فشكرَتْنى فى لهجةٍ رقيقةٍ وقالت لى : ليس بى حاجةٌ إلى المال ...

فانحنيتُ أمامَها ثانيا . وما إن رأيتُها تتوارَى فى خِدْرِها حتى أنفذتُ أمْرَها الخاصَّ بالخدمِ ، فأبعدتُ منهم عُنصُرَ الرجال وجمعتُ الوصيفاتِ وأوصيتُهنَّ بالسَّهرِ على راحةِ الملكة ، ثم خرجتُ إلى الحُرَّاسِ فأمرتُهم أن يتنحَّوْا عن المعبَدِ ويتَّخِذوا أماكنَ حراستِهم بعيداً عن عينِ « كليوبترةَ » حتى لاتشعُرَ بوجودِهم . وقد استطعتُ أن أُوفِّقَ فى ذلك بين رغبةِ « كليوبترةَ » وبين الواجبِ الملقَى علىَّ .

ولما استوثقت من أني لم أفرّط في أمر، ركبت السيارة ومعي «عبدُ العال» الحاجب إلى منزلي ...

وعلى الرغم مما نالني من إرهاقٍ وكدٍّ كانت أعصابي في حالة من التيقُّظ والهياج ... وحانت مني لفتةٌ إلى «عبد العال» فوجدته مُسْبَلَ الأجفانِ يَغُطُّ غطيطاً خفيفاً فهززته وأنا أصيح: ألا يحلو لك النومُ إلا في هذا الوقتِ؟

فغمغمَ وهو يجاهد النُّعاسَ: ومتى تريدني أن أنامَ؟ ألم ينتهِ عملُنا؟

— أمامنا أعمالٌ أخرى ... إعداد بَرنامجِ غدٍ ...

فقال مهمهماً وهو يَفرُكُ عينيه: وأين نحن من غدٍ؟

— لم أجد في حياتي أكسلَ منكَ ... قل لي ماراأيكَ فيما مرَّ بنا من حوادث عجيبة؟ ...

— أمن أجلِ هذا أيقظتني؟!

— إني أسائلُك ... ماراأيكَ في كليوبترة؟

— امرأةٌ كسائر الناس ...

— ياللوقاحة ... ماذا تقول؟

— إنها ليستْ من الحُسْنِ بحيث تقعُ من أجلِها كلُّ هذه الكوارثِ التي تتناقلُها الأَلْسن ...

— لاريبَ أنك مخبول ...

— أُقسمُ بالله إني لأفضّلُ عليها زوجتي أمَّ السَّعد ... دعْني أَنْعم بشيء من الراحة . .

وانثني يعتمدُ برأسه على ساعِدِه، فهززته ثانياً، وقلت: وتيمورلنك؟

فغمغمَ: إنه شديد الشَّبَهِ بممثلي «الموالِدِ»!

فوكزْتُه في جنبِه وأنا أردِّدُ: لن أواصلَ الحديث مع جاهلٍ غبيّ مثلِك . .

وألقيتُ برأسى على ظهرِ السيارة ، أنشُدُ بعضَ الراحة ... وسرعانَ ماوجدتُنى أقولُ لـ « عبدِ العال » : لقد دعاها زين السيوف باشا لشُربِ الشاى فى حُلوان ...

— نِعْمَ ما صنَع ...

— لقد لبَّت دعوتَه على كُره منها ... لولا ماأثاره فيها من فُضول بشأن قبر الإسكندر لما استجابت ...

— وأنطونيو ... مارأيُها فيه الآنَ ؟

— يلوحُ لى أنه أضحَى بضاعةً مهملة ...

— هل يقيمُ بيننا طويلا ؟

— أحسَبُ أنه سيعودُ قريباً إلى عالَمِه البعيدِ ...

— يُحْسِنُ صُنعا ... أليس هذا أجدَى عليه من أعمالِ المؤتمر ؟ ...

... وبلغتْ بنا السيارة الدارَ فنزلنا ، وسرعانَ مارأيتُ « عبدَ العال » قد اختارَ مكاناً في البهوِ تكوَّرَ فيه وتهيَّأ للرُّقادِ ، فتركتُه حيث هو ، وقصدتُ إلى حجرتى ، أطلبُ الراحةَ والنومَ . ولكنْ تنافرَ جَفنايَ واستعصَى علىَّ أن أنام . فأخذتُ أدوِّنُ مذكّراتى ، وطالت جَلستى أمامَ المكتبِ أحبِّرُ الصفحةَ تِلوَ الصفحة غيرَ شاعرٍ بمرورِ الزمن ، وفيما أنا منهمكٌ أكتُبُ إذ طَرَقَ سمعى صوتُ الشاويشِ « سيد متولى » فألقيتُ بالقلمِ جانباً وقصدتُ إلى البهوِ ، فألفيتُ الشاويشَ يعالِجُ إيقاظَ « عبدِ العال » ، فما إن رآنى حتى أقبلَ علىَّ يقول :

لقد وَكلْتَ إلىَّ شأنَ هذا الأمير ... وليتَكَ مافعلتَ ... !

— لِمَ ... ؟ !

— لم أستطعْ منه خَلاصاً إلا الساعةَ ...

— ماذا كنتَ تفعلُ ... ؟

— لقد أمرنى أن أجمعَ له ماأستطيعُ من الشحَّاذينَ ، فتسرَّبْتُ فى الأزِقَّةِ والحارات ، ومررتُ بأبوابِ المساجدِ وأضرحة الأولياءِ باحثاً منقِّباً ومن الغريبِ

أن هذه الطائفةَ التى لايخلو منها سبيلٌ أثناءَ النهارِ والتى تطالعُكَ فى غُدُوِّكَ ورواحِكَ قد عَزَّ وجودُها حين طلبْتُها ، على أننى استطعتُ بعد لَأْيٍ أن أجمعَ له منهم نفراً ، فما إن وقع بصرُه عليهم حتى أمر أن يُعَدَّ لهم على التَّوِّ شهىُّ المأكلِ والمَشْرَبِ ... تصوَّرْ ياسيدى مبلغَ دهشتى وحَيْرَتى أمامَ هذا المَطْلَبِ العَسير ... ولكننى لم أجدْ مَفَرًّا ، فهُرِعْتُ لِاستدعاءِ الطاهى وجلبِ اللحم والخبز ... وأنشأنا الأفرانَ فى الساحة الخارجيةِ للمسجد ولم نلبثْ أن أوقدنا النارَ وصنعنا الثَّريدَ ومَدَدنا الموائدَ ...

— وبعدُ ...

— وبعدُ ... لم يهدأْ لصاحبِك بالٌ حتى أعَدَّ لضيوفِه مضاجِعَ فى صحنِ المسجد ، ووسَّدَهم الفراشَ وهو يَدُسُّ فى يدِ كلٍّ واحدٍ منهم حَفنةً من النقود ...

— وبعدُ ...

— وماذا تريدُ بعدَ ذلك ... ؟ !

— كيف تخلَّصْتَ منه وحضرتَ هنا ؟ !

— طلبَ منى الأميرُ أخيراً أن أجهِّزَ له المِيضأةَ والمَغطِسَ فأعددتُهما له ، وما إن رأيتُه يدخُلُهما ، ويردُّ البابَ خلفَه حتى تسللتُ هاربا .

وسمعنا « عبدَالعال » يقولُ فى صوتٍ يختلِطُ فيه التثاؤبُ بالكلام : والكلابُ ؟ !

— لقد أعددنا له ظُلَّةً نظيفة ، وقدَّمْنا له صِحافاً مَلأَى بشَهِىِّ الأطعمة ، وقد تركتُه ينعَمُ بنومٍ هَنِيءٍ بعد أن وَكَلْتُ به أحدَ الخدم ...

فقلتُ له : وهل رتبتَ مايلزَمُ من الحرَّاسِ والحاشية ... ؟

— إن تيمورلنكَ بعد أن عَرَضَهم فى ساحةِ المسجد قبل اعتكافِه طلبَ إلىَّ ألا أُبْقِيَ منهم إلا خفيرَيْن للحراسة ، وشيخاً متقدِّماً فى السنِّ يخدُمُه ... لقد كان بهم رفيقاً لَيِّنَ المعاملة ... ولطالما كرَّر على مَسْمَعِ الحُرَّاس أنه يرجو أن يراهم وقد نَزَعُوا أسلحتَهم لا يعودُون لشىءٍ منها أبداً ! ...

٢١ يناير

إنه ليومٌ هادئٌ إذا قِيسَ به أمسِ ... لم يقعْ فيه شيءٌ غيرُ مألوف إلا ما كان من الدهشةِ التى أثارتْها عودةُ «أنطونيو» إلى الأرضِ بهذا الأسلوبِ الخفيِّ ... وكان العالِمُ الرُّوحانىُّ بطبيعةِ الحال أكثرَ الأعضاءِ اهتماماً بالأمر، فقصدَ إلى «أنطونيو» فى حجرتِه وقد نَمَّ احتقانُ وجهِه واختلاجُ قَسماتِه عما كان يَشيعُ فى نفسِه من هَمٍّ وضِيق، فقد عَدَّ هذا الحادثَ افتئاتاً على سُلطَتِه، وامتهاناً لنفوذِه وكرامَتِه، وإخلالا بما هو قائمٌ من عَلاقاتٍ منظَّمة بمراسِمَ ثابتةٍ بين سُكانِ الأرضِ وسكان السماء ... وأيقنتُ أننا نواجهُ أزمةً عاصفة، وأن الطائرة الورديَّةَ الشفَّافة على وشْكِ الظهور ثانياً فى سمائنا لتعودَ بالضيف المتطفِّلِ إلى مَقَرِّه السَّرْمَدِيِّ ... ولكن ما كان أطيبَها من مفاجأةٍ إذ رأيتُ العالِمَ الرُّوحانىَّ يزايلُ حجرةَ «أنطونيو» وقد عاد إليه صفاءُ نفسِه وبشاشةُ مُحيَّاه ... وعلمتُ أن ذلك العالِمَ الكبيرَ القلب قد صَفَحَ عن «أنطونيو» وأجاز له الإقامةَ فى العالَمِ الدُّنيَوِيِّ بعضَ الوقتِ يقضيه كأحدِ السُّيَّاح.

وقد لَزِمَ أعضاءُ المؤتمرِ حُجراتِهم الخاصةَ فى «قصرِ الوردِ» واعتكف كلٌّ من «تيمورلنكَ» و«كليوبترة» فى مَخدَعَيْهما ... أما «أنطونيو» فظلَّ طَوالَ اليومِ فى شرفةِ حجرتِه لا يَريمُ ... وقد زاره «زين السيوف باشا» وقضى معه حيناً ... ولاحظتُ أن غلامَ الفُنْدُقِ صَعِدَ إليهما حاملا عِينيَّةً عليها بعضُ قَنانِىَّ من جيِّدِ الخمر، وصِحافٌ تزدحمُ عليها المُشَهِّياتُ ...

٢٢ يناير

افتتح المؤتمرُ اليومَ أُولى جلساتِه في الساعةِ الحاديةَ عشْرةَ قبلَ الظهر ... وانتظمَ الأعضاءُ حول المِنضدةِ المستديرة ، وبينهم « كليوبترة » فى غِلالَتِها الورديةِ الساذَجة ، و « تيمورلنكُ » بُطرطورِه الأبيضِ الطويلِ ... والعالِمُ الرُّوحانيُّ فى جِلْبابِه الناصعِ الفضفاض مشرقَ الوجهِ طَلْقَ الأسارير ، ولم يُسْمَحْ لـ « أنطونيو » بالاشتراكِ فى المؤتمرِ ، فتُرك فى الرَّدْهةِ الكبرى مع الحاجبِ « عبدِ العال » والشاويشِ « سيد متولى » ... وكنتُ أثناءَ الاجتماع أسمعُ وَقْعَ خُطاهُ في جَيئةٍ ورَواح .

وكانت الجلسةُ بالغةَ الهدوءِ ، فقد طلبتْ « كليوبترة » من « زين السيوف باشا » أن يتحدثَ إلى هيئةِ المؤتمر عن الحملةِ التى شَنَّها على الملاريا والسدودِ فى مناطق النيل العليا ، فراح يلقى بيانَه فى لهجةٍ حاسمةٍ تصحبُها إشاراتٌ رائعةٌ فى جِدٍّ ورصانةٍ وصلابة . فشرحَ أولا كيف قَسَمَ جيشَه وَحدات مختلفة : فهذه وَحدةُ الدبابات ، وتلك وَحدة الطائرات ، والثالثة وَحدة المُشاة تحمل الفُئوسَ والمعاولَ ، وتخفى وجهَها تحت أقنعة المَطّاط ، والرابعة وَحدة الطائرات مجهزةً بأحدثِ المخترعات العلمية ، ومحملةً بالقنابل الساحقة لِبَيْضِ البعوض ... هذا فضلا عن أسطول القوارب العجيب ، وهو المسمَّى بأسطول الجيب الذى ينطلق فى الماءِ كما تنطلق قنابل الطوربيد تأتى بالعَجب العُجاب . واختتم خطبتَه بالإشادة بنجاحِ الحملة ، وكيف أنها طَهَّرت المناطقَ الموبوءة ، وهدَّمت قِلاعَ السدود ، وأقامت على أنقاضِها الوَحدات الصحية ، تصلُ بينها الطرقُ المُعَبَّدة ...

وما إن انتهى من خطبته البليغة حتى دوّت القاعة بالتصفيق المتواصل ...

وكان وزيرُ المناطقِ الجنوبية السَّبْعِ قد غفا غفوةً طويلة ، فراعَتْه تلك الضجةُ ، فانتبهَ مذعوراً يتساءلُ ، فلما أخبرتُه بالأمرِ أشرقَتْ على وجهِه المقبَّبِ ابتسامةٌ رحيبةٌ ، وانطلق يصفِّقُ فى حَمِيَّةٍ وحماس .

وتكلم الرئيسُ فقال : إن حديثَ الزميلِ الكريمِ قد أثبتَ لكم أيها السادة أن الجيوشَ ومُعِدَّاتِ القتالِ إذا حَسُنَ استخدامُها وتوجيهُها كان فضلُها على الإنسانية لا يُنْكَر ... وعلينا أن نَدْعَمَ هذه الفكرةَ ونعمِّمَ نشرَها ، فهى ضِمْنَ برنامجِ السلامِ الدائمِ الذى نعمَلُ على تحقيقِه .

وانتهت الجلسة ، وفُتِحت الأبواب ، فترك الأعضاءُ مجالسَهم وانتثروا فى الرَّدْهةِ الكبرى فُرادَى وزَرافاتٍ ، وكان قد اجتمع فيها فَوْجٌ من الصحفيين ومن يهمُّهم أمرُ المؤتمر من السَّراةِ وكبارِ الموظَّفين ... وأخذ الغِلمانُ يدورون عليهم بأقداحِ القهوة وعُلَبِ اللفائفِ . وكانت « كليوبترة » تتوسَّطُ حَلْقةً تضمُّ الرئيسَ و « زين السيوف باشا » و « تيمورلنك » وبعضَ الوجهاءِ والصحفيين . على حينِ ظلَّ « أنطونيو » واقفاً عن كَثَبٍ منهم يَرْنو إلى « كليوبترة » بين حينٍ وحين ... أما العالِمُ الرُّوحانى فقد انتبذ مكاناً قَصِيّاً ، يَهِيمُ فى أحلامِه ، ثم اختفَى من القاعةِ لا ندرى كيف زايَلها ، ومتى فارقَها ؟ ...

ومال « زين السيوف باشا » على « تيمورلنك » قائلا :

ما رأيُكَ فى هذه الحملةِ ؟

— حملةٌ موفَّقة أصبتَ فيها نجاحاً ملحوظا ...

— أرغبُ فى أن أعلمَ رأيَك الشخصىَّ فى التقسيمِ الحربىِّ للحملة والخُطط الاستراتيجية والتكتيكية التى اتخذتُها فى الهجوم على مناطِق العدوِّ ومحاصرتِه طلباً للتغلب عليه ...

فجعل « تيمورلنكُ » يعبثُ بشاربه المتهدّل على جانبيْ فمه هُنيهة ثم قال :

أنت تعلمُ ياجنرالُ أن ليس لى رأيٌ في الحربِ الآن . إنى أمقتُها وأمقت أساليبَها .

— ولكنها لم تكن حملة حربيةً بالمعنى الصحيح للحربِ ... إنها حملة على الأوبئةِ والسدود ... إذا رَغِبْتَ في أن أُعيرَكَ هذه المستنداتِ لتدرُسَها على مَهَلٍ فعلْتُ ...

— فلنتركْها لفرصةٍ أخرى ...

— كما تشاء ...

وتقدمَ « أنطونيو » من « كليوبترة » فقال :

ماأطيبَ جوَّ اليوم ...

فقالت دون أن تلتفتَ إليه :

أليس لديكَ يا أنطونيو غير هذا تتحدَّث به إلىَّ ... ؟ !

— أقصِدُ أن الجوَّ صالحٌ للنزهةِ ، ولا سيما بعد هذه الجلسةِ المرهقةِ .

— لم تكن بالجلسةِ المرهقة ، ولكننى سأقصِدُ على أيَّةِ حالٍ إلى حلوانَ مع زين السيوف باشا برًّا بوعدى إياه .

— إذن أستطيع أن أطلبَ من كاتمِ السرِّ أن يجهِّزَ لنا السيارة ...

— ومالكَ ولهذه النزهةِ ياأنطونيو ؟

وتدانى الصحفيون منها ، وبدءوا فَيْضَ أسئلتِهم ، واتسعت الحلْقة ، فاجتذبَتْ رُوَّاداً جُدداً واستفاض النِّقاش وتشابكَ ، واختلطت الأصوات فى شِبه هَرْجٍ وصَخَب . ولكنَّ ضَحِكات « كليوبترة » الرقيقةَ كانت تتسللُ وَسْط تلكَ الزحمةِ المضطربةِ كالنغمةِ الصافية المنسجمة فتعيدُ الهدوءَ إلى نِصابه .

أما « تيمورلنكُ » فكان يتهادى بين الصفوفِ فيحييه الناسُ فى خشوع ، و يُوسِعون له

الطريقَ فى إكبار ... وبينما كنا على هذه الحال إذْ تعالى الهتافُ فى الخارج ، فهرولتُ إلى الشرفةِ ، فألفيتُ جُموعاً متدفِّقةً زَحَفَت على الفُندُق ترغَبُ فى تحيةِ الضيوف . فحدثتُ الرئيسَ فى ذلك . فعرَضَ على الملكةِ أن تخرجَ لتُطِلَّ على تلك الجموعِ ، فتمنَّعَتْ معتذِرة ، ولكنه استطاع أن يَثنىَ من عَزمها ، وانتقلتْ هيئة المؤتمرِ إلى الشرفة حيث قابلها الجمعُ بالهُتاف والتصفيق ، صائحين مردِّدين :

فليحىَ حماةُ الإنسانية ، فليحىَ بناةُ المستقبل ، فليحىَ مؤتمرُ المدينة الفاضلة ...!

وما عَتَّمْنا أن سمعنا صوتاً يقولُ :

وليحىَ ضيفانا العظيمان : الملكةُ كليوبترة ، والأميرُ تيمورلنكُ ...

فردد الجمعُ نداءه فى جاجلة مُدَوِّية ... وصاح صائح :

فلتحىَ كليوبترة الملكة الفاتنةُ العظيمة ، وليحى تيمورلنك القائدُ العظيم ...

فانطلق الجمعُ يردِّد النداءَ في نَشوةٍ واندفاع ، وعاد الأعضاء إلى البهوِ وآلاتُ التصوير تحاصِرُهم وأضواؤها الخاطفة تلمَعُ كالبروقِ فى اليومِ الغائم ... وتدفَّقَ الناسُ على القاعة ، واشتد الزِّحامُ حول « كليوبترة » و « تيمورلنك » وكانت الجموعُ تلاحِقُهما بنظراتِ الشَّغَفِ والإعجاب ... وتعالى اللَّغَطُ فكنا نسمعُ بين لحظة وأخرى هَمْسَ قائلٍ يقول : « يالها من ملِكةٍ ساحرة ... إنها تبعثُ الفتنة والجلالَ حولَها أينما خَطَت ! » وآخَرَ يردِّدُ : « انظر إليه ... ياله من قائدٍ عظيم ... إن المهابةَ والعظمة تتجلَّيان فى كل حركة من حركاتِه ... ! » ولم نَلبَثْ أن سمعنا ضجة جديدة ، واقتحمَت القاعةَ كشّافةُ الهلالِ الأبيض بموسيقاها ، وارتفع « نشيد الحريةِ والسلام » يُنشِدُه فى حماسٍ وإقبالٍ أعضاءُ الكشافةِ على نغماتِ الموسيقى ... وكان النشيد قوياً يهزُّ المشاعرَ بحماستِه الحربية على الرَّغمِ مما يتضمَّنُه من معانى الأُلفةِ والسلام . واشترك الجمعُ

مع أعضاءِ الكشافةِ يُنْشدون ، فأصبحت القاعة تتجاوَب بالأصواتِ كأنها هَزيمُ الرُّعود ... ولمحتُ « تيمورلنكَ » وقد وقف وِقفةً صُلبةً والتمعت عيناه وهو يُصغِى إلى النشيد ويسايرُ بعضَ النغمات بيده ...

وانتهى النشيدُ ، فانطلقَتِ الأكُفُّ تصفِّقُ بشدّة ، ثم خَفَتَتِ الأصوات ، ولكن الناسَ اشتدّ إقبالُهم على القاعة فى هرْج ومرْج ، ورأيت « زين السيوف باشا » يأخذُ بيد « كليوبترة » ويُنحّيها جانباً فيتبعُها « تيمورلنك » ... وانطلقوا يتسارُّون ... ثم أقبل علىَّ « زين السيوف باشا » وألقَى إلىَّ بهذه الكلمات :

مُرْهم أن يأتوا بالسيارةِ الى الباب الخلفىِّ ، لا تُعْلِمْ أحداً برغبتِنا فى الخروج ...

فمضيتُ أُنفِذُ مشيئتَه وعدتُ عَجِلا ، فرأيت « زين السيوف باشا » يصطحبُ « كليوبترة » ، ويتسلَّلان إلى الممرِّ الصغير ، هما و « تيمورلنك » ، وما إن لمحهما « أنطونيو » حتى هُرِعَ إليهم ... وفيما كنا نمرُّ أمام إحـــدى المَرايا الكبيرة ألفيتُ « كليوبترة » تترفَّقُ فى سيرِها متمهلةً وتلقِى ببصرها على المِرآةِ هنيهة ... ثم مالبثتْ أن حثَّتْ خطاها مستندة الى ذراعِ « زين السيوف باشا » وخلْفَها « تيمورلنك » و « أنطونيو » ... وصعِدوا فى السيارة متعجِّلين وأنا معهم ... فانطلقتْ بنا الى معبدِ أبى الهول متخِذَة دروباً غيرَ مألوفة ، وشَمِلَنا الصمتُ وقتاً ، وكان « تيمورلنكُ » مستغرقاً فى وجوم عجيب ، أما « كليوبترة » فكان وجهُها متوهِّجاً ووجنتاها متقِدتين ...

وسمعتُ « زين السيوف باشا » يهمهم : إنه ليومٌ حافل ... !

فأجابته « كليوبترة » وهى تمسح وجهَها بمنديلها الحريريِّ فى حركة يسودها بعضُ الاضطراب :

أخشى ألَّا أستطيعَ السكوتَ طويلاً بينكم إذا استمرتْ على ذلك الحالُ ...

— لن يتكررَ ماحدث ... سنتخِذُ إجراءاتٍ صارمة تضمَنُ لكِ الراحة

والهدوءَ ... كُونى على ثقةٍ من ذلكِ ...

وتكلم « أنطونيو » يقول :

إن الجمهورَ لم ينسَ أن يهتِفَ للجمالِ حين هَتف للسلام والوئام !

فأجابته « كليوبترة » :

إن الجمهورَ يَهرِفُ بما لا يعرِف ... !

وقال « زين السيوف باشا » : الجمهور عُذْرُه إذ هتف للفتنةِ والحسن ، فالجمالُ يَهزُّ مشاعرَنا على الرغمِ منا فيدفَعُنا إلى تمجيدِه والتسبيحِ باسمِه ... !

وقال « تيمورلنك » مغمغما :

ما الجمالُ إلا مظهرٌ من مظاهرِ السلامِ وداعيةٌ من دواعى المحبَّةِ والوئام ...

فغمغم « أنطونيو » وهو فى نَشوة صوفيَّة : لا يستطيعُ العالَمُ أن يصلَ إلى السلامِ إلا إذا عرَف الجمالَ فى معناه الأسمَى ومظهرِه الأعلى ...

ومال « زينُ السيوف باشا » على « تيمورلنكَ » يقول :

لم ينسَ الناسُ تيمورلنك الفاتحَ العظيم والقائدَ المِغوارَ ...

فقال له وهو يحدِّقُ فى الفضاء : لقد خلعتُ هذا الثوبَ البالِيَ منذُ أحقابٍ طِوال . سأجعلُ الناس تذكُرُنى فاتحاً لعهدِ السلام ، وقائداً لجيوشِ الخلاص التى تعمَلُ فى سبيلِ انتشالِ الإنسانية من وَهْدَةِ العذاب .

وخيَّم علينا الصمتُ مرةً أخرى .

ووقفَت السيارة أمامَ معبـــد أبى الهول ، فنزلنا منها ...

وأقبل « زين السيوف باشا » يقول للملكةِ :

أكبرُ ظنى أنكِ لم تنسَىْ موعِدَ اليوم يامولاتى ... قهوة الإسكندر فى حُلوان .

— تستطيعُ أن تحضُرَ إلىّ بعدَ الغَداء ياجنرال ... إنى فى انتظارك ...

فانحنَى على يدِها يُودِعُها قُبلةَ التحية والشكر ، ولاحظتُ أن القبلةَ قد

امتدَّ بها الوقت ، فسلَّتْ « كليوبترة » يدَها بلُطْفٍ من يدِ « زين السيوف باشا » وحيَّتْه بابتسامة رقيقة ، واتجهتْ صوبَ بابِ المعبد .

وفيما كان « زين السيوف باشا » خارجاً وفى يدِه المستنداتُ والمصوَّراتُ الخاصةُ بحملتِه على البعوض والسدود ، قال له « تيمورلنك » :

مازلتَ تحملُ هذه الأوراق ؟ أراك ستقتُلُها بحثاً واستيعابا ...

— لاحاجةَ لى بها الآن ... فإذا رأيتَ أن أُعيرَكَ إياها لتتسلَّى بقراءتِها ...

— إنها ليست للتسلية بل للفائدة ... لقد ضَمَّنْتها آراءً من خيرِ الآراءِ نفعاً للإنسانية ...

— أشكرُ لك لطفَك أيها الأمير ... أتأمرُ بأخذِها ؟ ...

— لاأرفضُ لكَ مطلَبا ... سأهتمُّ بقراءتِها ...

— وستُدْلى إلىَّ برأيِكَ فيها ...

— لن أتأخرَ مادمتَ على ذلك مصرًّا ...

— كلَّ الإصرار ... !

ودعا « تيمورلنكُ » بالشاويش « سيد متولى » وطلب منه أن يحتفظَ برزْمةِ المستندات ، ففعل .

وصعِد « زين السيوف باشا » فى سيَّارتِه .

وعاد « تيمورلنك » فصادف « أنطونيو » يُطوِّفُ حولَ المعبـــد ، فدنا منه وقال له : أتطولُ إقامتُك بيننا ياقيصر ؟ !

فنظر إليه « أنطونيو » نظرةً فاحصة وغمغم :

أيضايقُكَ وجودى أيها الأمير ؟

— كلا ، بل ثِقْ أنى أرحِّبُ بإقامتك ... أنتَ منا ، وقد تفيدُنا فى عملنا بما تُسْدِيه إلينا من آراء ... ولكن يبدو لى أن مُقامَنا فى هذه الدنيا عسيرٌ .

— ولِمَ ؟

— إنى لأشعرُ ببُعْدِ الشُّقَّةِ بيننا وبين أُناس هذا المجتمع ... !

— أَنسيتَ ياصديقى أن مهمتَكم التى جئتُم من أجلها هى أن تقرِّبوا هذه الشُّقَّة ، وأن ترسُموا لهؤلاء الآدميين الخُطَّةَ المُثْلَى لحياةٍ أعلَى وأمجد ...

فجعل « تيمورلنك » يصعِّدُ ببصره هنيهةً فى « أنطونيو » ثم همهم :

ثق بأننى سأحاول ذلك مااستطعتُ ... والله المستعانُ ...

ولم تحُلَّ الساعة الثالثة حتى وقفتْ أمام المعبدِ سيارةُ « زين السيوف باشا » فنزل منها ، فألفى « كليوبترةَ » فى انتظارِه فى الرَّدهةِ الكبرى ، يحيطُ بها « تيمورلنك » و « أنطونيو » ، وما إن وقع بصرُها عليه حتى بادرتْه بقولها :

يحسن بنا أن نخرجَ تَوًّا إلى النزهة ... علينا أن نزورَ قبرَ الإسكندر وأن نجولَ بعض الوقتِ فى حُلوانَ نتفرَّجُ .

وصعِدنا فى السيارة ، وركبَ « عبد العال » بجوارِ السائق ، وانطلقتْ بنا السيارةُ تعدو وقد اتخذتْ فى سيرِها أقربَ السُّبُلِ إلى حلوانَ مخترقةً الصحراءَ من الغرب إلى الشرق ، ووجهتُها النيل فى الطريق المُعبَّدِ الجديد الذى دعوْه « طريقَ المستقبل » . ولم يكن ثمةَ ما يَلْفِتُ النظر إلا كُثبانَ الرمل وبعضَ النخيل قائمًا فى شِبْهِ واحاتٍ صغيرة يُحيطُ بها بعضُ المنازلِ الريفيةِ الحديثةِ بطِلائها الناصع ... ولم تستغرِق السيارة فى طريقِها طويلًا من الوقت ، فلم يَدُر بيننا من الحديثِ إلا كلمات متقطعة . وكان الجوُّ صَحْواً ، والهواء طليقًا يعبَثُ بشعَرِ « كليوبترة » فيزيدُها فتنة وملاحة ، ولاحظتُ أن « زين السيوف باشا » يختلسُ النظرَ إليها بين وقتٍ ووقت ، وكانت هى تُحِسُّ نظراتِه ، ولكنها كانت تتغافل . أما « أنطونيو » فقد غَرِقَ فى شِبه أحلامٍ صوفية على حين كان « تيمورلنك » ينقِّلُ بصرَه فى الحاضرين . وأشرفتِ السيارةُ على النيل ،

واتجهت منه فجازت جِسْراً أَسْلَمَها إلى طريق حلوان ، فسِرْنا فيه وقتاً ، ثم تحولْنا عنه إلى شِعاب ضيِّقةٍ فى الصحراء ، متجافِينَ قليلا عن النيل ، حتى طالَعَنا فى نهايةِ الطريقِ مبنًى صغيرٌ على طرازٍ رومانيٍّ فما كاد يُبْصِرُه « زين السيوف باشا » حتى أشار إليه قائلا : لقد وصلْنا ...

ووقفت السيارةُ أمام المَبنَى ، وألفينا غلامَ القهوة بالباب ، فاستقبلَنا فى تَرْحاب ممزوج بشىء من الفضولِ لغرابةِ ما يَرى من الأزياء . وتركْنا السيارةَ بالباب ، وفيها « عبدُ العال » مع السائق ، ودخلنا نَدْلِفُ مخترقين الأعمدةَ الرُّومانية إلى الداخلِ ، والغلامُ معنا يُرشِدُنا . ووصلنا إلى بَهْوٍ صغير ذى شُرْفةٍ واسعة تُبْصِرُ النيلَ .

... وكان المبنَى ساذَجاً ، فى بقعةٍ تَنْأى عن العُمران ، ولم يكن فى المكانِ أحدٌ من الرُّوَّاد حينما دخلناه ، فاتخذنا مجلسَنا فى الشُّرفة ، وقال « زين السيوف باشا » لـ « كليوبترةَ » : ما رأْيُكِ فى المكان ؟ ... أليس وَفْقَ هواكِ ؟ ... هدوء شامل ... منظر رائع ... هواء طيِّب ...

فأجابتْه في سُهوم : حقًّا إنه جميل ... !

وطلب « زين السيوف باشا » الشايَ وبعضَ الكعك ، فما أسرعَ أن أَحْضَرَ الغلامُ ماطلب وبدأ « زين السيوف باشا » يصبُّ الشاى ، ويوزِّعُ الكعك . وما هى إلا هُنيهاتٌ حتى أقبل على المكان بعضُ الرُّوَّادِ الأجانب ، وكانوا فتاتَيْن فى صحبةِ شابّ ! ... وما كادوا يستقِرُّونَ في مجلسِهم حتى ألفيناهم يُكْثِرونَ من التطلُّع إلينا ويسألون غلامَ القهوة عنا ، وما لبثَ الشابُّ أن ترك مقعَدَه واتجه الى مائدتِنا ، تلوحُ البشاشةُ على مُحيَّاه ، وحَنَى رأسَه أمامَ « كليوبترة » وهو يقول :

لتغفرْ لى سيدتى هذه الجرأةَ إذْ تقدمتُ اليها دون دعوة أو استئذان . إنه ليُشرِّفُنى أن أكونَ فى حضرةِ الملكةِ العظيمةِ كليوبترةَ ... اسمحى لى أن

أقدِّمَ نفسى ... شارل مارتن ، من رجالِ الفنِّ الأمريكىّ ... هَبَطْتُ القاهرة بالطائرةِ صباحَ اليوم آتيًا من أمريكا فى مهمة فنية ...

ثم رأيناه قد التفتَ ينادى صاحبتيْه ... وهُرِعَت الفتاتان مقبلتيْن على الملكة تصافِحانها فى أدبٍ ولباقة على الطريقة الأمريكية الصريحة . وقدمهما « مارتن » بقوله :

الآنسة جانيت ، الآنسة فلورا ... من فنَّانات الزِّىّ ، قَدِمَتا معى للاشتراك فى مُهِمَّتى الفنية .

وسرعانَ ماوجدنا الثلاثةَ قد أخذوا مقاعدَهم معنا دون كُلْفة ، وبدا على « كليوبترةَ » بادئَ ذى بَدءٍ بعضُ الضّيق ، ولكنها حيَّتِ الضيوفَ بابتسامتِها العذبة . ولاحت على « زين السيوف باشا » مظاهرُ الحيرةِ والارتباك ، وجعل ينقِّلُ بصرَه هنيهةً بين الملكة والضيوفِ الأمريكيين ... ثم نهض مقطَّبَ الجبين وقد تطاوَلَ بقامتِه وانتفخ بصدرِه ، وقدَّمَ نفسَه ورفاقَه فى صوتٍ أجشَّ ، فما كاد يلفِظُ اسمَ « أنطونيو » حتى صاح الأمريكىُّ متهلِّلَ الوجهِ :

هالو مارك ... لَشَدَّ ما أنا سعيدٌ بلُقياكَ ... !

وشدَّ على يدِه بحماس ، وتابَعَ قولَه : إنى كثيرُ الإعجاب بك ...

والتفتَ إلى الملكة يقول : يسُرُّنى أن أُخبرَكِ ياسيدتى أننى استوعَبْتُ تاريخَ جلالتِك دراسةً وتحليلا ...

فقالت « كليوبترة » : وكيف كان حكمُكَ علىَّ ؟ !

— إنى ممن يقدِّسون الحبَّ ويُعجَبون بسِيَرِ أبطالِه ...

— أتعتقدُ أن كلَّ ماقرأتَه صحيح ؟ !

— لايَهُمُّنى أصحيحٌ هو أم غير صحيح ؟ ... ولكنى قرأتُه فى شَغَف ... ولِفَرْطِ إعجابى بشخصيتِكِ الرائعةِ قَدَّمْتُ منذُ عامٍ على المسرحِ عَرْضًا موسيقيًّا أظهرتُكِ فيه على صورةٍ مبتكرةٍ لم يَسبِقنى إلى إظهارِها أحد ... وقد نال هذا

العَرْضُ الجائزةَ الأولى من « معهدِ أَبُلُّو الدوليّ » .

فابتسمت الملكةُ قائلةً :

ما كان أشوَقَنى إلى رؤيةِ تفسى فى هذا العرض ... !

— إذا سمحتْ الملكةُ فإنى على استعدادٍ لتقديمِ هذا العرضِ هنا فى مصرَ ... !

— أشكرلكَ يامستر مارتن ، بيد أنه يلوحُ لى أن هذه الفكرةَ لامحلَّ لتنفيذِها الآنَ ...

وقال « زين السيوف باشا » : لقد تفضلت الملكةُ بالهبوطِ إلى دنيانا لتشتركَ فى مؤتمرِ المدينةِ الفاضلة لالتشغلَ نفسَها بالعروضِ المسرحيَّة ...

فقال « مارتن » : إنى أَعُدُّ الفكرةَ - على كلِّ حال - سابقةً لأوانها !

وألفيناه ينادى الغلامَ ، ثم التفتَ إلى « كليوبترة » وقال :

ألا تُسعِدُنى الملكة بأن أقدمَ لها كأساً من البراندى !

ولم ينتظر جوابَ « كليوبترة » بل أمرَ الغلامَ بإحضارِ الشراب .

وتكلمت الآنسة « جانيتُ » موجهةً الحديثَ إلى « أنطونيو » :

عذراً إذا قلتُ إنه لم يكن يَخْطُرُ ببالى أن أرى « أنطونيو » على هذه الصورةِ ...

فألقى عليها « أنطونيو » نظرةً حالمةً وقال :

كيف كنتِ تريدِيننى أن أكونَ ؟ !

— هذه النظراتُ الوديعة ، وهذه القَسِماتُ الهادئةُ لم تكن فيما أظنُّ من سِماتِ أنطونيو القديمِ !

فقالت « كليوبترة » : أَنسِيتِ ياآنسةُ أن ماترَيْنه الآن أمامَكِ شخصٌ من عالَمِ الأرواح لايَمُتُّ بصلةٍ إلى أنطونيو ابنِ عالَمِ الفَناء ؟ !

فقال « مارتن » : يسوءنى أن أعلَمَ ذلك ، فإن ماقرأتُه عن قيصر القديم مايزالُ يملأُ ذاكرتى بأخيلته العَذْبة ... !

وخرج « تيمورلنكُ » عن صمتِه الطويلِ بقولِه موجِّهاً حديثَه لـ « جانيت » :

وأىَّ الشخصين تفضِّلين ياآنســة ... أنطونيو الغارقَ فى صفحاتِ الماضى ، أم الماثلَ أمامَكِ الساعة ... ؟

فحدَّقَتْ « جانيت » فى « أنطونيو » وقتاً وهمَّتْ أن تتكلَّمَ فسبقتْها رفيقتُها « فلورا » تقول : أما أنا فأفضِّلُ أنطونيو هذا ...

فلاحت على وجهه ابتسامةٌ سانحة وهمهم : أشكرُ لكِ ... !

وقال « تيمورلنك » :

ولكن ألا تبْسُطى لنا ياآنسة فلورا وِجْهةَ نظرِكِ فى هذا التفضيل ؟ !

فأسرعتْ « جانيت » تقول وهى تُزْجى ضِحْـكةً ليِّنة :

إن فلورا شاعرةٌ يروقُها فى الرجلِ الخيالُ والأحلام ...

فقالت « كليوبترة » : وأنتِ ؟

— ليست لى شاعريَّتُها المتدفِّقة . بيد أن الخيال والأحلامَ يُضْفِيان على الشخصيةِ صفات محبَّبَةً ...

فقال « تيمورلنك » :

يلوحُ لى أن أنطونيو قد كسَبَ الشوْطَ من أولِ جَولَة ... !

فتضاحكَتِ الفتاتان . وطفِق « أنطونيو » ينقِّلُ بصرَه بينهما وبين « كليوبترة » ، فألفى الملكةَ تتكلَّفُ الإبْتسام .

وأقبل الغلامُ بالشراب ورَصَّ الأقداحَ أمامنا .

وألفيت « زين السيوف باشا » يَعْبَثُ بالمِلْعقةِ فى ضَجَرٍ وتململ ...

وصبَّ « مارتن » الشرابَ فى الأقداح ونهضَ وقد رفع كأسَه يقول :

نشربُ نخبَ الملكةِ ورفاقِها الأمجادِ .

وجَرَع كأسَه دفعةً واحدة ، فالتمعتْ عيناه على الأثر . ورشَفَ كلٌّ منا من كأسِه رَشْفة ، والتفتَ « مارتن » إلى « تيمورلنك » وقال :

لايروقُنى كثيراً ياسيدى منظرُ غِطاءِ رأسِك ، ذلك الطُّرطورِ المستطيلِ ، ولكن دَعْنى أسألُكَ : كيف كنتَ تُقْبِلُ على المعمَعةِ وعلى رأسك هذا التَّلِّ ... ؟ !

فأجاب « زين السيوف باشا » وقد تَغَضَّنَ جبينُه : إنه كان يحاربُ بسيفِه لا بغطاءِ رأسِه ، وكان عظيماً فى ضَرباتِه التى يَكيلُها للأعداء ...

وأجاب « تيمورلنك » هادئَ الصوتِ والابتسامةُ مازالت تتخايلُ على فمه :

لقد مضى زمنُ الحربِ والضرب ... والعالَمُ اليومَ يستقبلُ عهدَ سلام دائم ومحبةٍ شاملة ...

وكان « أنطونيو » قد أفرغَ كأسَه ، فملأها « مارتنُ » له ، وملأ لنفسه كأسا ، وما أسرعَ أن صبَّها فى حلقِه ... وقال ! « كليوبترة » وهو يضعُ الكأسَ على المائدة : مارأيكِ ياسيدتى فى أن تأتى معى إلى أمريكا بعد انتهاءِ المؤتمر ... إن الناسَ ليتشوَّفونَ إلى مَرآكِ ... أؤكِّدُ أنكِ تستطيعين أن تَرْبَحى فى الليلةِ الواحدة مليونَ دُولار .

فرمَقه « زين السيوف باشا » بنظرة نَكراءَ وغمغم : ماذا تقولُ ياسيدى ؟ !

وتابع « مارتنُ » قولَه غير مَعْنِيٍّ بما سَمِع :

أؤكِّدُ لكِ أنك تربَحين مليونَ دولار نظيرَ ظهورِك على المسرح عَشْرَ دقائقَ فقط ... أستطيع أن أتعاقَدَ معكِ الساعةَ ... !

وزمجر « زين السيوف باشا » يقول : أنسيتَ ياسيدى من تُخاطِبُ ! !

فقال « مارتنُ » : ليس من العدل ياجنرال أن تستأثِروا بهذه الفتنة الرائعة ، وتحبِسُوها عن أعينِ الناس ... إنها مغالاةٌ فى الأَثَرة وحبِّ النفس ...

وهمم « تيمورلنك » يقول لـ « مارتن » :

وكم تُعطيني أنا نظيرَ مُثولي على المسرح في بلدِكم ؟ !

فقال « مارتن » ، وقد أفرغ كأساً من البراندي في حَلْقِه :

ولا سِنْت واحد ياسيدي . . إلا إذا كنتَ في رِكاب الملكة ... ! .

فنَدَّت من « أنطونيو » ضحكة عابثة ما كاد يُطلِقُها حتى تمالَكَ ، وقال :

أما أنا فأتطوَّعُ بالظُّهورِ على المسرح بجانبِ الملكة بلا أجرٍ قَلَّ أو كَثُرَ !

وألقى « زين السيوف باشا » بنظرةٍ خاطفة على ساعةِ مِعصمه وهو يَزفِرُ .

ثم مال على « كليوبترة » يقول :

ألا تَرَيْنَ ياصاحبةَ الجلالة أن الوقتَ قد حان لزيارةِ قبرِ الإسكندر ؟

فأومأتْ إليه أن نعمْ ، ونهضتْ فنهضنا جميعاً ... وصاح « مارتن » يقول :

قبر الإسكندر ؟ ... قبر الإسكندر ؟ ... لقد حضرتُ لمشاهدتِه ... إذا سَمَحت الملكةُ سِرْنا معاً ...

فنهض « زين السيوف باشا » وجعل يضرب الأرضَ بقدَمَيْه ـ كحصانٍ موثَقٍ يريد الفَكاكَ ـ وهو يَفْسَح المكان لخروج « كليوبترة » . أما هي فالتفتتْ إلى « مارتنَ » وأشارت إليه إشارةَ الموافقة ...

وما كادت « كليوبترة » تتهيَّأ للخروج حتى ألفينا « مارتنَ » يقفِزُ إليها ويأخُذ بيدها ويسيرُ بجانبها ، وقد أقبل يتحدَّثُ إليها في اهتمام . على حين رأينا « زينَ السيوف باشا » وقد وقف لحظةً وقفة صُلْبةً وعيناه تقدحان شَرراً . ونهض « أنطونيو » ، فأحاطت به الفتاتان ، وقد أخذتا بساعِدَيه ، وسمعناه يقول : أرغَبُ في أن أعلمَ على وجه التأكيد أأنا اليومَ أحسنُ مني فيما مضى ، أقصِدُ في الزمنِ الغابر ، أم كنتُ فيما مضى أحسنَ مني اليومَ ؟ ...

فأجابته « فلورا » : ثِقْ أنكَ الآنَ رائعٌ بديع ... !

فقال « أنطونيو » : ورأيُ الآنسة جانيت ؟

فقالت « جانيت » وهى تُرَجِّعُ فى ضِحكَتِها : رُبَّما أُفَضِّل أنطونيو القديم .

فأجابها : لستِ ظريفةً يا صديقتى ... !

وانطلق الثلاثةُ يضحكون ، فالتفتت « كليوبترةُ » إليهم . ولمحتُ فى عينيها بريقَ التأفُّف والاستنكار ، ولكنها تابعتْ سَيْرَها مع « مارتن » ... ورأيتُ « تيمورلنكَ » يأخذُ بيد « زَيْنِ السيوف باشا » ويسيرُ خلفَ « أنطونيو » والفتاتين . أما أنا فكنتُ فى عَقِبِ الجَمْع ، وجعلتُ أرقُبُ هذا المَوْكِبَ المبتكَر وهو يتخايَلُ بين الأعمدة الرُّومانية .

وسألتُ الغلامَ عن قبرِ الإسكندر ، فأخبرنى بأنه غَيْرُ بعيد عن القهوة ... وتطوَّعَ لمرافقتِنا . فما إن دَنَوْنَا من البابِ الخارجيِّ حتى هُرِعْتُ إلى الملكة وقلتُ لها : إن القبرَ غيرُ بعيد من هنا ، فهل تفضِّلينَ أن نذهبَ إليه فى السيارةِ أو سيراً على الأقدام ؟

فآثرَتْ أن نَذْهَبَ راجِلِينَ ، فأعلنتُ الأمرَ للحاضرين .

وملتُ على « عبد العال » وكان واقفاً بجوارِ الباب ، وقلتُ :

ألا تأتِى معنا لزيارةِ قبرِ الإسكندر ؟

فغمغم : مالى ولقبورِ الموتى ... ؟

فجذبتُه من يدِه وسرتُ به وأنا أردِّدُ : إنها فرصةٌ يجبُ ألّا تُضيعَها ...

وسار الجَمْعُ يتقدَّمُه غلامُ القهوة .. وألفَيْتُ « زَيْنَ السيوف باشا » يتسلَّلُ من « تيمورلنكَ » ويلْحقُ بـ « كليوبترةَ » فيسيرُ على جانبها الأيْسرِ .

وانحدَرْنا على الشاطئ فى طريقٍ رمليٍّ نظيف معبَّد ، وكانت أشعَّةُ الشمسِ المائلةُ نحوَ المَغيب تتلألأُ فى لونِها الأحمرِ القانى على صفحة النيلِ الهادئةِ والجوُّ رَخِيُّ النَّسمات ، والمراكبُ منتشرةً على الماء بقِلاعِها البِيضِ العَرِيضَةِ رائحةً غادية

تحيي السكون بأناشيدها الفطرية العذبة ، والنخيل قائماً على حافتي النيل يتمايل سعفه في بطء وجلال ، ويبعث لنا بين الحين والحين بهمساته اللطاف ...

ووقفت « كليوبترة » تسرح الطرف حولها صامتة والجمع في سكون . ثم سمعت « أنطونيو » يهينم : لم يتغير شيء في هذا الوادي الوديع منذ تركناه ... كأني بالزمن قد عاد القهقرى مئات الأعوام ...

ورنا إلى « كليوبترة » ، وقال : أتذكرين ...؟

وتلاقت نظراتهما فترة ... وتقدم « تيمورلنك » من الملكة يقول :

إن أنطونيو يزعم أن مصر كما كانت منذ آلاف السنين ، لم يعترها أي تغيير ...

فمسحت « كليوبترة » بيدها على جبهتها ، واعتدلت في وقفتها وقالت في لهجة متئدة : لن يثبت شيء على حال واحدة .. كل أمر مصيره للتبدل والتغير ...

وقال « زين السيوف باشا » وهو يفتل شاربه : إن مصر اليوم غيرها بالأمس ... إنها تساير الزمن وتخطو مع الحضارة خطواتها الجبارة .

فعقد « مارتن » ساعديه بصدره ، ووقف يتأمل قرص الشمس الوهاج وهو يتخايل خلف النخيل وقال : إن مصرك ياسيدي الجنرال هي هي لم تتغير ولن تتغير . أما ما تزعمه من أنها نالت قسطها من الحضارة ، فما هذه الحضارة التي نالتها إلا طلاء سطحي رقيق لم ينفذ إلى الجوهر ...

فعقد « زين السيوف باشا » حاجبيه وقال :

أتزعم ياسيدي أن مصر مازالت على الفطرة ، وأنها لاتساير الحضارة الجديدة ...؟

فقال « تيمورلنك » :

هون عليك ياجنرال ... إنك إذا سألت مستر مارتن عن أمريكا نفسها وعلاقتها بالحضارة الجديدة فإنه يجيبك بمثل ما أجابك به عن مصر ... !

وقالت « كليوبترة » :

أتزعمون إذن أن جوهرَ الشيءِ لا يتغيرُ مهما تبدَّلَتِ الأحوالُ وتقدم الزمنُ ؟ إنه لخطأٌ ظاهر أن نعتقدَ ببقاء الشيء على حالِه أبدَ الدهر !

فأجاب « أنطونيو » : إن جوهرَ النفسِ الأصيلِ لن يتغيرَ أبداً ... إنه والعاطفةُ الصادقةُ سواء ... خذُوا مثلا عاطفةَ الحبِّ ... الحبِّ الرُّوحانيِّ الطاهرِ ... الحبِّ الصادقِ العظيم ... إنه دائمٌ دوامَ الأزَل ... إنه ...

وتحركت « كليوبترة » تقول :

أخشى أن يغشانا الظلامُ ولما نَزُرْ قبرَ الإسكندر ... هَيُّوا يارِفاقُ ...

وسارت وسِرْنا معها ... وألفى « أنطونيو » نفسَه بين فتاتيه تحُثَّانِه على المَسير ... وما إن خطونا بِضْعَ خُطُواتٍ حتى التقينا فى الطريق ببعضِ فَتَياتٍ من بناتِ البلد يتلفَّفْنَ بالمُلاءات ، ويَنتَقِبْنَ بالبراقِعِ ، ويتَّخِذْن العصائبَ الملوَّنة المُبَرْقَشةَ على الجِباه . فوقفتْ « كليوبترة » ترقُبُهنَّ فى اهتمام . وصاح « مارتنُ » يقول : حقًّا إنه لَمَنْظَر خلَّاب ... إنى مستعِدٌّ أن أدفعَ خَمْسمائةِ دولار لكلِّ فتاةٍ لِقاءَ ظهورها فى عَرضٍ موسيقيٍّ على المسرح ...

فدنا « عبدُ العال » من « مارتنَ » يقول :

وأنا ياسيدى . ألا تجدُنى صالحًا للظهور فى « عَرْضِك » الموسيقيّ ؟ !

فرنا إليه « مارتن » يتفحَّصُه ثم قال :

إن لك وجهًا معبِّراً ... ثق أنى لن أنساكَ عند الحاجة ...

— أطال الله عُمرَك ... !

فقالت « كليوبترة » لـ « عبدِ العال » :

وهل ترضَى أن تعرِضَ على المسرح نفسَك ؟ !

فأجاب على البداهةِ : ولِمَ لا ياسيدتى ؟ ... المسألةُ كَسْبٌ وارتزاق ... !

وقالت « جانيت » وهى تشيرُ إلى الفتياتِ البلديَّات :

سأعملُ على أن أتخذَ من هذه الأزياءِ زيًّا مبتكَراً أُشيعُه فى أمريكا ...

وقالت « فلورا » : إنى لِجِدُّ مُعْجَبةٍ بعصائبِهنَّ المبرقشة التى يُدِرْنها على جباهِهِنَّ ... سأتخذ من هـذه العصائبِ نوعَ قُبَّعةٍ طريفة تتحدثُ بجمالها أمريكا كلُّها ...

وأخـذت أشباحُ الفتياتِ البلديات تبتعد وتتزايل ... وتابعْنا السيرَ إلى المَقْبَرة ... ولم يطلْ بنا المَسيرُ حتى ألفينا أنفسَنا أمامَ فجوةٍ مُسَوَّرةٍ ، فما إن أشرفْنا عليها حتى وجدنا دَرَجاً صَخْرِيًّا يُفْضِى إلى بابٍ ... وهبَط الغلامُ إلى حارسِ المَقبرة الماثل بجوارِ المدخَل يحدِّثُه فى شأنِنا ، فهُرِع إلينا يرحِّب بنا ويُعِدُّ تذاكرَ الدخول ...

وهمهم « عبدُ العال » : بالله عليكم لاتأخُذوا لى تذكِرة ... !

فالتفتتْ إليه « كليوبترة » تقول : ألا تريدُ أن تزورَ قبر الإسكندر ؟ !

— إنى أكرهُ زيارةَ القبورِ ياسيدتى ... !

— ولِمَ ... ؟

— سأشبعُ من القبرِ بعد قليل ، فلِمَ العَجلة ؟ !

فضرب « مارتنُ » بيده على كَتِفِ « عبد العال » وقال :

إنها « بروفةُ » دفنٍ ياصاحبى ... !

— وهل ترى أن أجلى قد دَنَا ؟ !

وقالت « كليوبترة » : أتخشى الموتَ ياعبدَ العال ؟ !

فهرشَ « عبدالعال » رأسه هنيهةً ثم قال : وأنتِ ياسيدتى ... ألا تخشَيْنَه ؟

فرنَتْ إليه صامتةً برهة وهى تبتسم ، ثم قالت :

إن الموتَ ليس بالشىءِ المفزِّعِ المُخيف كما تتوهَّمُ ... إذا رَغِبْتَ فى أن

تتخلصَ من وساوسِه التي تبعثُ على الخوفِ فعليك بمصادقتِه ...

— أُصادِقُ الموتَ ؟ ... أتُرِيدينَني على أن أقْطَعَ صاتي بالحياةِ وأنا فيها ...!

فتقدمَ « تيمورلنكُ » وَربَّتَ كتِفَ « عبد العال » وقال :

مصادقةُ الموتِ ياصديقي لا تقطعُ صلتك بالحياةِ ولا تُبْعِدُكَ عنها ، مصادقةُ الموتِ تدفعُكَ لأن تتعرَّفَ الحياةَ على حقيقتِها ، ومن ثمَّ يتوضَّح لك طريقُ السعادة ...

فصاح « مارتنُ » مقهقها :

إذا تمرَّنتَ على الموتِ بين حِينٍ وحِينٍ ألفيتَه شيئًا مألوفًا غيرَ بغيض !

وقَدَّم الحارسُ التذاكرَ إلينا ، فقال « عبدُ العال » :

الموتُ هو الموتُ ... بالله عليكم اتركوني ... سأنتظرُ هنا حتى تخرُجُوا !

وهبَطَت « كليوبترةُ » الدَّرَج ونحن خلفها ، وفتح الحارسُ بابَ المقبرة ، وتَقَدَّمَنا وقد أشعَلَ شَمْعَةً في يده ، ودخلنا فإذا بنا في دِهْليزٍ ضَيِّق منحدرٍ بسقفٍ منخفض يكاد يُلامِسُ رءوسَنا ، وانتهى بنا السيرُ إلى رَدْهَةٍ ليست متسعة ، خاليةٍ من النوافذ ، يتوسَّطُها ناووسٌ مِصْرِيٌّ من الصَّخْرِ الأسود اللامع يحيط به سِيَاجٌ حديثُ الصُّنْع ... وكان الناووسُ فاخراً تحلِّيه بعضُ النقوشِ المصرية وقليلٌ من الرموز الهيروغليفية والإغريقية ، ووقفنا حولَه نتأمله صامِتِين ...

وهمهم « زين السيوف باشا » :

لقد أحسنوا صُنعًا بوضع الإسكندر في تابوتٍ مصريٍّ أصيل ...

فقال « مارتن » :

يقولون إن الكهنةَ توَّجَتْه فرعونًا على مصرَ وجعلت منه ابنًا لآمون ...

وانطلق الحارسُ في ثرثرة فيَّاضة يفسِّرُ لنا الرموزَ ويَرْوِي لنا خليطًا من تاريخ الإسكندر ، وكان يتحدثُ في سرعة بالغة كأنه يُلقِي درسًا محفوظا . ولكن نَغْمةَ صَوْتِهِ كانت راتبةً تبعثُ على المَلَلِ والضِّيق . وصاح «مارتن» أخيراً :

أين العظامُ ... ؟ نريدُ أن نرى العظامَ ... !

فقادنا الحارسُ إلى حجرةٍ فى الداخل أكثرَ ضيقاً من الرَّدْهة ، قائمٍ فى أحدِ أركانِها صندوقٌ زُجاجىٌّ على حاملٍ مُذْهَب يحوى كُومةً من عظام أو بقايا عِظام ...

وهينَمتْ « كليوبترة » تقول :

إنه من المؤلم أن يَعْرِضوا رُفاتَ الراحِلينَ من الملوك على هذه الحال .

فقال « مارتن » : ليس بالثابتِ أن تكونَ هذه عظامَ الإسكندر ... !

فقال « زين السيوف باشا » : إذن عظامُ مَن تكونُ ياسيدى ؟ !

— أكبرُ الظن أنها عظامُ بعضِ الحيوانات المنقرضة !

— أتفهمُ ماتقولُ ياسيدى ... ؟ إن الطفلَ ليستطيعُ أن يميِّزَ بين عظامِ الحيوانِ وعظامِ الإنسان ...

— بل إن أكبرَ عالِمٍ قد لا يستطيعُ هذا التمييز ... إن عِلْمَ الأنثروبولوجيا أثبتَ أن التشابُهَ تامٌّ بين هيكل الإنسان وهيكل الحيوان .

— هَذَرٌ ماتقول ... هذر ماتقول ... !

وسمعنا « جانيت » تقول وقد اندفعتْ تمسحُ وجهَها بمنديلها وتُرَوِّحُه :

يالله ... كيف استطاع الإسكندر أن يَقضىَ فى هذا المكان الخانق تلك الأعُصرَ المتتابعة ... ؟ !

ونَدَّتْ من « فلورا » صيحةٌ وقالت :

لا ... لاأستطيعُ المُكوث ... لاأستطيع ...

واستندتْ إلى ذِراع « أنطونيو » فخرج بها ومعه « جانيت » ...

وأقبل « زين السيوف باشا » على « كليوبترةَ » يقول :

ألا تَرْغَبين فى مغادرةِ المكان ... ؟ !

فأجابته وهى تُشيِّعُ بنظرتها « أنطونيو » ورفيقتيه :

أريد أن أعلمَ أعظامُ الإسكندر هذه - قا ... ؟ !

وأخذ وجهُها يحتقنُ ويتصبَّبُ عرقا ... فالتفتَ « زينُ السيوف باشا » إلى الحارسِ صائحًا : أليس عندكم مراوحُ ... ؟ !

ووقف الحارسُ مشدوهًا لا يُجيب ، ووجَّهَ « زينُ السيوف باشا » كلامَه لـ « كليوبترة » قائلا : يؤلمنى ألا يكون فى المَقبرةِ من وسائل الراحة العصرية ما يُخفِّفُ عنكِ هذه المتاعبَ ...

فقال « مارتن » على الفور : إن المقبرةَ على هذه الصورةِ لا ينقُصُها شىء ... إنها محتفظةٌ بطابَعِها الأصيل ...

فقال « زينُ السيوف باشا » : لابُدَّ من وَضعِ آلةٍ لتكييف الهواء ...

فقال « مارتن » : إذن لَفَسَد الأمرُ كلُّه ...

وبدأ العرقُ غزيراً على جبينِ « كليوبترة » وازداد احتقانُ وجهِها واضطرابُ تنفُّسِها ..

وصاح « زين السيوف باشا » بالحارسِ : أين المراوحُ يارجل ... ؟ !

فأجاب الرجلُ فى حَيرةٍ وارتباك : سأُزوِّدُ المقبرةَ بكلِّ ماتريدون ... إذا أتيتم مرةً أخرى وجدتم المكانَ وَفقَ المَرام ...

وتلفتُّ حولى لأرى مايفعلُ « تيمورلنكُ » فلم أجدْه ...

وهمَّ « مارتن » بالحارس : ولا تنسَ من فضلِكَ الثلَّاجة الكهربيَّة وزجاجاتِ الويسكى والصُّودا و ...

ووثبَ « زينُ السيوف باشا » صائحًا فى وجهِ الحارس :

أيها الحيوانُ ... أريد أن تُحضِرَ لى مراوحَ فى الحال ...

وخرج الحارسُ يعدو بالشمعة و « زينُ السيوف باشا » في أثَرِه ، ولفَّنا

الظلامُ فى شَملَته ... وسمعتُ « مارتنَ » يقول فى صوت رقيقٍ لـ « كليوبترة » :

هاتى يدَكِ ... لاتخشىْ شيئاً ... اعتمِدى على ذِراعِي ... هكذا ...

وشعَرْتُ بهما يتحرَّكان ، وأخـذتُ أتلمَّسُ طريقى فى الظلام خلفَهما . ودلَفنا إلى رَدْهةِ الناووسِ فوجدناها أقـلَّ حُلوكةً من « حجرةِ العِظام » إذ كانت فَـلولُ أشعَّةِ الشمس الغـاربة مازالت تضطربُ فيها . وأقبـل علينا « زينُ السيوف باشا » وبيـده خُوصةٌ عريضة على شكلِ مِرْوحة ، وقال لـ « كليوبترة » وهو يروِّح وَجهَها : عذراً ياسيدتى ... لم أجد غيرَ هذه ...

فقال « مارتنُ » : نحن فى حاجةٍ إلى شمعة أو عودٍ من الثِّقاب ياسيدى ...

فلم يجبْهُ « زينُ السيوف باشا » بل تابع ترويحَه وهو يقول لـ « كليوبترة » :

إنى آسِفٌ يامولاتى إذْ أزعجتُ خاطرَكِ بهذه الزيارةِ المُضْنِية ...

— ليس ثمَّةَ مايوجِبُ الأسفَ ياسيدى ... إنى شاكرةٌ لكَ لُطْفَك ...

وخرجنا من الدِّهْليز فاستقبلَنا الهواءُ المُنْعِش ... ولمحتُ « تيمورلنك » واقفاً مع « عبد العال » على رأسِ الفجوة يطارحُه الحديث ، وصَعِدْنا الدَّرَج ، وقالت « كليوبترة » لـ « مارتن » : أشكرُ لك جميلَ عنايتِكَ ...

— أنا في خدمةِ سيدتى دائماً ...

وتلفتت « كليوبترةُ » حولَها وهى تقول :

لقد حانَ موعِدُ الأوْبَة ... ولـكننى لاأرى أنطونيو ...

وصاح « تيمورلنك » ينادى : ياقيصرُ ... ياقيصر ... أين أنت ... ؟

وهمهمت « كليوبترة » : إنه سيعطِّلُنا ... سأتركه حتماً ...

وظهر « أنطونيو » من خلْفِ كثيب ، وعن جانبيه الغادتان يحمل لهما مرآةً ، وكلتاهما منهمكةٌ تتزيَّنُ وتتعطَّر .

وصاح « زينُ السيوف باشا » : لقد أزِفَ موعِدُ الرجوعِ ... هلمَّ ... !

وترك « أنطونيو » المرآة للفتاتين وهُرِع إلى « كليوبترة » فعاجلته بقولها :

حقًّا إنك مجرَّدٌ من الذوق ... إن ضيفتَيْنا لم تستكمِلا زينتَهما بعد ...

فغمغم « أنطونيو » وقد خَفَضَ بصرَه : عفوَكِ ... عفوَكِ كليوبترة ...

فعقدتْ « كليوبترة » مابين حاجبَيها وقالت : ماذا تريدُ أن تقول ؟

— لا يتبادَرْ إلى ذهنِكِ أننى ...

فقاطعتْه قائلة : قلتُ لكَ عُد إلى ضيفتَيْك ... ولا تكن طفلا ...

والتفتتْ إليَّ تقول : أُدْعُ لنا بالسيارة ...

فحثثتُ خُطاىَ إلى القهوة مصطحبًا « عبدَ العال » ، وعُدنا وَشِيكًا بسيارتِنا تتبعُها سيارةُ « مارتن » ، فألفيتُ الغادتين تستوفيان زينتَهما فى ناحيةٍ ومعهما « مارتن » يتحدَّث إليهما . أما « كليوبترة » فكانت ترقُبُ الشمسَ الغاربة صُلبةَ الملامح صامتة ، تُصغِى إلى أناشيد المَلَّاحين ، يردِّدونها فى عُرْضِ النيل ، وعن كَثَبٍ من الملكةِ « أنطونيو » واقفٌ يرنُو إليها . أما « تيمورلنك » فكان جالساً على كثيبٍ وبيده عصاً يعبَثُ بها في الرَّمل . وأمامَه « زين السيوف باشا » يرُوح ويجيء عليه سِيماءُ الاهْتياج ... ورأيتْ « أنطونيو » يدنو من « كليوبترة » مترفقا ، وسمعتُها تقول له : دَعْنى ، لا تقطعْ علىَّ تأمُّلاتى ... !

ولما أحسَّتْ بحضور السيارةِ تهيأتْ للركوب ، فاقترب منها « مارتنُ » وهو يقول : أأطمعُ فى لقائكِ غداً ياسيدتى ... ؟ !

فأجابته « كليوبترة » :

لا أدرى على وجه التحقيق ، فقد تعوقُنى أعمال المؤتمر ...

— إذن بعدَ غد ... ؟

— أرجو ... ولندع الأمرَ للمناسبات ... إنى سعيدةٌ بالتعرُّف اليكَ ...

ثم حيَّته فى أدب ، وكذلك حيَّت صاحبتَيه ، وارتقتْ سيارتَها ، وتبعناها

أنا و « أنطونيو » و « تيمورلنك » و « زين السيوف باشا » ... واقتعد « عبدُ العال » مقعَدَه جوارَ السائق ، ومضت السيارةُ والصمتُ يخيِّمُ علينا ، وما أسرعَ أن عَبَرْنا النهرَ عائدين أدراجَنا ، وكان النسيمُ يهُبُّ علينا فيعبَثُ بشعَرِ « كليوبترة » فتصفِّفُه . ولاحظتُ أن « زين السيوف باشا » قَلِقٌ يرصُدُ فرصةً للتحدُّث ، وقد تخيَّل لذلك فأعيَتْه الحِيَل . . ! إذ كان يُكثِرُ من التنحنح ، ومسْح وجهِه بالمنديل ، ولا يفتُرُ عن فتْلِ شاربِه فى إلحاح ، ولما طال الصَّمت ، وجدتُه يصيحُ بى دَفْعةً واحدة يقول :

ياحضرةَ السكرتير ، ألا تخبرُنا بجدولِ أعمالِ المؤتمر غداً ... ؟

فأُخِذْتُ ، وغمغمتُ قائلا :

سيبدأ المؤتمرُ وَضْعَ الموادِّ الأولى فى ميثاقِ « المدينةِ الفاضلة » ...

— قبل أن يَفرُغوا من درْسِ تقريرى عن الملاريا والتعليقِ عليه بما يَعِنُّ لهم من آراء ... ؟ !

فقال « تيمورلنك » :

يجب الانتهاءُ أولا من تقريرِك ، وسأُدْلِى برأيى فيه غداً ...

— إنى شيِّقٌ إلى معرفةِ ملاحظاتِكَ القيمةِ فى هذا الصَّدَد ...

وكانت هذه فرصةً لِاندْفاع « زين السيوف باشا » فى حديثِه عما فعلَه فى مكافحةِ البَعوضِ والقضاءِ على السدودِ في أعالى النيل ...

ووجدتُ « كليوبترة » تخرُج شيئاً عن صَمْتها وتشاركُ فى الحديث بتلطُّفِها المعهود . أما « أنطونيو » فلم يَنبِس . وكان غارقاً فى تيَّارٍ من الأحلام ، وأخيراً بلغْنا المَعبَد : معبدَ أبى الهول ، وتركتْ « كليوبترةُ » السيارةَ ، وتتابعْنا خلفَها ، وخطا نحوَها « أنطونيو » يقول :

ثِقى ياكليوبترةُ أنى راحلٌ غدا ... راحلٌ إلى مَقَرِّىَ السَّرْمَدىِّ !

— لقد أخبرتك غير مرة يا أنطونيو أن أمرك بين يدى العالم الروحانى . وكلتك إليه ونفضت منك يدى ... !

— ما أحب أن تكونى على غضبى ... !

— إنى عليك مشفقة ..

— سأرتحل ... سأرتحل ... على ذلك بنيت عزمى ، وإنما يعنينى ألا يخامرك الظن بأنى رفعت إلى هاتين الأمريكيتين بصرى .

— لا يعنينى إلا شىء واحد ، هو أن تكون مثالا للخلق الفاضل ... نحن هنا رموز المثل العليا والفضائل السامية ...

— أنا عند ظنك بى ...

وانحنى على يدها فقبلها ، ثم عاد إلى السيارة فصعد فيها ...

والتفتت « كليوبترة » إلى « زين السيوف باشا » تقول :

أتصحب أنطونيو إلى قصر الورد يا جنرال ... ؟ !

فأجابها من فوره والابتسامة تزهو على شفتيه :

إذا منحتنى فرصة قصيرة أجلس فيها إليك متحدثا فى برنامج أعمال المؤتمر غداً كنت لك شاكراً ...

— لا بأس ... تفضل ... !

وتقدم منها « تيمورلنك » يقول : أما أنا فأذنى لى بالمصير إلى المسجد ... بى شوق إلى الصلاة أخلص إليها بنفسى ...

— أرجو لك ليلة هانئة ...

فحياها واتجه نحو السيارة ، وسمعته يصيح مناديا الشاويش « سيد متولى » ... فهرول إليه . فقال « تيمورلنك » : لدينا عمل كبير يا سيد متولى هذه الليلة ...

— أيرغب سيدى أن أجمع له الشحاذين لإطعامهم كليلة أمس ... ؟

— سنُطْعِمُ الليلةَ طائفةً أخرى ... ستجمَعُ لى ماتستطيعُ أن تجمعَه من شوارِدِ الحيوان ... أقصِدُ القِطَطَ الضالةَ التى يطاردُها الناسُ .

وظهرتْ على وجهِ « سيد متولى » أماراتُ الدهشة ، وبادَلَنى أنا و « عبدَ العال » النظراتِ ، ثم قال بصوتِ المستسلِمِ :

سأقومُ بهذه المُهِمَّةِ كما يبغى سيدى . .

وصَعِدَ « تيمورلنكُ » وفى أثرِه « سيد متولى » ، وتحرَّكت السيارة ، ودخلت « كليوبترة » العبدَ مع « زين السيوف باشا » ، وجلسَا فى الرَّدْهة ... وسمعتُه يقول : أرجو ألا يكونَ هؤلاءِ الأمريكيون قد أثقَلوا عليكِ ...

فمطَّتْ شفتيها ، وقالت في إهمال : كلا ، لقد كانوا سَلْوَةً على أيةِ حال ...

— يحسَب هؤلاء الأمريكيون أن في استطاعتهم تطبيقَ نظرياتِهم الغريبةِ فى أى صُقْع ومع أىِّ ناس .. إن همَّهم جمعُ المال وكفَى ... لقد كان ألمى شديداً حين تحدَّث هذا المسمَّى مارتنَ في شأنِ العَرْض الذى أرادكِ على الاشتراكِ فيه ... يحسبونَ أن في مُكْنَتِهم شراءَ كلِّ شىء بالدولارات ...

— أظنُّكَ لاتعارضُ ياجنرالُ إذا أدخلوا في عُروضِهم الفنِّيةِ هذه النماذجَ المصرية من صواحبِ المُلاءات والعصائبِ اللواتى مررنَ بنا في طريق حُلوانَ ... الملاءاتِ الهفهافةِ اللِّطاف ، والعصائبِ البرقَشَةِ ، والبراقعِ المُثَقَّبة ...

— ماأرى فى كلِّ هذا إلا تهريجاً ولَغْواً باطلا ...

— إن نساءَكم يَبْدُون في هذا الزِّىِّ مِلاحاً .. !

— أترَيْنَ ذلك ... ؟ !

— إن لهذا البُرْقُعِ الأسودِ أثرَه في تجلية مفاتنِ العيون ، فكأنها النجومُ تتلألأُ فى غواشى ليلٍ دامِس ... !

— اِسمحى لى ياسيدتى أن أُصرِّحَ لكِ بأن هذا المنظرَ لايروقُنى — إن

والدتى رحمها الله حينما كانت تريد تخويفى وكفى عن الصراخ لم تكن تفعل إلا أن ترتدي ملاءة وبرقعا فأنكمش فى مكانى وأرد صوتى فى حلقى ...

فتضاحكت « كليوبترة » ثم قالت : على أية حال ... لا أرى هذه الملاءة والبرقع حجابا للمرأة كما يقال ، إنما هما للمرأة زينة وفتنة ...

— زينة فيما يبدو ، ولكنها زينة مزيفة متكلفة ...

— يقولون إن الزينة المصنوعة لا بأس بها لإظهار مفاتن الجمال الطبيعى ...

— إن الجمال الطبيعى الحق لا يحتاج إلى زخرف ...!

— أوافقك على هذا ... ولكنى أرى الناس جميعا لا يقتنعون بهذا الرأى ، فمثلا إذا أخذنا نموذجين : الحقل والحديقة ، الأول نموذج الطبيعة بلا زينة مجلوبة ، والآخر نموذج الطبيعة التى مستها يد التجميل المصنوع . فأي النموذجين أملأ بعناصر الجمال وأدعى إلى الافتتان ... !

— أفضل جمال الحقل ، فانظرى إلى ذلك الجدول الساذج يشق الأرض متعرجا دون هندسة ولا تدبير ، ألا يبدو في نظرنا أحسن من تلك القناة المحفورة خلال الحديقة بالمسطرة والفرجار ؟!

فأرسلت « كليوبترة » ضحكة لطيفة ، وهى ترشف قدح القهوة ، ثم قالت :

يالك من شاعر ياجنرال .. ؟!

فرنا إليها لحظة ، وقال فى صوت لين النبرات : من يستطيع ألا يكون شاعرا وهو بين يدي « كليوبترة » ملهمة القلب وموقظة الوجدان !

فحولت نظرها عن نظره ، وتشاغلت بقدح القهوة تضعه فى مكانه ، ثم قالت :

ولكنهم يقولون إن الطبيعة نفسها تعمد إلى الزينة والزخرف لتبدو جميلة تجتذب الأنظار . فالزهرة لا تبدو جميلة حقا إلا بهذا التناسق والتآلف فى الشكل واللون والرائحة . ألا تسمى هذا زينة وزخرفا ... !

— إنه نوعٌ من الزِّينةِ والزُّخْرُفِ لا رَيْبَ .

— إنهم يزعُمُونَ أنَّ الزِّينَةَ ليست من الكماليَّاتِ فى الحياة ، بل هى عُنْصُرٌ أساسِيٌّ فيها . إنها مظهرٌ من غريزةِ حِفْظِ النَّوْع ...

— حقًّا ...؟

— خُذْ مثلاً زينةَ الطيور ، فلولاها لما وقعَ بينها تجاذُبٌ وتحابٌّ ، ولولا زينةُ الأزاهر لما أقبلَ عليها الفَرَاشُ يمتَصُّ رحيقها ويتنقَّل بينها ليحملَ بذورَ الحياةِ من زهرٍ إلى زهر ...!

— إذن فالزينةُ والتجمُّلُ على هذا الاعتبارِ ياسيدتى أساسُ التعاطُفُ بين الكائنات ، أو بمعنًى آخرَ أساسُ الحبِّ ... إذا كان الأمرُ كذلك فليس لى أيُّ اعتراضٍ ، بل إنى من مُحَبِّذِى التزيُّنِ بلا قَيْدٍ ولا شَرْط ...

فتضاحكتْ « كليوبترةُ » وقالت : على رِسْلِكَ يا جنرال ... إنها خواطرُ يموجُ بها الفكر .. من يَدْرى مبلغَ الحقيقةِ فيها ؟...

ووقف « زينُ السيوف باشا » وقد انسرحَ يفكِّرُ ، ثم قال :

ولكن صبراً سيدتى ، لى سؤال هَيِّن فى هذا الشأن ... ألا نعتبرُ الجمالَ فى المرأة الفاتنةِ زينةً وزُخْرُفًا قد وهبَتْها لها الطبيعةُ اجتذابًا لأليفِها ، عملاً بسُنَّة حِفظِ النَّوْع ؟ فلماذا تلجأُ إذن للزينةِ المصنوعة ...؟

— تلجأُ للزينةِ المصنوعة لتُبرِزَ بها ما أودعَتْها إياه الطبيعةُ من كوامِنِ الحُسْن ، فتتجلَّى فتاةً خلاَّبة ...!

— كأن المرأةَ لاحدَّ لأطماعها فى الظَّفَرِ بافتتانِ الرجل ...!

— قد يكونُ هذا صحيحاً . إنهم يقولونَ إن المرأةَ لاحدَّ لنزعتِها فى اجتذابِ القلوب . وهذا يتفقُ مع الرأى القائلِ بأن ذلك مسايرةٌ لسنَّة حِفظِ النَّوع .

— إذن لقد انتهينا إلى نتيجةٍ واضحة ، إطلاقِ الحريةِ للمرأةِ فى التزيُّنِ

طوعاً لحكمِ الطبيعة . ولو كلّف هـذا الأمرُ خرابَ البيوت ... والأمرُ للهِ أولا وأخيرا ... !

فتضاحكت « كليوبترة » وقالت :

أحسَبُك متزوّجاً ياجنرال ...

— لم أحظ بعدُ بهذا الشرف . ولو تمّ لى ذلكِ لما توانيْتُ فى الأخـذِ بهذا المبدإ ، على الأقلّ من باب الأثرَة ، حِفظاً لنوعى ! ...

ودقّت الساعة فى هذا الوقتِ مُنتصَفَ العاشرة ، فنهض « زينُ السيوف باشا » يقول : أخشى أن أكونَ قد أثقلتُ عليكِ بزيارتى ...

— كلا ، بل إنى لأجِدُ لمجلِسك مُتْعةً طريفة ...

— أشكرُ لكِ هـذا التلطّف .. أظنّ أن الوقتَ قد حان لأن أترَكَكِ تنعَمينَ من الراحة بقِسْط ...

— يسرُّنى أن نستأنفَ الحديثَ فى فرصةٍ أخرى . .

ثم نهضتْ ، فنهضَ على أثرِها « زينُ السيوف باشا » ، وسارت معه إلى البابِ فى خُطواتٍ رفيقة ، فقال لها :

أترغَبينَ فى أن أصطحِبَكِ فى الغَداةِ إلى المؤتمر ... ؟

— يسرُّنى منكَ هذا الاهتمامُ ، سأنتظرُكَ لنذهبَ معاً ...

وانحنى على يدِها يُودِعُها قبلةً عميقة ، ثم انصرف .

وعادت « كليوبترةُ » فدنوتُ منها وقلتُ :

أثمّةَ أوامرُ يامولاتى ... ؟ !

— كلا ، أشكرُ لك !

فانحنيتُ محيّياً ، ومضيتُ من فورى ، وركبتُ إحـدى السيارات مع « عبدِ العـال » قاصـدَيْنِ منزِلى . وفيما نحن فى الطريق وجـدتُ

« عبدَ العال » يستسلمُ للكرى كعادتِه ، فصحتُ به قائلا :

ماهـذا الخمولُ ياعبدَ العـال ! ؟

ففتح جفنيْه وغمغم قائلا : أيّ خمول ؟ ألم نعملْ مافيه الكفايةُ اليوم ... ؟ العملُ متواصلٌ صباحَ مَساء ... ماذا تريدُ فوقَ هذا ؟

— ألا تعـلمُ أننا نعملُ فى أكبرِ مؤتمرٍ عالميٍّ ؟ يجب أن تُعِدَّ نفسَكَ لهذا الشأنِ الخطير !

— آمَنَّا وصدّقنا ياسيدى . وها نحن أولاء منتظرون ماسيأتينا على يديه من خيرٍ عميم . ألا تتركُنِي الآنَ أَنعَمُ ببعضِ الراحة ؟

وكان علىَّ أن أَمُرَّ ببعضِ ذوى المكانة ممن زاروا المؤتمر ورحَّبوا بأعضائه لأتركَ لهم بطاقاتِ الأعضاء . فما إن أَنْهيْتُ هذه المهمة ووصلتُ إلى دارى حتى ألفيتُ الشاويش « سيد متولى » واقفا بالبابِ وِقفتَه الصُّلبةَ المتحجِّرة ، فاستقبلَنا بوجْهٍ باشّ وضحِكاتٍ رنَّانة ، فبادرتُه بقولى :

ماذا فعلتَ ياسيد متولى ؟ !

— أنهيتُ عملى على خيرِ مايكون ... !

فقال « عبدُ العال » وهو يرسِلُ تثاؤُبةً ضَخْمةً :

ووليمةُ القِطَطِ الضالَّة ... ؟ !

فقال « سيد متولى » : انتهت المسألةُ على أحسنِ وجه . وقد نجحتُ فى جمعِ طائفةٍ ممتازة من القِطط وأودعتُها حَنِيَّةً من حَنايا المسجد الخارجية ، فكان مُواؤُها العجيبُ المختلِطُ يشُقُّ الفضاء ، ولم تهدأْ حتى وَزَّع عليها « تيمورلنكُ » أَنْصِبَتَها من الثَّريد واللحم ، ولـكنه لم يَنْجُ من شرِّها ، وخرج من الحنِيَّةِ مخموشَ اليدين والذراعين ! ...

فقلتُ : وماذا فعلتم بعدَ وليمةِ القِطَطِ ؟

— أخذ الأميرُ تقريرَ « زين السيوف باشا » ومُصَوَّراتِه ، ودخل حجرتَه ، وقال لى إنه مُتْعَب ، وسينام مبكِّراً ، ثم أوْصد البابَ خلفَه ، وقد سمحت لنفسى أن أختلِسَ النظرَ من خَصَاصِ الباب فوجدتُه قد انبطَحَ على الأرض ، وبسط أمامَه التقريرَ والمُصَوَّرات ، وأخذ يقرأُ ويشيرُ بالقلم ...

ودخلنا الدارَ ، وهُرِع « عبدُ العال » يُعِدُّ لنفسِه النَّعْناعَ المُغْلَى .

وسَرْعانَ مادقَّ جرسُ المِسَرَّة ، فإذا رئيسُ المؤتمر يُبْلِغُنى أن جلسةَ الصباحِ تأجَّلتْ إلى مابعدَ الظُّهر ، إذْ وصلتْ إشارةٌ لاسِلْكِيَّة تقول إن مندوبَ البلاغةِ الدوليَّة سيحضُر ، وأمرنى باستقبالِه فى المطار ، وإبلاغِ الأعضاءِ هذا الخبرَ .

---

٢٣ يناير

استيقظتُ مبكّراً ، وأبلغتُ مُعْظَمَ الأعضاءِ خَبَر تأجيلِ الجلسة ، وقصدتُ إلى معبدِ أبى الهَوْل للقاءِ « كليوبترة » وإخبارِها بهذا التأجيل ، فما كدتُ أدخل حتى لَقِيَتْنى كُبْرَى الوَصِيفات ، وقالت فى شىءٍ من اللَّهْفَة :

كِدْنا نطلُبُكَ ليلاً بالتليفون ...!

— أجَدَّ أمر ...؟

فدنَتْ منى وهمَسَتْ فى لهجةِ الاهْتمام : إن كليوبترةَ طلبتْ مِرْآة !

— وهل وجدتُم مرآةً لائقةً بمَقَامِها ...؟

— لم أجدْ أمامى إلا مِرْآتى الصغيرةَ ، فقدمتُها لها .

وظهرتْ « كليوبترةُ » حينئذ ، وراعنى أولَ ما راعَنِى منها حُسْنُ تنسيقِ شعرها وتصفيفِه على وَضعٍ جديد ... ورأيتُ أنها أدارَتْ حولَ رأسِها عِصابةً صغيرةً يدلُّ مظهرُها على التواضُع ، ولكنها تعبِّرُ عن ذَوْق حَسَن .

فحيَّيْتُها ، وقلتُ على الأثَر : أترغَبُ مولاتى فى مِرْآة ؟

— كلا ، لقد وجدتُ فى مِرْآةِ الوصيفة غَنَاء ، كانت عَيْنى تَوْجَعُنى ، فأردتُ أن أتبيَّنَ ما بها ، وهل أصابَتْها حَصَاةٌ من حَصَيَاتِ الصحراء ؟ ... طالما آذَتْنِى رمالُ الصحراءِ فى الماضى ...!

وهنا سَمِعْتُ جاجلةَ « زَينِ السيوف باشا » وظهر شَبَحُه المَهيبُ وهو يقعقعُ بِسلاحه ، ووقف أمامَ « كليوبترةَ » وِقْفَتَه العسكريةَ ، وأدَّى لها تحيةً تجلَّتْ فيها رَوْعةُ النِّظام ، وما لبثَ أن انحنى على يَدها مُقبِّلا ، وسَرْعانَ ما قدَّم لها مُحْبَةً

أنيقة من الورد القاني ، وقال : أتسمحُ مولاتي بقبُول هذه الوُرُود ...؟

— إنه لكَرَمُ نفسٍ ونُبْلُ شعور منكَ يا جنرال ...

وأقبلتْ تتفحّصها في إعجاب ، ثم نادَتْ الوَصيفةَ ، وناولَتْها إياها بعد أن أبقَتْ في يدها وردةً منها مُتخيَّرةً ، وقالت للوصيفة :

ضَعي هذه الصحبةَ في حجرتي ، وتعهّديها بالسُّقْيا .

وطفقتْ « كليوبترةُ » تَشَمُّ الزهرةَ وتتأمّلها ، فقال « زَيْن السيوف باشا » أتسمحُ لي مولاتي أن أقترحَ عليها شيئًا ...؟

— اِقترحْ ما شئتَ ...!

— إني لأعرِفُ لهذه الوردةِ مكانًا أليقَ من بقائها في يدِكِ ...

— أين تُريدُ مني أن أضعَها ؟

— أصلحُ مكانٍ لها الجانبُ الأيسرُ من الرأس ...

فتضاحكتْ ، وهي تعبَثُ بالوردةِ في يدِها ، وقالت :

أتُراكَ تدعُوني إلى الزينة والزُّخْرُف ... ؟

— إذا فعلتِ فلا حَرَجَ عليكِ يا سيدتي ، إذْ أنك لم تخْرُجي على النظام الذي رسَمته لكِ الطبيعة ... ألا تذكُرين مناقشةَ أمسِ ...؟

فندّتْ عن « كليوبترةَ » ضِحْكَةٌ لطيفة وقالت :

أنسيتَ أن قانونَ الطبيعةِ هذا لا يَسْرِي علينا نحن سكانَ العالَمِ العُلْويّ ... ؟

— لكننا يامولاتي الآنَ في العالم الدُّنيويّ ...!

فتلاعَبتْ « كليوبترةُ » بوردَتِها وقالت : هذا لا يغيِّرُ شيئًا ... إني أفضّلُ أن أستمتعَ بالوردةِ في يدي ، على أن يستمتعَ بها غيري فوقَ شعري .. !

— رأيُكِ الأعلى ...

وبعدَ لحظةٍ أرسل إلى رأسِها نظرةٍ ، ثم قال : ما أوحى إليَّ بفكرةِ وَضع

الوردةِ فى شعرك إلا ما راعَنى من هذه العِصابةِ الرشيقةِ التى تَزِينُ رأسَكِ .

فقالت وقد غَضَّتْ من بصرِها :

إن الهواءَ يعبَثُ بشعرى فيضايقُنى ، ولهذا اتخذتُ تلكَ العِصابة ...

والتفتت إلىّ « كليوبترةُ » وقالت : متى يبدأُ المؤتمر جلستَه ... ؟

فأخبرتُها بأن الجلسةَ ستُعقَد بعدَ الظهر ، انتظاراً لوصولِ مندوبِ البلاغةِ الدوليَّة ، فقالت : إذن لانبرَحُ مكانَنا حتى يَحينَ المَوعِدُ .

فقال « زينُ السيوف باشا » :

إذا شاءتِ الملكةُ خرجنا نجولُ جولةً صغيرةً للنُّزهةِ والتفرُّج ... !

— أين ؟ !

— لديَّ فكرة ... ألا ترغَبين فى مشاهدةِ مِصرَ فى مظهرِها الشرقىِّ الصميم ... ؟ !

— وأين يكونُ ذلكَ ؟ !

— فى « خانِ الخليلى » الجديدِ ... حَيٌّ أقامَهُ وُلَاةُ الأمور على أنقاضِ الحىِّ التاريخىِّ التليدِ ، وجعلوا منه شِبهَ مُتْحَفٍ لمصرَ الشرقية ، فهنالكِ تجدِينَ مخازنَ بنتِ السُّلطان تحوى شتَّى الملابسِ الشرقيةِ الأصيلةِ على اختلافِ ضروبِها ، وهناكِ قهوةُ السلطانِ قلاوونَ ومطعَمُ المملوكِ الشاردِ يَنعَمُ وُرَّادُها بألوانِ المشارِبِ السائغةِ والمآكلِ الشهيَّة .

— وهل فى مخازنِ بنتِ السلطانِ المُلاءاتُ السُّودُ والعصاباتُ المزركشةُ التى شَهِدْنا النساءَ البلديَّاتِ يلبَسْنَها ؟

— تجدينَ كلَّ شىءٍ من هذا الطِّرازِ : الطُّرَحَ الأُسيوطيَّة ، والأثوابَ المَحَلَّاويَّة ، والأخفافَ المُقْصبةَ ، والخلاخيلَ والأساوِرَ .

— إنه لشىءٍ طريفٌ حقًّا ...

— أترغبين فى الذهاب ؟

— من باب الفضول وعلى سبيل الاستطلاع ...

وأمسكتْ قليلا وهى تُسرِّحُ بصرَها أمامها ، وقالت :

ولكنى أفضِّل أن أقضىَ هذا الصباحَ فى جولةٍ صحْراويةٍ حول أبى الهوْل .

— كما تشائينَ ...

— فلنخرجْ إذن .

وسارا إلى الباب ، وتبعتُ أثرَهما ، وسمعتُها تقول لـ « زين السيوف باشا » :

ماذا سمعتَ عن أنطونيو ؟ ... أخشى أن يكون قد ضايقَكَ ...

— لم يفعلْ شيئاً يستحقُّ الذِّكْر ... لقد أوصلته أمسِ إلى حُجرته فى الفُندُق ، فأقسمَ ألّا يبْرَحها إلا إلى المَطارِ عائداً إلى مستقرِّه ، وطلب منى أن أستدعىَ له العالِمَ الرُّوحانىَّ !

— إنى رائيةٌ لحالِه ... !

— الأفضَلُ نقلُه بالحُسنى إلى العالمِ الآخَر ...

وفيما نحن خارجون ألفيْنا « تيمورلنكَ » مقبلا وفى يده رِزمةُ المُصوَّراتِ وأوراقُ التقريرِ الذى وَضَعه « زين السيوف باشا » وكان خلفه الشاويش « سيد متولى » ، فتبادَلْنا التحية . وقال « زين السيوف باشا » على الفور :

أرجو أن تكونَ قد درستَ التقريرَ وأدلَيْتَ بآرائكَ الصائبةِ فيه ...

فقال « تيمورلنكُ » وهو يمسَحُ شاربَه :

إنى لكبيرُ الإعجابِ بآرائكَ الموفَّقةِ فى خدمة الإنسانية . حقًّا إنكم قد تملَّكْتُم زِمامَ الأمرِ فى القضاءِ على السدود وإبادةِ البعوض ...

وتلفَّتَ حولَه ، ثم قال :

أنتم خارجونَ لحضور جَلسةِ المؤتمر ... أليس كذلك ؟

فأبلغناه نبأ تأجيل جلسته إلى ما بعد الظهر ... وأعلمناه أن « كليوبترة » و « زين السيوف باشا » ماضيان إلى رحاب الصحراء يتنزهان ... فقال موجهاً إليهما الحديث : إني لكما رفيق ...

فقالت « كليوبترة » : يسرنا ذلك ...!

وساروا في خطا هينة ، ومال « زين السيوف باشا » على « تيمورلنك » وقال : ما رأيك في حركة تطويق المستنقعات بالدبابات والقلاع الطائرة ...؟ إنها من ابتداعي ...!

— أهنئك ... حركة جد موفقة ... ألا تستخدمون المنجنيق الآن ...؟

فقال « زين السيوف باشا » : لقد حلت الدبابات محل هذه الآلة الحربية .

فصمت « تيمورلنك » لحظة ، ثم قال : على أية حال يجب اتخاذ هذه الآلات الحربية لخير الإنسانية ، وجعلها خاضعة لهذا الغرض .

والتفتت « كليوبترة » إلي وقالت : إذا حل موعد انصرافك لاستقبال مندوب البلاغة الدولية فلا تبطئ ...

— إذا أذنت مولاتي انصرفت الآن .

— ما بدا لك فافعل ...

فحييت متأهباً للانصراف ، وسمعت « تيمورلنك » وقد أخذ بيد « زين السيوف باشا » يقول :

لي تعليق صغير على حركة الهجوم الخاطف على منطقة السدود ...

— إني شيق إلى سماع رأيك .

— الهجوم الخاطف له محاسنه ، بيد أن له مساوئ كثيرة ...

فقالت « كليوبترة » وقد وقفت هنيهة تتلفت حولها :

انظرا ... إن للصحراء لروعة تتضاءل بجانبها أية روعة ...

وألفيتُ يَدها تتعالى إلى شَعرِها فتعْنَى بوَضع الزَّهرة فى الجانبِ الأيْسَرِ من رأسِها . ثم راحتْ تُسوِّى شعرَها وترتِّبه .

*

طوتْ بِىَ السيارةُ الطريقَ طيًّا إلى المَطار ...

ومكثتُ هناكَ فى المَشْرَبِ حتى حان مَوْعِدُ هبوطِ الطائرةِ ، وما هى إلا أن سمِعْنَا أزيزاً يملأُ الجوَّ ، فخرجت ومعى رجالُ المَطار إلى حيثُ أستقبلُ المندوبَ القادِمَ . وهَبطَتِ الطائرةُ ، وألفيْنَا البابَ يُفتَحُ ، ويظهرُ منه رجلٌ أعجفُ ضئيل مقوَّسُ الظَّهر ، ذُو شاربٍ أشْيبَ مُهدَّل ، يرتدى حُلَّةً سوداءَ ، ويضعُ على رأسِه شِبْهَ قَلَنْسوةٍ على لونِ الحُلَّةِ . وكان يتوكَّأُ على عَصاً أَبنوسِيَّةٍ دقيقةِ الصُّنع يُقيمُ بها أَوَدَهُ . وأظْهرُ شىء فيه عينانِ تلتمِعَانِ كما تلتمعُ عيونُ القِطط ، وكان يكرِّرُ قولَه : حافِظُوا على خِزانةِ الكُتُب ... اعتَنُوا بنَقْلِها ...

فَقَربْتُ منه أُحيِّيه ، وقَدَّمْتُ له نفسى ، وقلتُ :

لقد جئتُ ياسيدى لأكونَ فى شَرَفِ استقبالِكَ وخدمتك ...

فأمسكَ بيدى يهُزُّها فى تَرْحاب ، وقد تطلَّقَ وجهُه المغضَّن بابتسامة ، وقال :

إذنْ لى أن أَكِلَ إليكَ ياولدى الإشرافَ على نَقْلِ خِزانةِ الكُتُب ... لا شىءَ أثمنُ منها عندى ... إنها تَحوِى آلافاً من المجلَّدات قَضَيْتُ زهرةَ حياتى فى جَمْعِها واقتنائِها .

وأخذتُ بيدِه إلى السيَّارة ، فصَعِدَ فيها مُعانيًا بعضَ الجهد ، وما كاد يستقرُّ فى مجلِسه حتى صاح : علىَّ بالوسائدِ ... علىَّ بالوسائد ... !

فلم أدرِ ماذا يَقصِدُ ، وتملَّكَنى شىءٌ من الحيرة ، ولكنى وجدتُ خادِمَ المطارِ يهرولُ محتضناً وسائدَ شتى ، فما بَلغَ السيَّارةَ حتى أخذ يَضعُها حولَ الأستاذ فغدا كالطِّفلِ بين حشايا مَهْدِه . وانبسطَتْ أساريرُه وهمهم : بُورِكَ فيك ياولدى ... !

والتفتَ إليَّ قائلا : أين خِزانةُ الكتب ؟ !

— سأُشرِفُ على نقلِها من فورى ، وسآمُرُهم بإحضارِ سيارةِ نقلٍ كبيرةٍ تُقِلُّ الخزانة كاملةً ...

— بل أريدُ أن أحمِلَها معى فى هذه السيارة ... عليك إحضارَها ...

فتركتُ السيارةَ حيرانَ ، لاأدرى كيف أحْملُ إلى سيارةِ الركوب خِزانةَ كتبٍ تحوى آلافَ المجلَّداتِ ، ولكنى ما كدتُ أخطو لأتبيَّنَ أمرَها حتى ألفيتُ خادمَ المَطارِ الذى جاء بالوسائدِ من قبلُ يحمِلُ فى يديه حقيبتين ، فهُرِعْتُ إليه أسألُه : إن الأستاذَ يطلُبُ خِزانةَ الكتب ... !

فقال : تلكَ هى في يدى ياسيدى .

— قلتُ لكَ خِزانة الكتب ... ألا تَفهَمُ ؟ !

— ليس للأستاذِ خزانةُ كتب غيرَ هذه ... !

فرنَوْتُ إليه متعجِّباً وأنا أرمُقُ الحقيبتَين . ثم سِرْتُ معه إلى السيارة فوضعناها في مُستودَعِها الخلْفِيّ ... وخطا خادمُ المطارِ إلى الأستاذِ ، فقال له :

لقد تمَّ وَضعُ خِزانة الكتب فى مستودَعِ السيارة ...

فربَّتَ كَتِفَه ، وقال له : بُورِكَ فيك ياولدى ...

وصَعِدْتُ في السيارة ، وقلتُ للأستاذِ على الأثَرِ :

أيحوِى الصُّندوقان ياسيدى الأستاذ جميعَ كتبِك التى حدَّثتنى عنها ؟

فقال وهو يبتسِمُ : سترى بعينِكَ ماحوَتْ ... إلى أين تذهبُ بى ؟ !

— إلى قصرِ الورد ... مَثْوَى أعضاءِ المؤتمر .

— أرغَبُ فى مكانٍ أستطيعُ العملَ فيه بهدوء ...

— سنُعِدُّ للأستاذِ مكاناً يضمَنُ له مايهفو إليه من راحةٍ وطمأنينة ...

وأخذت السيارةُ طريقَها إلى قصرِ الورد ، وكان الأستاذُ مضطجعاً بين

وسائدِه يُسْبِلُ جفنيه حيناً كأنه قد أخذتْه سِنَةٌ من النوم ، ولا يلبثُ أن يفتَح عينيه متطلّعاً حوالَيْه فى غيرِ مبالاةٍ مسترسِلاً في حديثٍ فيّاض ... وقد أخبرنى بأنه دار حولَ الأرضِ مرَّات ، وجاب البِقاعَ النائية ، وذلك لحضورِ المؤتمرات ، والمشاركةِ فى الأبحاثِ اللُّغوية ، وقال فى بعضِ حديثِه لى :

إن خزانةَ الكتب كانت رفيقتى أنَّى سِرْتُ وحيثما حللْتُ ...

ولما وصلْنا الى قصر الورد ، وطُفْتُ به الأبهاءَ والحُجَر ، ليختارَ مكاناً يَحُلُّ به لم يَقع اختيارُه إلا على غُرْفةِ البُرْج فى ذِرْوةِ القصر . وكانت فسيحةً طَلْقَةَ الهواء ، فدَخلها مغتبِطاً وهو يُطِلُّ من نوافِذِها حيث تنبسطُ القاهرةُ تحتَ ناظِرَيه ، وقال وهو يرنو أمامَه :

ماأروعَ هذه المآذنَ التى تتسامَقُ نحو السماءِ كأنها تريدُ أن تتخلَّصَ من طِينَة الأرضِ وخطايا البَشر ... ولكننى أراها صامتةً ... !

— تستطيعُ ياسيدى أن تستمعَ الى أذانِها فى الصلواتِ الخمس ... وفى مُكْنَتِك أن تُدِيرَ المِذْياعَ ، فتسمعَ أنشودةَ الأذان واضحة .

*

واستقرَّ السيدُ فى غرفتِه بعد أن هيَّأتُها له وَفْقَ هواه ، وجعل يتفقَّد الغرفة ليتخيَّرَ للحقيبتين مكاناً ملائماً ، ووقع اختيارُه على ركنٍ قريب من مَقعدِه الفسيح ، فنقلتُهما إليه ، وما لبثَ أن فتحَهُما أمامى ، فشهدْتُ عجباً : صُفوفاً من الكتب الصغيرةِ الأحجام ، مرتبةً مُنَسَّقةً ، لجلودِها الزاهيةِ منظرٌ أنيق . انتزَعَ من بينها كتاباً لِيُرِيَنِى إياه ، فراعنى منه ورقه المفهافُ الشّفَّاف ، وخطُّه الدقيقُ الذى لاتتبيَّن حروفُه الا بالمِجْهرِ الخاصِّ . وما لَبِثَ أن أعاد الكتابَ الى مكانِه ، وهو يقول : متى تبدءونَ جلسةَ المؤتمر ؟

— فى الساعةِ الثالثة ...

وتلفَّت الأستاذُ حولَه ، وقال : أين الوسائدُ ؟ علىَّ بها ...

وأمرتُ على الفَوْرِ أن يجيئوا بها من السيارة ، فأخذتُ أبسطُها حولَه وأُرتّبها خلْفَه ، ووجدتُه قد ترامى بينها يستمتعُ بجلْسَةٍ رَخِيَّةٍ هَنِيَّة وأسبلَ جفنيْه قائلًا:

مُرْهُمْ أن يُحْضِرُوا لى قَدَحًا من الشاى وقليلاً من الكَعْك ...

ألا يريدُ الأستاذُ أن يتناولَ غَدَاءَه ...؟

فغمغم قائلًا : لقد تَبلَّغْتُ بشىءٍ فى الطائرة ، وفيه غُنْيَة ... ولكن لا بأسَ بأن تأمُرَهم بأن يُحْضِرُوا لى أيضًا قليلا من شَرَائِحِ اللَّحْمِ البَقَرِيِّ المُثَلَّج ...

— أهذا كلُّ ما تأمُرُ به ياسيدى ...؟

— أجلْ ، شكراً لكَ ...

فهممتُ بالانْصرافِ أُنَفِّذُ طِلْبتَه ، فلاحَقَنى صوتُه يقول :

إذا أمرتَهم بأن يُحْضِرُوا صَدْرَ دَجاجةٍ مَشْوِيًّا فلا بأسَ ... ولا تَنْسَ الجلاتين ... الجلاتينَ المفرومَ المعالَجَ بقليلٍ من التوابلِ ... ولا أرفضُ بعضَ الشَّطَائِرِ المُنَوَّعَة ...

فلفتُّ إليه بَصَرِى ، وقلتُ : أَمْرُكَ ياسيدى ...

— هذا كلُّ شىءٍ ياوَلَدِى ... حَسْبى هذا ...

— والحَلْوَى ؟

— إذا كان لا بُدَّ من الحَلْوَى فقليلٌ من مُرَبَّى التُّوتِ ، وجانِبٌ من فَطَائِرِ الفانيليا ...

— كلُّ هذا سَتَرَاهُ بعدَ قليل ...

وفى مُنْصَرَفى من حُجْرَتِه ، صاح بى يقول : لا تَنْسَ لفائفَ التبغ الهافانى ...

— أمْرُكَ ياسيدى ...!

— أرجو أن تُنَبِّهَنى حين يقْرُبُ موعدُ المؤتمر ، والآنَ يَسَعُكَ أن

تستريحَ . . وإنى لشاكرٌ لكَ أجزلَ الشكرْ ...

*

وفى تمامِ الساعةِ الثالثةِ كان الأعضاءُ كلُّهم في الرَّدْهَةِ الكبرى عن كَثَبٍ من قاعةِ انعقادِ المؤتمرَ . وكان أستاذُ البلاغةِ الدَّوْلِيَّة بينهم يبادِلُهم التَّحايا فى تَرْحاب . وقد ارتدى لَبُوساً ناصعَ البَياض ، ووضع على رأسِه قَلَنْسُوَةً بيضاء كذلك ، ولم ينسَ أن يتوكَّأَ على عصا عاجِيَّةٍ ثمينة .

وانطلق يُفيضُ على المجتمِعينَ حولَه حديثاً عن مؤتمَرِ توحيدِ اللُّغات الذى نركه وقتاً ليشْهَدَ مؤتمَرَ القاهرةِ الحاضِرَ ، ويُشيدُ بذلك المجهودِ الرائعِ الذى بَذَله ذلك المؤتمرُ فى وَضْعِ لغةٍ مقتَبَسَةٍ من جميع اللُّغات ، وبما كان للأُستاذ نَفْسِهِ من أَثرٍ بالغٍ فى هذا الصَّدَد ، وقال وهو يَفرُكُ إحدى يَدَيْه بالأخرى وابتسامةُ الانتصارِ تترقرقُ على وَجْهِه :

تستطيعونَ أن تَطْمَئِنُّوا بأن مشكلةَ اللغةِ الدَّوْلِيَّةِ قد حُلَّتْ ، وأنه لن يكونَ فى المستقبلِ صُعوبة فى التخاطُب بين مختلِفِ الأُمم .

ثم أخذ يسيرُ متوكِّئاً على عصاه فى مِشْيَةٍ تتمثَّلُ فيها الرزانةُ والاعتدادُ بالنفس . ودنا من « كليوبترة » حيث كانتْ واقفةً بجوار « زين السيوف باشا » و « تيمورلنك » ، وقال لها في ابتسامةٍ خفيفةٍ :

إن مولاتى المليكةَ قد كلَّفَتْنى جُهْداً ...

فقالت له « كليوبترة » والعَجبُ آخذٌ منها : كيف ؟ !

— إن عندى لكِ خمسمِائَةِ جزازةٍ كلُّها تعليقاتٌ واقتباساتٌ من متناثِرِ المراجعِ والمصادِرِ المشهورِ منها وغيرِ المشهور ، وقد جَشَّمَتْنى هذه الجُزازاتُ متاعِبَ فوق أن توصَفَ ...

فتطلَّعتْ إليه قائلةً : فى تاريخِ حياتى ؟ !

— بل فى تحقيقِ اسمِكِ « كليوبترة » : طريقةِ كتابتِه وصحّةِ النُّطقِ به ...

فقال « زينُ السيوف باشا » : وإلى أيَّةِ نتيجةٍ وصلتَ فى تحقيقِ الاِسْم ؟ !

— وصلتُ إلى نتائجَ تبعثُ على الدَّهْشة ، وسأعرِضُها على الملكةِ فى الوقتِ المناسِب ... وإن بحْثى لن يكْمُلَ إلا حين أُسجِّلُ فى بعضِ الأقراص الناطقةِ شتَّى النَّبراتِ التى يُلفَظُ بها الاِسْمُ على وجهِه الدقيق ...

فابتسمت « كليوبترةُ » ، وقالت : حقًّا إنه لمجهودٌ شاقّ ... وإنى لشَيِّقةٌ إلى أن أعرِفَ كيف توصَّلتُم إلى أن تنطِقوا اسْمِى نُطقًا صحيحًا ...

فقال « زين السيوف باشا » موجِّهًا كلامَه للأستاذ :

إن وجودَ الملكةِ سيُيَسِّرُ عليكَ مُهِمَّتَكَ ... فإنها ستُدلى إليكَ بالقولِ الفصل فى حقيقةِ النُّطق باسمِها الكريم ...

فابتسمَ الأستاذُ ابتسامةَ إشفاق وترفُّع ، وقال :

لايَهُمُّنى ياسعادةَ الجنرال أن أعرفَ كيف يُنْطَقُ اسمُ كليوبترة ويُكتَبُ ... ولكن يهمُّنى أن أعرف كيف يجبُ أن يُنطَقَ ويُكتبَ على الوجهِ الصحيح . إن الكلمةَ لتظلُّ تائِهةً حيرَى مئاتِ السِّنين تتناقَلُها الألسنةُ خطأً حتى يُهَيِّءَ لها اللهُ من يَرُدُّها إلى مَحَجَّةِ الصَّواب ...

فتطلَّع « تيمورلنكُ » الى وجهِ الأستاذِ ، وقال : حبَّذا أن تقومَ بمثلِ هذا الذى قمتَ به لتعرِفَ كيفَ يُنْطَقُ اسمى نُطْقًا أصيلا ...

— سنعالج هذه المسألة فى فرصةٍ أخرى ...

ثم استدارَ على عَقِبَيه ، وضرب الأرضَ بعصاه بِضْعَ ضرباتٍ ، والتفتَ الى الجمعِ المحيطِ به يقولُ :

ياحضراتِ الأعضاءِ الأجِلَّاء ! ... بعِلْمِ الأصواتِ وأُصولِ اللغاتِ تسنَّى لنا أن نصلَ إلى حقائِقَ باهرة فى ضبطِ الكلمات وتنغيمِ الألفاظ على النحوِ

الصحيح . وستكونُ لى محاضرةٌ فى هذا الشأنِ فى الوقتِ المناسِبِ ...

ورَنَّ الجرَسُ يُؤْذِنُ بانعقادِ الجلسةِ ، فتوافَدَ الأعضاءُ يتهادَوْنَ إلى قاعةِ المؤتمر ... وسمعتُ « كليوبترةَ » تقول للعالِمِ الرُّوحانىِّ وهما فى طريقِهما الى القاعة :

لقد أعلمنى الجنرالُ زين السيوف باشا أن أنطونيو قد سَجَنَ نفسه فى حجرتِهِ لا يَرِيمُها ...

— لقد رأيتُه وتحدثتُ معه ... إن أمرَه غايةٌ فى اليُسْر ... أنطونيو واقعٌ فى أَسْرِ بعضِ الوساوسِ والأوهامِ الهيِّنة ... إن مسألَتَه بين يديكِ ، إذا أردتِ نقلَه إلى العالَمِ الآخَر ...

فقاطعته قائلةً :

بل مسألتُه بين يدَيْك أنتَ ياسيدى الأستاذَ ، فبماذا تُشيرُ ... ؟ !

— إن الحالةَ رُوحانيةٌ صِرفَة من النوع غيرِ المعقَّد ...

— أرى أنه فى حاجةٍ إلى إشرافِكِ وإرشادِكِ ... واجبُكِ الأولُ إصلاح حاله ... إنه فى درجةٍ من ضَعْفِ الشخصيةِ يُرْثَى لها ...

واحتوتِ القاعةُ الأعضاءَ ، واتجه كلٌّ منهم الى مَقْعَدِه . أما مندوبُ البلاغةِ الدولية فقد أفردوا له فى صدرِ المِنصَّةِ مَقْعداً خاصًّا واسعاً - وَفْقَ اختيارِه - على مَقْرَبَةٍ من الرئيسِ ، بعد أن أحاطوه بوَثِيرِ الوسائد .

وبعد لحظة قام الرئيسُ بوجهه العريضِ وبَشرته الوردية ، فحكَّ بخِنْصَرِه جلدةَ رأسِه الأصلعِ بضعَ مراتٍ ، ثم أعلنَ افتتاحَ الجلسةِ ، ثم استوَى على كرسيِّه . وقبل أن يتكلمَ أحدٌ سُمِعَ صوتُ مندوبِ البلاغةِ الدولية وهو مسترخٍ فى جِلْسَتِهِ ، مُطْبَقُ الأجفان ، يقول فى صوتٍ متخاذِلٍ منغَّم :

اِقرءوا علينا البَرنامَج ...

فتقدمتُ قائلا : على هيئةِ المؤتمرِ أن تدوِّنَ المادةَ الأولى من موادِّ

السلام وحظر الحرب ...

فقامَ على الأثَرِ وزير المناطِقِ الجنوبيَّة السَّبْع ، فى جسمه المتكتِّلِ المبعثر ، وصاحَ بلهجةٍ متتابعةٍ متأتِئًا :

المسألةُ هيِّنَة ، ضَعُوا المادةَ على الوجهِ الآتى : « تُمْنع الحربُ بتاتًا » ... !

فقامَ « زَين السُّيوف باشا » وقال :

هذا وَضْعٌ مبتَسَر ، يجب أن يُضافَ إليه بعضُ الشَّرْح والتعليق ...

فتحركَ مندوبُ البلاغةِ الدَّوْليَّة في مقعدِه وصاحَ :

يجبُ أوَّلا تحديدُ معنى كلمةِ « حَرْب » قبلَ صِياغَةِ المادَّةِ المطلوبة ...

فدقَّ وزيرُ المناطِقِ الجنوبيَّةِ بيدِه على المِنْضَدَةِ ، وقال :

الحربُ هى الحرب ، ولا شيءَ غيرُ الحرب !

فنهضَ العالِمُ الرُّوحانِيّ ووقف وِقْفَتَه المَهيبَةَ وشرَعَ يُخلِّلُ لحيتَه بأصابعِ يدِهِ ، وقال : أيها الزملاء الأجلاء : ثمَّةَ نُقطةٌ أصيلةٌ أرى أن نُوَفِّيها حقَّها أوَّلا وهى : هل الإنسانُ مَسُوقٌ إلى الحرب بدافِعٍ غَرِيزيٍّ لا قِبَلَ له به ، أو أن الحربَ حالةٌ عارِضَةٌ لا يَصِلُها شيء بالغرِيزة الإنسانيَّة ... ؟

فقال مندوبُ اتحادِ أوربَّة الشماليةِ وهو يحاوِل تثبيتَ نظَّارَتِه الفَرْدِيَّة على حُقِّ عَيْنِه : لا جدالَ فى أن شهوةَ الحرب لها صلةٌ وثيقة بغريزةِ التسلُّطِ وحبِّ البقاء . وإنها لغريزةٌ جبَّارة قويَّة ...

فقام مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى بقامته القَصِيرة وقال وهو يداعِبُ عُثْنُونَه : إذا كان الأمرُ كذلك فلا حيلةَ لنا فى الحرب . يجبُ الحدُّ من شرورِها ما دمنا غيرَ مستطِيعينَ اقتلاعَ شهوَتِها من النفوس ... علينا أن نبحثَ عما يجبُ القيامُ به للتخفيف من وَيْلاتِها ...

فقال الرئيسُ وقد احتقنَ وجْهُه قليلاً :

ولكنَّ هذا يخالِفُ المبدأ الذى أتينا من أجلِه وعَقَدْنَا له هذا المؤتمر . إن واجبَنَا الأولَ هو محْوُ الحروب من ظَهرِ الأرض ...

فقال مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى : إذَن علينا أن نُغَيِّرَ من طبيعةِ الإنسانِ . علينا أن نستبْدِلَ بغرائِزِه القديمةِ غرائزَ جديدةً صالحةً لعهدِ السَّلامِ الدائمِ الذى نَنْشُدُه ، فهل فى مُسْتَطَاعِنا استبدالُ الغرائزِ .. ؟!

فقال « تيمورلنك » : يبدو لى أنه لِزَامٌ علينا أن نستشيرَ بعضَ العلماء العَصْرِيينَ المختَصِّين فى علوم النفس والتشريح والغُدَدِ وما شابَهَ ذلك ..

فقال وزيرُ المناطِقِ الجنوبية : أَقْتَرِحُ إحالةَ هذه النُّقْطَةِ إلى لجنةٍ دَوْلِيَّةٍ من فُحُولِ العلماء ...

فقال مندوبُ اتحادِ أوربَةَ الشماليةِ : اقتراحُ إحالةِ هذه النقطةِ إلى لجنةٍ دَوْليَّةٍ يبدو فى الظاهِرِ اقتراحاً مُجْدِياً . ولكن علَّمَتْنَا التجاربُ أيُّها الإخوانُ أنَّ اللجانَ ما هى فى الواقعِ إلا أكبرُ مَقْبَرَةٍ للمشروعات ..

فقال وزيرُ المناطِقِ الجنوبيةِ وهو يتلعثمُ فى لهجةٍ يبدو منها بعضُ مظاهِرِ الاسْتِياء : إذن عليك أيُّها الزميلُ المحتَرَم أن تُقدِّمَ اقتراحاً آخرَ يحلُّ لنا المُشْكلة ..

فقال مندوبُ اتحادِ أوربَّةَ الشماليةِ : أرغَبُ أن أصحِّحَ أولاً ما قد تبادَرَ لذهنِ الزميلِ المحتَرَمِ وزيرِ المناطِقِ الجنوبيةِ من أنى أَنْتَقِصُ من قِيمَةِ اقتراحِه ...

فنهض وزيرُ المناطِقِ الجنوبيةِ وقد احْمَرَّتْ عيناه ، وقال : لم يتبادَرْ إلى ذِهْنى شىءٌ من ذلك أَلْبَتَّةَ ... وأُرِيدُ إثباتَ ذلك فى محْضَرِ الجَلْسة ...

فقال الرئيس وقد انهالَ على جلدةِ رأسِه الأصلَعِ يحكُّها بخنْصَرِه : حسناً ... ليستْ ثمةَ مشكلةٌ عويصةُ الحَلِّ ... أرى أن نأخذ برأىِ الزميلِ المحترَم « تيمورلنك » فى استشارةِ جماعةٍ من العلماءِ المختَصِّين بالغرائز ... هذا هو لبُّ المسألة ...

فنهضَ « زين السيوف باشا » وقد بَسَطَ قامتَه وأبرز صدرَه ، وقال :

رأيي الضعيفُ فى هـذا الموضوعِ أنَّ استبدالَ غرائزَ بهذه الغرائز أمرٌ من المحالِ تحقيقُه .

فقالت « كليوبترة » فى نَغْمَةٍ هادئة ، وهى تَعْبَثُ بوردةٍ فى يدها وتَشَمُّها بين حِين وحين :

يقولون إن العـلمَ الحديثَ ياجنرال يأتى لكم كلَّ يومٍ بمُعْجِزةٍ تُحيِّرُ العقول ... قد يستطيعُ أن يفعلَ شيئاً ...

فقال مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشمالية :

إذا استطاع العلمُ أن يتحكَّمَ فى الغرائز ويجعلَها طَوْعَ إرادتِه . ترقَّبْنا تطوُّراً هائلا فى النفسِ البشرية والنُّظُم الاجتماعية ...

فقال مندوبُ البـلاغةِ الدولية وقد بدأ يَتَململُ بين حشاياه :

لتسمحوا لى أن أقولَ بأننا بَعُدْنا عن الموضوعِ . يجبُ قبل كلِّ شىءٍ الفحصُ عن كلمةِ « حرْب » من الناحية اللُّغوية . فإذا فعلنا ذلك استبانَ لكم كثيرٌ من النقطِ المُستغلِقَة عليكم الآن . وتمَّ لكم معالجتُها على أهونِ سبيل ...

فقال « زين السيوف باشا » غيرَ معْنِيٍّ بهذا القول :

إننا نتكلمُ ياحضراتِ الزُّصَفاءِ الأجلَّاءِ عن تحويلِ الغرائزِ أو استبدالِها وخاصةً غريزةَ الحرب التى هى كما تعلمونَ غريزةُ حِفظِ النوع وبقاءِ الأصلَح . ألا تعلمونَ أيها السادةُ أىَّ خَطرٍ عظيم يُهَدِّدُ البشريةَ إذا استطاعَ العلمُ يوماً من الأيام أن يسيطِرَ على فِعلِ الغرائز ؟ ... إن هذا نذيرُ الفناء ... !

فقال « تيمورلنكُ » وهو يُصلِحُ طُرْطورَه ويبتسم :

يبدو لى أن الزميلَ المحترمَ يرغَبُ فى إبقاءِ الحرب عاملًا من عواملِ حِفظِ النوْعِ وبقاءِ الأصلح ...

فعلا « زين السيوف باشا » بهامتِه وقال في صوت جَهْوَرِيّ :

الحرب يجبُ أن تَبقَى ولكن فى دائرةٍ محدودة . إنها لَأَكبرُ مُتَنَفَّسٍ للإنسانِ فى مُحيطِه الراهِن . حيث بدأَتْ شتّى الأنظمةِ المصنوعةِ والقوانينِ الموضوعةِ تُكَبِّلُه بسلاسلَ من حديد ...

فسَرَتْ همهمةٌ بين الأعضاءِ واشتد اللَّغَطُ ... وواصل « زين السيوف باشا » كلامَه بصوتِه العالى العريض : الحربُ ليستْ شرًّا محْضاً ، بل إن فيها كثيراً من الخير ، إنها أكبرُ عمليةٍ من عمليات التطهير تقومُ بها الطبيعةُ لخير البَشر . فيها غربَلةٌ وتصفيةٌ على نحوٍ رائعٍ جميل . هى تجربةٌ اجتماعية عظيمةٌ يُمتَحنُ فيها الإنسانُ امتحاناً عسيراً ، فإذا خرج منها سالماً فقد أفادَ فوائدَ لا يمكِنُ أن يُحقِّقَها من أيةِ تجربةٍ أخرى . إنها مِحنة ... ولكنها محنةٌ تزْكُو فيها النفس ، وتزدادُ قوةً ونشاطا ، ومَضاءَ عزيمة ، واحتمالا للصِّعاب ، ومجابهةً لأشدِّ أخطارِ الحياة . إنها الأَتُّونُ الضخمُ الكبيرُ الذى تَنْصَهِرُ فيه النفسُ البشريةُ ومبادئُها ونُظُمُها ونَتاجُها ، لتَخْرُجَ نفساً جديدةً بمبادئَ أحسنَ ونُظُمٍ أقوى ونَتاجٍ أكملَ وأجدَى ...

فقال الرئيسُ ، وقد اندفعَ يَحُكُّ جلدةَ رأسِه بخِنْصَرِه في انفعال شديد : تستطيعُ الإنسانيةُ أن تحظَى بكلِّ هذه الفضائلِ المزعومةِ بطُرقٍ سِلْمِيَّةٍ أخرى دون أن تَفقِدَ قَطرةَ دمٍ واحدةً ، ودون أن تعتورَها الويلاتُ وتُصَبَّ عليها الآلام ...

فصاح « زين السيوف باشا » وقد بسَط ذراعَيْه :

وأين عنْصُرُ الفِداءِ ياسيدى ؟ يجب أن نُعْطِيَ لنستطيعَ أن نأخذَ . يجب أن نبذُلَ لنستطيعَ أن ننالَ الثمرةَ الشهيَّةَ ... أما نيلُ الشيءِ دون بَذْلٍ فذلك لَغْوٌ باطلٌ لا خيرَ فيه ...

فعلَتْ همهمةٌ صاخبةٌ فيها معارضة وفيها تحبيذ ، فجعل الرئيسُ يدُقُّ المائدةَ بيده ليحافظَ على النظام ...

وهنا دخل « عبدُ العال » متسلِّلا ، فناوَلنى بطاقةَ شخصٍ يريدُ أن يواجه هيئةَ المؤتمرِ فى شأنٍ خطير ، فأعلَمْتُ الرئيسَ بالخبر ، فنظر إلى البطاقةِ هُنَيْهة ، ثم قال : فليدخل ...

ووجَّه قوله إلى الأعضاءِ فى صيحةٍ مُدَوِّية :

صمتاً أيها الزُّملاء الأفاضل . حضرَ زائرٌ كريمٌ يطلبُ الدخولَ ليعرِضَ عليكم أمراً خطيراً .

فهدأ اللَّغَطُ ، وتطلَّعَ الحاضرونَ إلى الباب ...

وبعد لحظةٍ فُتحَ بابُ القاعةِ على مِصراعيه ، وظهر عِملاقٌ ضخمٌ يرتدى المِعطفَ الرُّوسيَّ السابغَ ذا النِّطاقِ ، ويتحلَّى وجهُه بلِحيةٍ كَثَّة ، وعلى رأسِه القَلَبق الأسودُ ، وما إن اجتازَ البابَ حتى وقف وِقفةً عسكريَّة ، وأدَّى التحيةَ الرسميةَ لأعضاءِ المؤتمرِ فى شىءٍ من الجَلَبَةِ ، وسمعنا الرئيسَ يقول :

أُقدِّمُ لحضراتِكم زميلَنا مندوبَ جمعيةِ الرغيفِ الأسودِ الدولية ...

فحيَّاه الأعضاء مرحِّبينَ بتَقْدَمِه . وأشار إليه الرئيسُ أن يأخُذَ مكانَه بين الأعضاء . فجلس جِلسةً عليها مَسْحةُ الصَّلابة ، مُتعالِىَ الصدر ، مرفوعَ الهامة ، باسطاً مَنْكِبَيْه ، وتكلم الرئيسُ قائلا : إن جمعيةَ الرغيفِ الأسودِ - كما هو معلوم أيها الزُّملاء الأجلَّاء - قد أدَّتْ للإنسانية خِدمةً جُلَّى ، إذْ وُفِّقَتْ إلى حلِّ أزمةِ الجوعِ فى رُبُوعِ العالَمِ البشَرىِّ ، بما عرَضَتْه على الهيئاتِ الدوليةِ من مُقتَرَحاتٍ عملية جليلةِ الأثر ميسورةِ التنفيذ ، لو أُخِذَ بها لما بَقِىَ على ظهرِ الأرض من جائع ... !

والتفت إلى مندوبِ جمعية الرَّغيف الأسود ، وقال :

هل نستطيعُ أن نقدمَ للسيِّدِ أيةَ خِدْمةٍ يشاء ... ؟

فنهضَ المندوبُ بقامتِه العريضةِ الضخمة ، وقال : قَدِمْتُ أيها السادةُ لأدْعُوَ أعضاءَ المؤتمر لحضورِ الحفلة الخيريةِ الكبرى لِسِباقِ الخيل التى تُقيمُها جمعيتُنا مَساءَ اليومِ على ضوءِ المشاعِلِ فى نادى المصباح الأخضر .

فوقفَ مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشمالية ، بقامتِهِ النحيفة الفارعة ، وجعل يمسحُ نَظَّارتَه الفرديَّة ، وبعد أن تنحنحَ طويلا ، قال : يؤسِفُنى أن أقولَ أيها السادةُ الأجلَّاء إن المؤتمرَ بعيدٌ كلَّ البُعْدِ عن مِثْلِ هذه الحفلات التى يرادُ بها التسليةُ وتَزْجِيَةُ أوقاتِ الفَراغ . ولا ريبَ أن المندوبَ المحترم لجمعيةِ الرغيفِ الأسود يُشْكَرُ على دعوتِه ، ولكنَّ مَهامَّنا الجِسامَ تَعُوقُنا عن إنفاق الوقتِ فى مَيْدانِ سِباق ...

فقال مندوبُ جمعيةِ الرغيفِ الأسودِ :

سيكون بَرنامَجُ الحفلةِ عظيماً ... تصوَّروا ياسادةُ أن ثلاثةَ آلافِ مِشْعَلٍ ستضِىء فى المكان . وستخرجُ الجيادُ يسابِقُ بعضُها بعضاً فى ذلك الضوءِ الرائعِ ، ولا تنسَوْا أنه سيكونُ هناكَ خمسُمِائَةِ عازفِ موسيقَى ، وألوانٌ شتَّى من الرَّقْصِ عند مختلفِ الأمم ، وألحانٌ تمثِّلُ ضروبَ الأغانى الدولية ، وعَشاءٌ فاخِرٌ ، وبوكر وبكاراه ، وحلَقاتُ سَمَر ، وعَرْضٌ جميل لجمعياتِ الكشافةِ فى جميعِ الدُّوَل . كلُّ ذلك أقمناه فى سبيلِ غَرَضٍ واحد ، هو مساعدةُ جمعية الرغيفِ الأسود على تحقيقِ غاياتِها التى لا أَجِدُنى بحاجةٍ إلى أن أزيدَكم عِلْماً بها . إنى أتركُ لكم حُرِّيَّةَ الرأى ...

ثم لم يلبثْ أن هَبَّ واقفاً ، وأدَّى تحيةَ وَداعٍ رسميةً مُجَلْجِلة ، ومضى فى طريقِه إلى الباب ...

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ وهو يمشِّط بأصابعِه لحيتَه الشَّهباءَ : ليس لى أىُّ

اعتراض على مؤازرةِ هذه الجمعيةِ فى مُهمَّتِها النبيلةِ . ولكنَّ المعضلةَ هى أنه هل يجوزُ لهيئةِ المؤتمرِ أن ترتادَ مثلَ هذه الحفلاتِ ؟

فقال مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى ، وهو يَطْرِفُ بعينيْه الضَّيِّقتيْن ، ويعبثُ بعُثْنونِه الصغير : إذا تخلَّفتْ هيئةُ المؤتمرِ عن شهودِ هذه الحفلةِ فقد يُؤَوَّلُ ذلك بقَصْدِ الزِّرايةِ والإِصْغار لتلك الجمعيةِ الموَقَّرة ...

فقال وزيرُ المناطِقِ الجنوبية السبعِ ، وهو يَلُمُّ شَعَثَه : يحْتمِلُ الأمْرُ أن يَسْبِقَ ذلك إلى بَعْضِ الأفْهام ، ولذلك يَجِبُ التَّروِّى فى الأمرِ ...

فقال العالِمُ الرُّوحانِىُّ : علينا أوَّلاً أن نستأنفَ النَّظَرَ فى المادَّةِ الأولى ، لنَفْرُغَ من إقرارِها .

فقال مندوبُ البلاغةِ الدولية ، وهو على حاله مُغْمِضُ الجفنَيْن ، خافضُ الصوت ، منغِّمُ النَّبَرات :

يجبُ حَصْرُ الكلامِ فى موضوعٍ واحد ، فإن التَّشَعُّبَ يُشَتِّتُ الفكر . لم نَنْتَهِ بعدُ من كلمةِ « حرب » ما مدلولُها ؟

وتعالَى بصدرِه وقد فتح أجفانَه ، وصاح : عَلَىَّ بخِزانةِ الكُتُب ...

فأشرتُ إلى « عبد العال » أن يُحضِرَها .

ثم قال « زينُ السُّيُوف باشا » : يبدو لى أننا تكلَّمْنا اليومَ بما فِيه الكِفايةُ عن كلمةِ « حرب »... فلنُرجِئْ استكمالَ الموضوعِ إلى فرصةٍ أخرى . بيْدَ أنى أَلفِتُ نَظَرَ الأعضاء إلى أننا لم نَبْدَأْ بعدُ مناقشةَ « تقريرى » تَوْطِئَةً لاعتماده ... إن زميلَنا الموقَّرَ « تيمورلنكَ » يريدُ التعليقَ على التقرير ، والموضوعُ — كما تعلمونَ — كيف أَبَدْنا بعوضَ الملاريا وتغلَّبْنا على السُّدود ... ؟

وقام « تيمورلنكُ » وهو يَمْسَحُ شاربَه المهدَّلَ على رُكْنَىْ فمِه ، وقال : هناك بعضُ نُقطٍ يجب إيضاحُها فيما يتعلَّقُ بالحرب الخاطفةِ فى تقرير الزميلِ

المحترم « زينِ السيوف باشا » ...

وسمعنا وزيرَ المناطقِ الجنوبيةِ يقول :

إذا حضرنا حفلةَ الرغيفِ الأسودِ، فما هي مَراسِمُ الملابِس ؟!

واشْتدَّ صِياحُ مندوبِ البلاغةِ ، وهو يقولُ : أين خِزانَةُ الكُتب ...؟

فقال العالِمُ الرُّوحانيّ : أرى منعاً للنِّزاعِ واختصاراً للوَقْتِ أن تُصاغَ المادةُ الأولى للسَّلامِ على النحوِ الآتى ... أُكْتُبْ يا حضرةَ السكرتير ...

وقال وزيرُ المناطِقِ الجنوبيةِ مقاطعاً : هل يكونُ حضورُ تلك الحفلةِ بالأوْسِمَة ؟

فقالت « كليوبترة » مُجيبةً : أفَضّلُ أن يكونَ الحضورُ دون أيِّ مَظْهرٍ من مظاهرِ الزِّينَة ، إنه غَرَضٌ خَيْرِىٌّ ...

وهمس « زين السيوف باشا » : عَفْواً مولاتى ، إن المراسِمِ حُرْمَتَها !

وقال مندوبُ البلاغة : قلتُ لكم ياحضراتِ الأعضاء الموقَّرين ، يجبُ أولا تركيزُ المناقشةِ وحَصْرُها فى نقطةٍ صغيرة ، أنتم تناقِشُون في موضوعِ الملابس ، إذن فلنبحثْ مادةَ : لَبِسَ ...

وأخذ يصفِّقُ ويقولُ : أين خِزانَةُ الكُتب ...؟ هاتوا الخِزانة ...

وقامت على الأَثَرِ مناقشةٌ مختلِطَة بين الأعضاء لم أستطِعْ أن أتبيَّنَ مذاهبَها واتجاهاتِها ، وغامَ الجَوُّ ، وتحمَّس بعضُ الأعضاء . وكان صوتُ مندوبِ البلاغةِ بين لحظةٍ ولحظةٍ يرتَفِعُ بقوله : أينَ الخِزانة ؟ أَحْضِروا الخِزانة !

ثم رأيتُه يسترخِى على كُرْسِيِّه بين حشاياه ، وقد نال منه الإعياءُ كلَّ مَنال ، وما زال يغمغم ويضربُ إحدى يديهِ بالأخرى طالِباً الخِزانةَ ...

وفيما كان الهَرْجُ والمَرْجُ بالِغَيْنِ أقصى درجةٍ ، أشار إليَّ رئيسُ المؤتمر ، فدنوتُ منه ، فهمسَ فى أذنى أن أُعْلِنَ انفضاضَ الجلسة ، وأنها تُستأنَفُ فى الساعةِ الحاديةَ عشرةَ من صباحِ غَدٍ ... وعند ماغادر الأعضاء القاعةَ لمحتُ

« عبدَ العال » الحاجبَ واقفاً بجوارِ الباب مستغرقاً فى ضَحِكٍ متواصلٍ ، فقلتُ له :

ماذا يُضحِكُكَ أيها الأبله ؟

— لاشىءَ ياسيدى ... إننى أضحَكُ من نفسى ...

— حسناً تفعَلُ ... !

فدنا منّى وهمس فى أُذُنِى قائلا : إن الجلسةَ كانت هادئةً بالغةَ الهدوء ، وليس هذا بالكثيرِ على أعضاءِ مؤتمرِ السلام !

— إن المؤتمراتِ لاتخلو من مثلِ ماوَقَعَ أيها الغبىُّ !

— إنى أحمَدُ اللهَ على هذه الغباوة ...

وعاد مسترسلاً فى ضَحِكِه ، فتركتُه منصرفاً لشأنى .

*

كانت الساعةُ الثامنةَ مَساء حينما أنقذتُ طلبَ « زين السيوف باشا » إعدادَ السيارةِ على بابِ المعبَد وبعد قليلٍ خرجتْ « كليوبترةُ » يتبعُها « زينُ السيوف باشا » وبجانبِه « تيمورلنكُ » .

أما « كليوبترةُ » فكانت فى ثوبٍ من أثوابِها الساذَجة ، ولكنه كان أظهرَ أناقةً من غيرِه ، وقد لاحظتُ أنها عُنِيَتْ أكثرَ من ذى قبلُ بتصفيفِ شعرِها وتَطْرِيَتِه بالعِطْر ، ورَشَقَتْ فى رأسِها وردةً أنضرَ من وردة الصبَاح . وأما « زينُ السيوف باشا » فكان فى حُلَّةٍ رسميةٍ بهيّة ، تتزاحمُ على صدره ألوانُ الأوسمةِ . وكان كلُّ شىءٍ فيه يبرُقُ ويلتمِع . وأما « تيمورلنك » فلم يتَّخِذْ مَلبَساً غيرَ مَلبَسِه المعهود .

صَعِدْتُ معهم فى السيارة ، ووِجْهَتُنا مَيْدانُ السِّباق حيث احتفالُ جمعيةِ الرغيف الأسودِ الدولية ، وكان « عبدُ العال » فى مكانِه بجوارِ السائق ، وعلى وجهه سِيماءُ الضَّجَر ، إذْ عَلِمَ أننا سنَقضى هَزيعاً من الليل فى هذا المكان

الصاخب ، وفى بعض الطريق تكلمتْ « كليوبترة » قائلةً :

كنتُ أفضِّلُ الراحةَ فى المعبَدِ هذا المَساءَ !

فقال « زينُ السيوف باشا » :

قضاءُ رُبعِ ساعةٍ ليس بالجُهدِ المُرْهِقِ ... ثِقى أن حضورَ الملكةِ مثلَ هذه الحفلةِ يُعَدُّ رمزاً كبيراً لمعنى سامٍ سيقابَلُ بالتقديرِ العظيم .

فغمغم « تيمورلنكُ » قائلا : على كلِّ حال لن أمكثَ أكثرَ من ربع ساعة ... إن لدىَّ حفلةً أهمَّ من هـذه سأقيمُها في مسجدِ السلطانِ حسن يُحْيِيها نُخبةٌ من القُرَّاء ، أُريدُ أن أستمعَ إلى ترتيلِهم المُبْدَعِ ... إن الشاويشَ « سيد متولى » سبقَنى ليُعِدَّ لهذه الحفلةِ عُدَّتَها ...

فقال « زينُ السيوف باشا » : نِعْمَ ما صنعْتَ ... !

ثم اثنَى يقولُ بعد هنيهة : كنتُ شَيِّقاً إلى سماعِ رأيكَ فى الحربِ الخاطفةِ أثناءَ جلسةِ اليوم ... ولـكنَّ النِّقاشَ لم يَدَعْ لكَ مجالاً ...

— رأيى أيها الجنرالُ المحترمُ يتلخَّصُ فى كلمة قصيرة : إن فى فكرةِ هذه الحربِ ماينافى الرُّوحَ الإنسانىَّ ...

— كيف ... ؟ !

— المباغتةُ والخُفْيَةُ أساسٌ لهذه الحرب . وبمعنى آخرَ إنك تصطنعُ أسلوباً غيرَ صريحٍ فى مقاتَلةِ عدوِّك ...

— الحربُ خُدعة ... !

— وأين الشجاعةُ إذن ؟ ... إن الغَلَبةَ على أساس المباغتةِ والمخاتلةِ ليس فيها مايَدُلُّ على قدرةٍ وسَطوة ...

وانطلق الرجلان يُناقِشان ، و « كليوبترةُ » تُصغِى إليهما .

وسمعتُ « تيمورلنكَ » فى النهايةِ يقولُ :

لاتنس ياجنرالُ أننا نريدُ على كلِّ حالٍ أن تكونَ الحربُ في أيِّ مظهرٍ من مظاهرِها حاملةً طابَعَ الإنسانيةِ والرِّفْقِ ، أي أنها تَسْمو وَتنبُلُ ...

وكنا قد أشرَفْنَا على مَيْدان السِّبَاق ، فرأينا الأنوارَ تتلألأُ ، والحشْدَ يتماوَجُ . ولما نزلنا من السيارة قُوبِلْنا بالتَّرْحابِ من كلِّ ناحية ، والناسُ يتطلَّعون إلينا ويتدانَوْنَ منا متزاحِمينَ بالمناكِبِ ... وسرنا بين صَفَّيْنِ من رجال الموسيقى التى انطلقَتْ تَصْدَحُ بنغمٍ حَماسيٍّ مُثير . ولاحظتُ على « تيمورلنك » أنه يُنَقِّلُ خُطاهُ على وَقْعِ الموسيقى ورَنَّةِ الطُّبُولِ ، وأخذتْ عيناه تلتمعان وهو يُحَيِّي الجماهيرَ . أما « كليوبترةُ » فكانت مورَّدَةَ الوجنَتَيْنِ تسيرُ فى أُبَّهَةِ المُلْكِ . وكان « زَيْنُ السيوف باشا » يتقدمُ الجمعَ ليَفْسَحَ الطريقَ وهو يُصايحُ ، وبيده مِخْصَرَةٌ يُلَوِّحُ بها ... وظهر لنا عند المَدْخَلِ الذى كان مُزَيَّناً بالزهور والرياحينِ وأفنانِ الشَّجَرِ - شَبَحٌ هائل هو مندوبُ جمعيةِ الرغيفِ الأسود ، وكان يرتدى ثياباً غايةً فى النفاسَةِ من الحريرِ الأبيضِ المُطَرَّزِ بالشرائطِ السُّودِ . وحيَّا الضيوفَ تحيةَ احترامٍ بالغةً ، وصاح بكلماتٍ لم نَتَفَهَّمْ لها معنًى ، وتقدَّمَنا يُوسِعُ الطريقَ حتى أبلَغَنا المقصورةَ الخاصةَ بالمَلِكة . وكانت في الصفِّ الأوَّل من مقاصيرِ المَلْعب تمتازُ بفخامَةِ أثاثِها وزُخْرُفِها ، وهى فى مُدَرَّجٍ كبير يَفْصِلُه عن المَلعب طريقٌ للمرور . وألفينا المُدَرَّجَ غاصاً بالناس . وسَرَتْ همهمةٌ حينما أقبلتْ « كليوبترةُ » وتبوأتْ كُرْسِيَّها ، والتفتَتْ هى ومن معها هنا وهنالك ، فوجدُوا فى المقصورةِ المجاورةِ بقيةَ أعضاءِ المؤتمرِ على رأسِهم الرئيسُ بِحُلَّتِهِ الزرقاءِ ، وعلى صدرِهِ وِشاحٌ عَرِيضٌ ذو لونَيْنِ أحمرَ وأخضرَ ينتهى بِهُدَّابٍ من القَصَبِ زاهٍ . وأما بقيةُ الأعضاءِ فكانوا فى لَبُوسِهِم الرسميِّ الأنيقِ ، فتبادَلوا التحايا والابتسامَ . وألفيتُ مندوبَ البلاغة الدَّوليةِ قد توسَّطَ المقصورةَ في مقعدٍ فسيحٍ تَحُفُّ به الحشايا وهو غارقٌ بين أعطافِها ، وقد أطبقَ نصفَ أجفانِه ، وكان يلبَسُ رِداءً بَنَفْسَجِياً

رائعاً وقلنسوةً على مثلِ لونِ الرداء ، وبجوارِه قدحٌ من شرابٍ مثلوج يرتشِفُ منه الفينةَ بعد الفينةِ ، وكان يتضوَّعُ من جانبِه عِطرٌ فوّاح . وأكبرُ من لَفَتَ نظرى إليه من سائرِ الأعضاء وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْع إذْ كان متألقاً فى لَبُوسِه الحالِك ، وصدرُه مُزَيَّنٌ بالأشرطةِ الملوَّنة والأوسمةِ البرَّاقة .

وما كاد يستقرُّ بنا المُقامُ فى المقصورةِ حتى ألفيْنا العالِمَ الرُّوحانِىَّ يدنو من مكاننا ، ويدخلُ محيِّياً الملكة جالساً بجوارِها .

وكانت الموسيقى لا ينقطِعُ لها عزْف ، والجموعُ تحتشِدُ كلما امتدَّ الوقت ، حتى أحسَسْنا باحتباسِ الجوِّ على الرَّغْمِ من انكشاف المكان تحت قُبَّةِ السماء . وكانت السيداتُ يتهادَيْنَ فى طريق المارَّةِ أسراباً وهنَّ فى زينتِهِنَّ البالغةِ وأزيائِهِنَّ المختلفةِ الطريفةِ التى تَخْلُبُ الأنظارَ ... فكنتَ ترى سيدةً تلبَسُ الملابسَ الروسيةَ ذاتَ السِّرْوَالِ الفضفاضِ والقلبقِ العريضِ تُميلُه على فودِها فى رشاقةٍ وأناقة . وكنتَ ترى فتاةً ترتدى الملابسَ البدويَّةَ مُثقلَةً بحُلِيِّها الشرقيةِ مجرجرةً أذيالها . وغيرَ هاتيْنِ سيدةً ترتدى الزىَّ المنسوبَ إلى لويسَ الخامسَ عشَرَ مغرياً بجمالِه وفتنتِه وانتفاشِه ... فكان ثمةَ معرِضٌ بارع الملابِسِ الشرقيةِ والغربيَّةِ على اختلافِ أنواعها . وأظهرُ ما راعَ النَّظَّارَةَ تصفيفُ الشعورِ على أنحاءٍ متباينةٍ تبهرُ العيونَ . وكانت هذه الأسرابُ وهى تتنقَّل تلقَى من النَّظَّارَةِ كلَّ إعجاب ، فيصفِّقون لها ويتصايحُون ، فيقابِلْنَ هذا التصفيقَ والتصايحَ بضحكاتٍ فاتنة وابتسامات جذَّابة . وكان العِطْرُ الذى ينْفَحُ منهُنَّ يَشِيعُ من حولِنا ، فكأننا حللْنا روضةً يتضوَّعُ شذاها . ولاحظتُ أن « كليوبترة » قد اشتدَّ اهتمامُها بالنظر إلى السيدات وهنَّ يخطِرْنَ فى حُلَلِهِنَّ وحُلِيِّهِنَّ يتراشَقْنَ بالأحاديث والضَّحِكاتِ ، ويَسْبِينَ العيونَ بتأوُّدِ خصورِهِنَّ ولَمْحِ لِحَاظِهِنَّ ، وكنتُ أرى يدَ « كليوبترة » تتحرَّكُ إلى شَعَرِها تتحسَّسُه ، ثم تتفقَّدُ الوردةَ لتطمئِنَّ إلى مستقرِّها من الرأس .

ورأيتُ عينَ « زين السيوف باشا » تنتهبُ أسرابَ الغيدِ . ولكنه كان يحاولُ أن يُخفيَ ذلك عن « كليوبترة » ، بيْدَ أنها لم تَغفُلْ عن حالِه ، وألفيتُها تُمسكُ بمنديلٍ تُروِّحُ وجهَها فى شىءٍ من التململ ، ثم غمغمتْ قائلةً :

متى يبدءون السِّباق ؟ ... إن الحرَّ لا يُطاق ...

فابتسمَ العالِمُ الرُّوحانىُّ وهو يقول :

عند ماتنتهى السيداتُ من عَرْضِ أنفسِهنَّ ... !

فهمهم « زينُ السيوف باشا » يقول :

إنها لمظاهرُ كاذبة ... إنها لمظاهرُ كاذبة ... !

وكان النُّدُلُ أثناءَ ذلك يمرُّون فى المُدرَّج بين وقت ووقتٍ حاملين الصَّوانى عليها أصنافُ الشرابِ وأشتاتُ الشَّطائرِ والفطائر . ورأيت النَّضَدَ الذى أمامَ مندبِ البلاغة الدَّوليَّة قد احتلَّه كثيرٌ من هذه المآكلِ ... ووجدتُه يُعنِّفُ غلاماً ، ويقولُ له :

أين شطائرُ البطارخِ الروسىّ وشرابُ الفودكا رقْم ٧٧٧ ؟ لشدَّ ما طلبْتُهما منك !

ومال « زينُ السيوف باشا » على « كليوبترةَ » يقول لها :

ماذا تُؤْثِرينَ من شرابٍ يامولاتى ؟

فقالت فى غيرِ اكتراث : أيَّ شرابٍ مثلوج ... إن الحرَّ شديد ...

فقال لها : ولا بأسَ بشىءٍ من الشطائر ...

— لا ... حسبى الشرابُ المثلوج .

وأمرَ بكوبٍ من عصيرِ الليمون ، فقدَّمه لها ، فاحتسَته . وتناولْنا جميعاً أشتاتاً من الأشْرِبة . وكان « تيمورلنكُ » أثناءَ ذلك شاردَ الفكر ذاهلَ اللُّبِّ مرهف المِزاج ، يجتهد فى لمِّ شعَثِه وهو يُطوِّفُ ببصره فيما حولَه .

وفيما نحن على هذه الحالِ إذ دقَّ جرسٌ عالى الرَّنينِ ، وانطفأت الأنوارُ على الأثر ،

ثم انصبَّ على مَنَصَّةٍ عاليةٍ فى المَلعَب شُعاعٌ قوىٌّ من النور ، فرأينا فوق المَنَصَّةِ مندوبَ جمعيةِ الرغيف الأسود ، يُعلِنُ أمامَ مضخِّمِ الصَّوت بَدْءَ الحفلة بكلماتٍ مختلطةٍ فيها أشتاتُ لُغات . وكان « عبدُ العال » بجواره ، فلما فرغ المندوبُ من كلمتِه وجدتُ « عبدَ العال » يتبعُه حاملًا مضخِّمَ الصوت ...

وعلى الأثرِ ظهرتْ لُمَّةٌ من الراقصاتِ يبْلُغ عددُهنَّ نحوَ المائةِ فى زِىِّ الفلَّاحاتِ المصريَّات . وبدأْنَ يتحرَّكْنَ على إيقاعٍ موسيقىٍّ بديعٍ حركاتٍ تمثِّلُ الرقصَ الشرقىَّ فى بعضِ نواحيه . والحقُّ أن مظهرَهُنَّ كان فاتنًا وهنَّ يحمِلْنَ جرارَهُنَّ الخفيفةَ ، ويتلاعَبْنَ بها ، فيضعْنَها مائلاتٍ على رُءوسِهِنَّ ، وهنَّ يَخْطُون خُطواتِهِنَّ الرشيقةَ رافلاتٍ فى ثيابِهِنَّ السودِ مُزَيَّناتِ الجباه بالعصائبِ المُزركشة ، والحُلِىُّ تتزاحَمُ على صدورِهِنَّ من لَبَّاتٍ وعقود ، وفى أيديهنَّ الأساورُ تُوَسْوِسُ على إيقاعِ النَّغَم ، ولم يَنْسَيْنَ أن يَهُزُزْنَ الأردافَ ويتلوَّيْنَ بالخصورِ على أصولِ الرقصِ الشرقىِّ ...

وشاهدتُ بينهُنَّ فتًى يمثِّلُ فلَّاحا يرتدى اللِّبْدَةَ والزِّعبوطَ ويُلوِّحُ بنبُّوتِه في الجوِّ تَبَعًا للإيقاعِ الموسيقىِّ بحركاتٍ ظريفةٍ خلَّابة ...

وتبينتُ أنه « مارتنُ » الأمريكىُّ ، ولاحظتُه يرمُقُ « كليوبترةَ » ويُوافيها بابتساماتِه بين حِين وحين . وعرفتْه « كليوبترةُ » فلاحت على وجهِها إشراقةٌ محبَّبة . وأسرَّت إلى « زين السيوف باشا » بضعَ كلماتٍ تجهَّمَ وجهُه على أثَرِها ...

وصادفتْ هذه الرقصةُ إعجابَ الجمهور فاندفَع يتصايحُ ويستعيد ، ثم رأينا الراقصاتِ يتراجَعْنَ شيئًا فشيئا ، والنورُ يتضاءَلُ رُوَيداً رويدا ، فتتزايل أشباحُهُنَّ فى الظِّلال ... وأضاء المكانُ فجأةً ، فوجدنا المَنَصَّةَ خاليةً فتعالى التصفيقُ والهُتافُ والتصايحُ ...

وبعد لحظةٍ وجدْنا « مارتنَ » يهرولُ فى لَبُوسِه الفلَّاحىِّ ، ويأتى صَوْبَ

مقصورةِ « كليوبترةَ » ، فدخل وهو لايَدْرى كيف يَـلُمُّ رِداءه الفضفاضَ ، وكلما شمَّرَ كُمًّا وجد الآخر قد تدَلَّى على يدِه وعاقَه عن الحركة ... وكان يعانى صعوبةً فى وَضْعِ لِبْدَتِه على رأسِه فى الموضعِ اللائقِ . فإذا ماحرَفَها قليلا همَّت بالسُّقوطِ عن رأسِه ، وإن ضَغَطها آذَتْهُ ، وجعلَتْه يتوجَّع بصوتٍ حادٍّ . وأسرَعَ إلى « كليوبترةَ » فقبَّلَ يدها برشاقةٍ وتَظَرُّف ، وقال على الأثر :

كيف رأيتِ هذه الرقصةَ ياسيدتى ... ؟ !

— بديعة ... !

— لقد فرَضُوا علىّ الاشتراكَ فى تنظيمِ هـذه الرقصة فى آخِرِ لحظة ، فلم أستَطِعِ النـكُوصَ ...

not justified

a com

ثم التفتَ إلى « زين السيوف باشا » وأمسكَ بيدِه يهزُّها فى تحيَّةٍ تتجلَّى فيها الديمقراطيةُ الأمريكية ، وقال :

هالو ... جنرال ... تصوَّرْ أنى استطعتُ إخراجَ هذه الرقصةِ بعد دراسةٍ لم تستغرِقْ أكثرَ من ثلاثِ ساعات . تصوَّرْ ... ثلاثُ ساعاتٍ استطعتُ أن أُلِمَّ فيها بشخصية الفـلاَّحةِ المصرية ... مَلاَحتِها ... زِينتِها ... ملابِسِها ... مِشْيَتِها ... رقصتِها الوطنية ... كلُّ ذلك فى ثلاثِ ساعات ... وقد استطعتُ بعد ذلكَ أن أُدرِّبَ مِائةً من الفتيات ، كما شهِدْتَهُنَّ منذ لحظة ...

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ ، وهو يمشُطُ لحيتَه الشهباءَ :

أنتم لايَستعصِى عليكم شىءٌ أيها الأمريكيون الجبابِرَة !

فالتفتَ نحوَه « مارتنُ » وهو يقول : أنتَ هنا ياسيِّدى العالِمُ ؟ !

وأقبل عليه يحيِّيه ، ثم وجَّه حديثَه إلى « زين السيوف باشا » قائلا :

صارِحْنى برأيِكَ فى رقصةِ الفلاَّحة ... ألم تـكن هى الفـلاحةَ المصريةَ بشمائلِها وشخصيَّتِها ، تلكَ التى تحيا فى ذلك الحقلِ الرِّيفِىِّ الذى تنْعِشه بِدِفْئها

شمسُ الشرقِ الحالمة ...؟

فقهقه « زَيْنُ السيوف باشا » يقولُ : إنكَ استطعتَ أن تُظهرَ لنا الفلاحة المصريةَ في مظهرٍ جديدٍ حقاً ، فلاحة مصريةً صميمةً على الطريقةِ الأمريكيَّة !

وعاد يَضِجُّ بضِحْكَتِه الطويلة ... وانطلق يُشْعِلُ لِفافَةً ضخمةً سوداءَ .

فلم يَرْتَح « مارتنُ » لهذا الكلامِ ، وأجاب فى لهجةٍ عليها مَسْحَةٌ من الجدِّ :

لقد أظهرتُ لكم الفلاحةَ المصريةَ كما يجبُ أن تكونَ ... !

فرمىَ « زَيْنُ السيوف باشا » عُودَ الثِّقابِ على الأرضِ، وداسَه بقدَمِه فى شِدَّة ، وهو يقول : ماذا تقصِدُ بقولِكَ هذا ياسيدى ؟ !

فاقتَحمَتِ الحديثَ « كليوبترةُ » وسألتْ « مارتنَ » :

وأين غادَتاكَ : فلورا وجانيت ؟ !

— كانتا فى العَرْض ... ألم تَرَهما ؟ كان على رأسِ الأولى جَرَّةٌ بيضاء ، وعلى رأسِ الأخرى جرةٌ حمراء ... ولكنهما كانتا تُخفِيان جانبَ وجهَيهما بالخمَار الأسودِ الهفهافِ ...

وسمِعنا مندوبَ البلاغةِ الدَّولية في المقصورةِ الأخرى يصيح منتهراً غلامَ المَقصفِ ، رافعاً عصاه فى وجهه ، قائلاً :

أين شطائرُ البطارخِ الروسىِّ أيها الغبىّ ؟ أين الفودكا رقْم ٧٧٧ ؟

وسمعنا غلامَ المَقْصفِ يجيبُه وهو يعدُو حاملاً صِينيَّةً عليها بقايا طَعام :

سأحضر كلَّ شيءٍ يا سيِّدى حالا ... حالا ... !

وانطلَقَت الغِيدُ تتَهادَى فى المَمرِّ أمامَ المقاصير ، فكانت العيونُ تنتهبهُنَّ ، وكنَّ فى لفتاتِهِنَّ وضحكاتِهِنَّ وتراسُلِهِنَّ بلُغَةِ العيون وتراشُقِهِنَّ بالورد، فى حُلَلِهنَّ الطريفةِ الأَخَّاذَةِ ، يُشعْنَ بين الجموعِ رُوحَ البهجةِ والإيناس ...!

وبينما كانت الزحمةُ على أشدِّها سقطتْ وردةٌ على « كليوبترةَ » رَمتْ بها

حسناء . فظهر شيء من الامتعاض على وجهِ « كليوبترة » ، ولكن سرعان ما أخفته ، وغمغم « زين السيوف باشا » : وقاحة ... وقاحة ...

فقال العالِمُ الرُّوحانيُّ : إنكِ يا سيدتي لستِ المقصودةَ بهذه الرَّمْيَة ... يبدو لي أنَّ المقصودَ شخصٌ آخر ...

فقال « زينُ السيوف باشا » : يجبُ الكفُّ عن مثلِ هذه المعابثاتِ السَّقيمة ... !

ولكنه لم يكد يُتمُّ جملتَه حتى أصابته وردةٌ مسَّتْ أنفه ، فالتفتَ إلى الراميةِ يريد أن يصيحَ بها مُعَنِّفاً ، فوجدها تُحَيِّيه في ابتسامةٍ خلَّابة ، وهي تقولُ ملوِّحةً بيدِها :

مَساءٌ سعيدٌ ياجنرال ...

ومال العالِمُ الرُّوحانيُّ على « زين السيوف باشا » يقولُ :

أَخْطَأَتْكَ الغادةُ في المرَّةِ الأولى ، ولكنها أصابَتْ منك مَرْمًى هذه المرةَ . .

وجعل يضحَكُ في وقارٍ وهُدوء ...

وبَدَا من « زين السيوف باشا » أنه يَعرِفُ الفتاةَ ... وأن بينهما مَوَدَّةً ... وعراه بعضُ الارتباك ، فردّ تحيَّتَها مضطرِباً . وهو يمسَحُ أنفه بمنديله في غيرِ اتِّزان .

وسَمِعْنا مندوبَ البلاغةِ الدَّولية يجأرُ بصوته منادياً غلامَ المَقْصف :

أين شطائرُ البطارخِ الروسيِّ والفودكا رقْم ٧٧٧٧ ؟

فالتفتَ « زينُ السيوف باشا » إلى الغلام ، وقفزَ خلفَه قَفْزَةً جبَّارة ، يريد أن يأخذَ بخِناقِه ، واندفعَ يقولُ :

ما هذا الإهمالُ ؟ ستفضحُوننا أمامَ ضيوفِنا ! أين الشطائر رقْم ٧٧٧٧ يا ولد ؟

ولم يكد يُتمُّ جملتَه حتى أَدْرَكَ خطأَه ، فازدادَ هِياجاً ، وصاحَ بالغلام :

أين الشطائرُ ؟ أين الفودكا ؟ أينَ رقْم ٧٧٧٧ ؟

فضجَّ الجمعُ بالضحك ... وانفتلَ منه الغلامُ ، وهو يصيح بنغمتِه الراتبة :

حالا ... سأُحضِرُ الطَّلبات ...

وعاد « زينُ السيوف باشا » إلى مكانِه محتقنَ الوجه ؛ ينهالُ على شاربِه فَتْلا ... وظهر على المَنَصَّةِ العِمْلاقُ الروسىّ ، وخلْفَه « عبدُ العال » بجسمِه الضئيلِ المهزولِ يحملُ له مضخِّمَ الصوت ، وانطلق العملاقُ يردِّدُ في صوتِه العالى بمختلِفِ اللَّهجات جُملًا وعبارات . فعلمنا أن الشوطَ الأولَ من السِّباقِ على ضوءِ المشاعلِ يبدأُ ...

وأُطفِئَتِ الأنوارُ ، إلَّا بعضَ مصابيحَ خافتة .

وأخذ الجمهورُ ينظر متحمِّساً فى دفاترِ برامِجِ السِّباق ويتهامَس مناقِشاً : أىُّ الجيادِ يكسَبُ الرِّهان؟ . . وتكاثَرَ الهمس ، فكنا نسمَعُ فى اختلاطٍ الجملَ الآتيةَ : على أىِّ جوادٍ راهَنْتَ؟ ... رَقْم ١٣ هو الفائز ... بل رقْم ٤ ... بل رقْم ٥ ... هو بلا شكّ رقْم ٥ ...

ورأيتُ وزيرَ المناطقِ الجنوبية السَّبْع يميلُ بجسمِه المبعثرِ على « تيمورلنكَ » الذى انسلَّ من مقصورتِنا إلى المقصورةِ المجاورةِ منذ وقتٍ مضَى . واندفع يناقشه متأنِّيًا فى الفائزِ من الخيول . وسمعتُ « تيمورلنكَ » يقول :

لايروقُنى أن أقامِرَ ... إنَّ هذه اللُّعبةَ صِبْيانية ... !

وأقبلَ عليهما مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى ، وهو يداعب غُضُونَه التنائرَ ، وأقحمَ نفسه فى المجادلةِ وعيناه الضيِّقتانِ البرَّاقتانِ تلتمِعان فى الضوء الخافتِ لَمَعانَ الحُباحب ... أما رئيسُ المؤتمر فقد لَزِمَ الصَّمْتَ بُرهةً ، ثم مالبِثْنا أن رأيناه يشارِكُ الزملاءَ فى موضوعِ السِّباق ...

وسَمِعنا طَلْقَةً شديدةً أعقبتْها حمحمةُ الخيول وصوتُ انطلاقِها ، فاحتبستِ الأنفاسُ ، وتطاوَلتِ الرُّءوس ، واشرأبَّتِ الأعناقُ ...

ومرَّت الجيادُ أمامَ أعينِنا مرَّ السِّهام ، فإذا في كلِّ جوادٍ مصباحٌ كهربيٌّ ساطعٌ يضيءُ رقْمَه ، وكان رجالُ « الجوكى » لاصِقين بظهورِ جيادِهم متشبِّثين باللُّجُم كالقنافذِ الهاربة . وأخذت الأصواتُ تعلو فى تحمُّس مُشيِّعةً ذلك الرَّكْبَ . ومضت هذه الكوكبةُ من الخيولِ تعدو فى المضمارِ كقبَساتِ البرقِ المتطاير . وبعدَ لحظاتٍ عادت تمرُّ بعد أن أتمَّتْ جولتَها الأولى ، وكان الصِّياحُ دائمًا يَتْبَعُها أينما ظهرَتْ ، ورجالُ « الجوكى » وهم كالقنافذِ على صَهواتِ الجياد يُلْهِبونها بالمخاصِر . وتكهربَ الجو بهرْجٍ ومرْجٍ واصطِخاب ... وصافحتْ أُذُنى همهمةٌ لـ « تيمورلنكَ » ، فالتفتُّ نحوه ، فإذا به قد داخَلَته بعضُ الحماسةِ .

وازدادت الجلَبة ، والناسُ يَصيحون فى اختلاط وهم يلوِّحون بأيديهم : رقْم ٣٠ هو الفائز ... رقْم ٥ ... رقْم ٣ ... رقْم ١٠ ... ثم ضاعتِ الكلماتُ متشابكةً ملتَبِسة . وسمِعْتُ فرقعةً شديدة ، وبغتةً توهَّجَ في السماءِ نور ، وتَبِعَ ذلك طَقْطَقةٌ تصحَبُها أنوارٌ مختلفةُ الألوان . وعمَّ المكانَ صَمْتٌ شامل ، وتطلَّع الناسُ إلى السماء ، ورأينا قذائفَ النورِ تكتُبُ فى الفضاءِ :

« الجوادُ الفائزُ رقمُه صِفر » !

وعلتْ ضَجَّةٌ يختلِط فيها الفرحُ بالسُّخط ، ثم اندفعتْ أمواجٌ من الناس إلى الظُّلَّات التى فيها التذاكرُ ليَقْبِضوا الأرباحَ ويراهِنوا على الشوطِ الثانى .

ورأيتُ وزيرَ المناطقِ الجنوبية السبعِ يأخذ بيد « تيمورلنكَ » وخلفهما مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى يدرُج ككرةٍ حائرة لاتعرِفُ لها مستقرًّا . ولحِقَ بهم على الأثرِ رئيسُ المؤتمر ، وإذا به يتقدَّمهم ويسيرُ فى تُؤَدَةٍ ، يهتزُّ بقامتِه الهيفاءِ المَمشوقةِ هِزَّةَ الوَقار ، وعلى صدره تترنَّحُ الأوسِمة ... فكان الزملاء يمشونَ خلفَه لايجسُرون على سَبْقِه . وكانت وِجْهَتهم ظُلَّاتِ التذاكر . على حين كان مندوبُ البلاغةِ الدَّولية غارزًا في وسائدِه يلتهمُ شطائرَ البطارِخ ، ويجرَعُ

الفودكا رقم ٧٧٧٧ ...

وطافت النُّدُلُ بالأشربةِ ، فتناولتْ « كليوبترةُ » كوبًا من شرابِ الوَرْد ، والتفتتْ لتسألَ العالِمَ الرُّوحانيَّ عما يطلبُ ، فوجدَتْه قد غفَا وترامى رأسه على كَتِفِه ، فهزَّتْه بلُطْف ، وقالت : ماذا تريدُ أن تشرَبَ ؟

فقال ، وهو يغالِبُ النَّوْمَ : شرابَ الكريز ...

أما « زينُ السيوف باشا » فكان يروِّحُ وجهَه الملتهبَ بمنديله ، وأخذ يَعُبّ هو و « مارتنُ » الأمريكيُّ من شرابِ الكوكتيل ...

وانطلقَ الجَمْع يتحدَّثُ عن السِّباق حديثًا مألوفًا . وعلى حينِ فجأةٍ ظهرت الغادةُ التي أصابتْ « كليوبترةَ » بالوردةِ على غيرِ عَمْد ، والتي قذفت أنفَ « زين السيوف باشا » بوردةٍ أخرى معابِثَةً . وكانت في لَبُوسٍ قوقازيَّةٍ من سكَّانِ الجبال ، ممشوقةَ القدّ ، مرفوعةَ الرأس ، تَزْهُو في قَلَنْسُوةٍ من الفَرو على لونِ الشَّفَق ، منحرِفَةٍ على فَوْدِها ، وقد تهدَّلَتْ تحتها خُصَلٌ من شعرِها الفاحِم المسترسل ... وكانت لا يستقرُّ لها قَرار في وِقْفَتِها كأنها قَلِقَة حَيْرَى وما بها من حَيْرَةٍ ولا قَلَق ؛ ولكنه دلالُها وأُنوثتُها وإغراؤُها يتجلّى في كل لَفْتَةٍ وإشارةٍ منها . وكانت حقًّا تلتمعُ في ملابِسِها الشرقيةِ الزاهرة من سَراويلَ حريريةٍ ، وصِدارٍ مطرَّزٍ باللآلِئِ الوهَّاجة ... وتقدَّمتْ تعتذِرُ في رشاقة إلى « كليوبترةَ » فأجابتْها الملكةُ في تلطُّفٍ إجابةً رقيقةً . ثم التفتت الغادةُ إلى « زين السيوف باشا » وقالت مازحةً دون كُلْفَةٍ ، وقد داعبتْ كَتِفَه بضربةٍ رَخِيَّة :

أما أنتَ فكان خليقًا بكَ أن أقذِفَكَ بطاقةِ وَرْدٍ كاملة ... !

وصاح « مارتنُ » وهو يُلوِّحُ بالكأسِ في يده :

— تقصِدين طبعًا طاقةَ وَرْدٍ كلُّها أشواك ... !

فتضاحَكَتِ الفتاة ، وهي تقول :

كان يستحقُّ ذلكَ وأكثر ... لم يكنْ لطيفاً ...

ثم جذبَتْ أُذُنَ « زين السيوف باشا » فى مداعبةٍ جريئة ، وما عتَّمتْ أن قدَّمتْ يدَها إليه ليقبِّلَها ، فأذْعَنَ لها ، وقد ازداد احتقانُ وَجْهِه . وأخذت الألفاظُ تتعثَّرُ على شَفَتَيْه ، وهو يختَلِسُ النَّظَرَ إلى « كليوبترةَ » التي كانت تُشاهِدُ هذا المَنْظَرَ وهى تتكلَّفُ الابْتِسامَ ... وقالت « كليوبترةُ » للفتاة :

ما أحْسَنَ ذَوقَكِ فى اختيار زِيِّكِ القوقازيِّ ...

— شُكْراً سيدتى ...

وانطلقت الفتاةُ تسائِلُ « زينَ السيوف باشا » في زِيِّها ، وهو يزدادُ اضطراباً وحَيْرة .

وهمستْ « كليوبترةُ » فى أُذُنِ « مارتنَ » : ما رأْيُكَ فى هذا الزِّيِّ ؟

— إنى صريح ياسيدتى . . إن هذه الملابسَ لا تلائِمُ شكلَ هذه الغادَةِ ... فضلاً عما تحوِيها من أغلاطٍ فنِّيَّة .

— وماذا كنتَ تختارُ لها ؟

— كنتُ أختارُ لها زِيَّ فلاَّحة إيطالية من سكان سردينيا ... إن فيها الكثيرَ من ملامِحِ الفلاَّحاتِ الإيطاليَّات ..

ثم مالَ على أُذنِها ، وقال :

إنَّ ذَوقَ صديقِنا الجنرال يتجلَّى فى أبدع مظهرِه بِصُحْبَتِه لهذه الفتاة ...

فأخفتِ الملكةُ فى مِنْدِيلِها ضِحكَتَها ...

وكان العالِمُ الرُّوحانىُّ أثناء ذلكَ يُكثِرُ من التثاؤُبِ ويترنَّحُ رأسُه على صدرِه بين الفَيْنَة والفَيْنَة ... وسمعنا الفتاةَ تقولُ لـ « زينِ السيوف باشا » :

إنكَ أسأتَ إليَّ بسُوءِ معاملتِك ، فأُطالبُكَ بترْضِية .. !

فقال « مارتنُ » على الأثَر : إن قُبلةً يطبَعها الجنرالُ على خدِّ الآنِسَةِ تمحو

كلّ أثر لسوءِ التفاهُم ... !

فقالت الفتاةُ ، وهى تَضِجُّ بالضَّحِك : لا أقْبَلُ ... لا أُقْبَلُ ...

وتدانت فى الوقتِ نفسِه من « زينِ السيوف باشا » ورفعتْ إليه خَدَّها ، وهى ما زالتْ تقولُ : لا أقبل مطلقاً هذه الترضية ... !

ودَوَّتْ طَلْقة ، وأُطفِئَت الأنوار على الأثر ، وانتشرتْ قذائفُ النور فى أجواز الفَضاء ، وإذا بنا نقرأُ ماتكتُبُه فى عُرْضِ السماء :

« قُبلةٌ فى المزاد » !

فعلَت الهمهمةُ والصّياح والتصفيق ... وتبادل الجمعُ النظراتِ متسائلين .

وسمعنا العملاقَ الروسىَّ أمام مضخِّم الصوت يقول :

قُبلةٌ فى المزاد ... دَخْلُها لصندوقِ الطِّفْلِ الشريد ...

وشاهدتُ العالِمَ الرُّوحانىَّ يَضِيقُ بهذه الضجة وقد أعياه التعب وغَلَبه النوم ، وما هى إلا أن اختفَى من حيث لايشْعُرُ به أحد ...

ورأيتُ « تيمورلنكَ » يعودُ مع زُمْرَتِه ، وكلُّهم ينظرونَ فى دَفْتر السِّباق ، ويتثبَّتون مما أخذوه من تذاكِرِ الرِّهان ، واقتعدوا مقاعدَهم فى المقصورةِ وهم يتساءلون عن سرِّ هذه القُبلة التى أُعْلِنتْ في المزاد ...

وما إن رآهم مندوبُ البلاغة الدَّوْلية حتى اشْرَأَبَّ إليهم ، وكانت الخمرُ قد لَعِبَتْ برأسِه ، واندفع يحدِّثُهم عن مجهودِه فى توحيدِ اللُّغات ، وعملِه فى اختراعِ لغة عالمية ... وسمعتُ وزيرَ المناطقِ الجنوبية السبع يقول له :

ماسرُّ هذه القبلةِ التى يعلِنون عنها الساعةَ ... ؟ !

فقال مندوبُ البلاغة : هذه خُزَعْبِلاتٌ ياولدى ... خزعبلات ...

ثم عاد إلى اضطجاعِه يُثرثِرُ عن اللغةِ العالمية دون أن يهتَمَّ به أحد .

وأقبل على شطائره يلتهمُ منها مايُشْبِعُ نَهَمَهُ ، وعلى شراب الفودكا

رقم ٧٧٧٧ يجرَعُ منه ماينقعُ غليلَه .

ورأينا العملاقَ الروسىّ يقتربُ من مقصورتِنا وخلفَه « عبدُ العال » يجرُّ قدميه جرّا ، ومضخِّمُ الصوتِ على كتِفِه .. ودخل العملاقُ المقصورةَ ، فأدّى التحيةَ العسكريةَ المصحوبةَ بضَرْب قدميه ، وقال كأنه يُلْقِى خطبةً رسمية :

أيتُها الملكةُ الكريمة ، والزميلةُ المبجَّلة ، والأختُ النبيلة ، تتشرفُ إدارةُ جمعيةِ الرغيفِ الأسود بإخبارِكِ أنها انتخبَتْكِ الليلةَ لتكونى بطلةَ القبلةِ التى أُعْلِنَ مزادُها ...

فبدتْ على مُحَيَّا « كليوبترةَ » دهشةٌ وتَعجُّب مصحوبان بتطلعٍ كبير . وأخذ « زينُ السيوف باشا » يُدَمْدِمُ ويجمجم ، على حين كانت الغادةُ القوقازيةُ تقولُ له :

أما أنا فإنى أرفضُ قبلتَكَ رفضًا باتًّا أيها الجنرال ... !

وتكلَّمَ العملاقُ أمامَ مضخِّمِ الصوت ، معلِنًا انتخابَ « كليوبترةَ » لتكون بطلةَ القُبلة ، وذلك قبل أن يسمعَ قبولها أو رفضَها لهذا الانتخاب !

فقالت « كليوبترةُ » له : مامعنى ماتقولُ ياسيدى ... ؟ !

— معناه يامولاتى أنكِ قد تبرَّعْتِ لفرعِ جمعيةِ الرغيفِ الأسود : صُندوقِ الطفلِ الشريد ، بما يتجمَّع من الدَّخْلِ ثمنًا لقُبلة المزاد ... !

— ولكن ياسيدى ...

وهنا أطلَّ « تيمورلنكُ » على مقصورتِنا ، وقال لـ « مارتنَ » :

مارأيك في هذه اللُّعبةِ اللطيفة ؟ أليست من اختراعِكَ هذه المرةَ ؟

فقال « مارتنُ » بوجهِ الباشِّ الضَّحُوك :

أعترفُ لك ياسيدى الأميرَ بأنَّ الروسَ قد كسبوا هذه المعركةَ منا ... !

وعاد العملاقُ الروسىُّ يَصيحُ أمامَ مضخِّمِ الصوت ، وتعالى الصياحُ واشتدَّت الزَّحمة حولَ مقصورةِ « كليوبترةَ » وأمامَها . وأخذ الهتافُ يتتابَعُ فى اختلاط ،

فحيَّت الملكةُ الجمهورَ فى تلطُّف وابتسام . وقد توهَّجت وَجْنتاها . وبعد قليلٍ فُتِح المزادُ ، ورأينا « زينَ السيوف باشا » يتقدَّم إلى الأمام ، واسعَ المَنْكِبَيْن ، عالىَ الرأس ، منتفخَ الأوداجِ ، صائحًا : مِائة جُنيه ...

فقال « مارتنُ » : مائة جنيهٍ فقط ؟ ... يالكَ من شَحِيحٍ ...!

ثم صاح على الأثر : لى بخمسِمائةِ جنيهٍ ...

فصاح « زينُ السيوف باشا » : لى بخمسِمائةٍ وخمسين ...

ووجدنا مندوبَ البلاغةِ الدَّولية يتحركُ فى جِلْستِه ويتطلَّع ، وكرعَ كأسَه دَفعةً واحدة ، ثم سمعناه يَصيحُ : لى بخمسِمائةٍ وستين جنيها ...

فردّ « زينُ السيوف باشا » : لى بستِّمائةٍ ...

وصاح « مارتنُ » : لى بسَبْعِمائة ...

ووجدتُ « تيمورلنكَ » ينقِّلُ بصرَه بين المزايدِين بشَغَف ، وهو يَفْرُك يديه ويقول : جميل ... جميل ... تَقدَّموا ... تقدموا ...

وسمعتُ مندوبَ البلاغةِ الدَّوْليـة يَصيح ، وقد اختنق صوتُه ، وتلظت عيناه : بسَبعِمائةٍ وخمسين ... !

فصاح « زينُ السيوف باشا » مُهتاجًا يقول : بثمانمائة وخمسين ...

ورأيتُ الفتاةَ القوقازية تواجِهُ « زينَ السيوف باشا » وتقول :

لن أمنَحَكَ قُبلتى ولو دفعتَ لى ألفَ جنيه ... !

وصاح رجلٌ من جمهورِ الرُّوَّاد : بتِسعِمائةٍ ...

فصاح آخَرُ : بتِسْعِمائةٍ وخَمْسين ...

فقال « زين السُّيوفِ باشا » على الأثَر : لى بألْفِ جُنَيْه ...

فقالت الغـادةُ القُوقازيَّة وهى تَزْفِرُ : لو مَنَحْتَنى ألفَيْن من الجنيهات لما أتَحْتُ لكَ شرفَ تقبيلى ... !

ورأينا مندوبَ البلاغةِ الدَّوْلية وقد أخذَتْه النَّشْوَةُ وقام يتحامَلُ على عصاه وجِسْمُه يَهْتَزُّ ورأسُه لا يستقِرُّ له قرار ، وأخذ يُميلُ قَلَنْسُوَتَه على فَوْدِه فى تَصابٍ . ويَفْتِلُ شارِبَه الأشْيَبَ . وقال فى صوتٍ أَبَحَّ : لى بألفٍ ومِائَةٍ !

ثم وجدناه يتهالَكُ دَفْعَةً فيحمِلُه إخوانُه إلى مقعَدِه ، فلا يُعَتِّمُ أن يُطْبِقَ جَفْنَيْه ويَنْسابَ فى إغْفاء ...

وألفَيْتُ العادةَ الرُّوسِيَّةَ تأخُذُ بيدِ « زين السيوف باشا » جانباً فيتهامَسانِ فى حِدَّة ، وما لَبِثَ أن أقبلَ يَكْرَعُ من كأسِه ، وصاح : لى بألفٍ ومِائَةٍ !

وغمَزَه « تيمور لنك » قائلاً : لقد سَبَقَكَ بهذا المبلغ مندوبُ البلاغةِ الدَّوليَّة .

فصاح « زينُ السيوف باشا » : لى بألفٍ وخَمْسِمائَةٍ !

فَجَذَبَتْه الفتاةُ وسارتْ به بِضْعَ خُطُواتٍ ، وهو يحاولُ عَبَثاً أن يُفْلِتَ من يَدِها ... وما هى إلا أن ظهرَ بغتةً « أنطونيو » وهو يُهَرْوِلُ فى مِلْحَفِه الرُّومانىّ وعلى رأسِه لِبدةٌ ريفيَّة ، وإلى جانبيه « فلورا » و « جانيتُ » فى مَلْبَسِهما الفَلاَّحِىّ ... وكان « أنطونيو » يصيحُ صِياحاً خيرَ مُتَّزِنٍ يَنِمُّ عن نَشْوَتِه :

قِفُوا المَزادَ حتى أدخلَ ... لن ينالَ القبلةَ غيرى ... !

ثم انحنَى يُحيِّى « كليوبترةَ » ، فجابَهَتْه بقولها وهى تَرْمُقُه فى جَفْوَة :

من أينَ أنتَ قادِمٌ ؟

فقالتْ « فلورا » على الأثَر : نحن قادمون من دَخِيلَةِ المَسْرَح حيثُ الممثِّلون والممثلاتُ يُعِدُّونَ أنفسَهم للظهور ...

وانحنت أمامَها محيِّيَة ، وتبعَتْها « جانيت » ، وقالت « فلورا » لـ « كليوبترةَ » :

إنى أشكو لكِ قَيْصَرَ ... كان غيرَ لطيف ... وكان يحاولُ انتزاعَ عصاباتِنا من رُءوسِنا ...

فرأيتُ « كليوبترةَ » تَرْمى « أنطونيو » بنظرةٍ ، فبادَرَ بقولِه :

غيرُ صحيحٍ هـذا ... هما اللتان انتزعتا مِغفرى وأَلْبستانى هـذه اللّبْدَةَ الرِّيفِيَّةَ ... !

فعلاَ الصِّياحُ والضَّحِكُ من كلِّ جانب ، وقال « مارتن » : دَعُونا من هذا ... لِنَهتمَّ بما نحن فيه ... حقاً إنه مَزادٌ عجيب ... إنه مَزادٌ بطىء ... !

ثم صاح : أَدْفعُ خَمْسَةَ آلافٍ ...

ورأينا « زينَ السيوف باشا » بين يَدَيْ غادتِه تحاصُره وتُلْهِيهِ عن المشاركة فى المزادِ بمعابَثَتِها وتَدَلُّلِها ... وتساءل « أنطونيو » فى لَهْجَةِ الشارِدِ الفِكْرِ :

خمسةَ آلاف ؟ ماذا تقصِدُون ؟ خمسةَ آلافِ ريال ؟ أم خمسةَ آلاف شِلِن ؟ أم خمسةَ آلافِ روبل ؟ أم خمسةَ آلاف رِطْلٍ من الذهب ... !

وتقدم « مارتنُ » فى وِقْفَةِ القاهرِ المتملِّكِ ، وصاح :

خمسةَ آلاف جنيه ... خمسةَ آلافٍ ...

ثم وقفَ قُبالَةَ « كليوبترةَ » يحدِّقُ فيها لحظَةً ، ثم انتهبَ القبلةَ من جَبِينِها برشاقة ، وصاح على الأثَر : انتهى المَزادُ ... !

وتصايحَ الجْمعُ مصفِّقين ...

ورأينا « زينَ السيوف باشا » يُهرَعُ نحوَ الجَمع ، ويقول :

المزادُ غيرُ قانونيّ ... ما هذه الدكتاتورية ... ؟

فأجابه أحدُ روَّادِ الحفل مبتسِماً :

أَعَزَبَ عن بالِكَ أن الدكتاتوريةَ سُنَّةُ هذا العصرِ الحائر ... ؟

وصاح « أنطونيو » والفتاتان آخِذَتانِ بساعِدَيه :

إنى أحتَجُّ ... أحتجُّ بشدَّة ...

وقال « مارتن » وقد وَضعَ يَدَه فى يدِ « كليوبترة » :

إنى أتبرَّع بخمسةِ آلافٍ أخرى لصُنْدُوق الجماعة قطْعاً لخطِّ الرجعةِ فى شأن المزاد !

وقال « زينُ السيوف باشا » فى صوتٍ مُتَحَشْرِج :

غِشٌّ ... تلاعُب ... مزادٌ عابث ... !

ومال رئيسُ المؤتمر على « تيمورلنكَ » قائلا :

لقد فازَ الدولارُ الأمريكىُّ هذه المرةَ ... !

فغمغم « تيمورلنكُ » مُجيباً :

لقد انتُهِبَتْ القبلةُ انتهاباً ، فالفائزُ ياصاحِ هو الساعدُ الأمريكىُّ ... !

وأقبلت الغادةُ القوقازيةُ وَسْطَ هـــذه الجَلَبَةِ والصِّياح ، وقالت لـ « زين السيوف باشا » بأَنَفة :

أُقْسِمُ بأعـزِّ ماعندى إنى لن أدَعَكَ تنالُ شرفَ تقبيلى ولو بأضعاف أضعافِ هذا الثمنِ !

واستدارتْ فى وِقْفَتِها ، وهمَّت بالانصراف ...

فهَبَّ « زينُ السيوف باشا » دَفعةً واحدةً نحوها ، وقال فى حِـدَّةٍ كأنه يُلْقِى أمراً عسكريًّا : بل سأنالُها دون ثمن !

وما هى إلا أن هجَمَ عليها وطبَعَ على فمِها قبلةً جامحة ...

وكان الجمهورُ يموج ، وقد اختلطَ بعضُه ببعض ... على حين وقفتْ « كليوبترةُ » فى سُهوم بعـد أن انتَهبَ منها « مارتنُ » القبلةَ . وما إن مال عليها يلاطِفُ يدَها بخِفَّة حتى همسَتْ فى أُذُنه :

إنى أختنِقُ ... أريد أن أستنشقَ هواءً نقيًّا ... !

— ألا أصحَبُكِ ؟ !

— كلا ... دَعْنى ...

وتسللتْ فلَحِقَ بها ، واختفى شبَحُهما فى الظلام وابتلعتْهما زحمةُ الناس ...

ولما أردتُ اللَّحاقَ بهما ، ومضيتُ إلى خارجِ ميْدانِ الحفلةِ أسألُ عنهما ،

علمتُ أن السيارةَ مضتْ تطوى بهما الطريق .

وعُدتُ إلى المقصورة ، فوجدتُ « زينَ السيوف باشا » و « أنطونيو » يتطلَّعانِ حولهما يبحثان عن « كليوبترة » .

وأُطفِئَتِ الأنوارُ بغتةً ، وسمعنا العملاقَ يُعلِنُ بدءَ الشوطِ الثانى من السِّباقِ ، ووجدتُ « تيمورلنكَ » وزملاءه يرقُبون باهتمام عَدْوَ الجِيادِ فى المِضمار ...

وتوالَتِ الألعابُ وأشواطُ السِّباق ، ولاحظتُ أن « تيمورلنكَ » قد نال فى المراهنةِ كَسْباً ، وأنه كان طولَ الوقتِ مهتاجاً طَلْقَ المُحيَّا ... يترشَّفُ من كئوسِ الصَّهْباء ...

وانتهت الحفلةُ بالرقصةِ الروسية المعروفة فى حَلْقةٍ واسعة . انتظم فيها « زينُ السيوف باشا » وصديقتُه ، و « أنطونيو » ورفيقتاه ، ومن بَقِىَ من أعضاءِ المؤتمر . وكانت الضجةُ على أشدِّها ، والجمع يصفِّق متابعًا للنَّغَمِ تصفيقًا حادًّا يُصِمُّ الآذان ... وكان العملاقُ الروسىُّ وَسْطَ الحَلْقةِ آخذاً بيدِ مندوبِ البلادِ الدَّولية يساعِدُه على القيامِ بنصيبِه فى هذه الرَّقْصة الرائعة ... !

٢٧ يناير

انقضت ثلاثةُ أيام لَزِمَ فيها مُعْظَمُ أعضاءِ المؤتمر حُجُراتِهم فى قصرِ الورد ، وكانت الأطباء تتردَّد لزيارتِهم . وأخـبرنى الشاويش « سيد متولى » المرافقُ لـ « تيمورلنكَ » أنه قد لزم خَلْوَتَه فى المسجد ، وقَصَرَ طعامَه على الفولِ النابتِ ، وكان لاينفَكُّ يُوصِى بالـكلب ، ويأمُرُ بالعناية بطعامِه وراحتِه ، ولـكنه لم يطلبْ أن يراه ولم يُحِطْه بشيء من ملاطَفَتِه ... وكان يردِّدُ دائماً أمامَه :

عليكم أيها الناسُ بحمايةِ الضُّعَفاء !

وقد ترك الأميرُ خَلْوَتَه أمسِ ، ودعا طائفةً من القُرَّاء . ووزَّع عليهم الصَّدقات . ثم رَصَّهم صفوفاً تأهُّباً للصلاة ، ولما حضر وقتُها تَصَدَّرَ فأمَّ الجماعة وكان يقرأُ بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ ويؤدِّى الصلاةَ بحركاتٍ تَنِمُّ عن عظمةِ الإمامة فى أجلَى مظاهرِها ... !

أما مندوبُ البلاغةِ الدَّوليةِ فقـد طلب أن يأتوا له بمُمرِّضَتين حسناوَين لتضعا على رأسِه الـكمَادات الباردةَ ... وقد ترك نفسَه كالطفلِ بين يدَيْهما يمرِّضانِه ويُطعِمانِه ويلاطِفانه وهو مغتبطٌ مُفْتَرُّ الثغرِ يتحدثُ إليهما بين الفترة والفترة عن مجهودِه فى سبيلِ اختراعِ اللغةِ العالَمِيّة ...

وكان لاينسى أن يختلسَ من يديهما وخدَّيهما القُبَـل ، وهو يُعْنَى بشرحِ نظريَّتِه ، قائلا لهما : يافتاتَىَّ العزيزتين ! إنى أُحِبُّكما محبَّتِي لأولادى ... إن عاطفتى نحوكما عاطفةُ أُبُوَّةٍ خالصة ... !

ثم يربِّتُ خدَّيهما قائلا : ماأنضرَ الشبابَ ! ... ما أطيبَ عهدَه ! ... ما أجملَ بهجتَه ! ... تمتَّعا بالشَّباب !

فيُجيبانِه بضَحِكاتٍ وهما يتلاعَبانِ حولَه مداعبتين متدلِّلتين .

أما « زينُ السيوف باشا » فكان في سريرِه ثائراً يُزمْجِرُ كأنه أسدٌ حبيس ... وكان يأبَى تناوُلَ الطعام إلا بعدَ إلحاحٍ شديد كأنه طفلٌ مدلَّل ! وكان يُنَحِّي عنه الممرِّضين والأطِبَّاء ، ويقولُ لهم :

أحسِبْتُموني مريضاً ؟ ما أجهلَكم بشكاتي ... !

واضْطُرِرْنا إلى تأجيلِ المؤتمر أياماً حتى يَسْتوفِيَ كلُّ عُضْوٍ راحتَه . أما « كليوبترةُ » فلم تكن تَشكو عِلّةً ، ولكنها كانت ضيِّقةَ الصدر ، كثيرةَ العُزْلة والوجوم . وجاءها مرةً العالِمُ الرُّوحانيُّ يزورُها ، وتطرَّقَ الحديثُ إلى حفلةِ الرغيفِ الأسودِ ، فسألَتْه قائلةً : ما رأيُكَ فيها ... ؟ !

فأجابها : حفلةٌ من حفَلاتِ المجتمعِ الزائفِ التي ليس لنا منها خَلاص ... !

فقالت له في سُهوم : يَلوحُ لي أنني لن أستطيعَ بينكم المكوثَ طويلا ...

— إني أعرِفُ ما تُعانينه من مَشَقّةٍ في دنيانا هذه ، ولكن يجبُ أن تتجلَّدِي للصِّعاب ... لقد جئتِ لتُصلِحي ما فسَدَ من أمرِ هذا الكَوْن ... !

فأطرقتْ لحظةً ، وعيناها ترمُقان قدمَيها ، ثم قالت :

لولا رغبتي الصادقةُ في ذلك لما استطعتُ أن أمكُثَ لحظةً في عالَمِكم البغيض !

وبعد سَكْتةٍ قصيرةٍ ، قالت له : وأنطونيو ؟

— إنه مُعْضِلة ... سمعتُ أن سلوكَه في الحفلةِ كان غيرَ مَرْضِيٍّ ... ولا سيما صَنيعُه بالفتاتَين ... لكنَّ عذرَه أنه كان ثَمِلاً ... لقد نجحتْ الفتاتان في إغوائه ...

— أيُرْضيكَ أن يُتْرَكَ أمرُه على هذا النحوِ ؟

— كلا ... إني أفكر تفكيراً جِدِّيًّا في الأمر ... وأرى أن الأوْفقَ أن نعملَ على إشخاصِه إلى العالَمِ الآخر ...

— اِفعَلْ ما تراهُ صالحًا ...

وصمتتْ « كليوبترةُ » برهةً ، ثم عادتْ تقول :

لا تنسَ أنه مخلوق ضعيف ... وأخشَى أن تعاوِدَه بوادرُه ونَزَوَاتُه القديمة ... إنه فى حاجة إلى رقابةٍ صارمة ... !

— سأُعْنَى بهذا الأمرِ . لاتقْلَقى !

وظهَرَ شَبَحُ « مارتنَ » على بابِ المعبَد مُقبِلًا فى مِشْيَةِ المَرِحِ المتفائلِ الواثقِ بنفسه ، ففهمت « كليوبترة » إذْ رَأَتْه :

هـذا الأمريكىّ ... سيُقْلِق راحتى ... أرغَبُ فى أن أقْضِىَ الوقتَ هادئةً ...

— إذا أردتِ فأنا الكفيلُ بإراحتِكِ منه .. !

— لا داعِىَ لذلك ... سأعملُ أنا على تقْصِيرِ زيارته .

وانحنى أمامَها العالِمُ الرُّوحانىُّ ، وأخذَ سبيلَه إلى الباب . فقابل « مارتنَ » فى بعضِ الطريق ، فتبادلَا التحيةَ ومألوفَ المجاملاتِ ... ولاحظتُ أن « كليوبترةَ » اندفعتْ تُغنِّى بزُخْرُفِها — فى خُفْيَةٍ — فانصرفتُ أُودِّعُ العالِمَ الرُّوحانىَّ ، وفى طريقى عائداً لمحتُ « مارتنَ » مقبِلاً على « كليوبترة » مشرقَ الوجه منحنيًا على يَدِها ، يطبَعُ عليها قُبلةً . فاتخذتُ مجلِسى فى المدخَلِ عن كَثَبٍ منهما بعيداً عن مَطْرَحِ نظرِها . وقدَّمَ لها « مارتنُ » طاقةً من الوردِ الأبيضِ وهو يقولُ : هذه الطاقة البيضاء اخترتُها لأنها تماثِلُ جَبِينَكِ فى صفائِه ونُصوعِه .. !

وجلسَ على مقعَدٍ بجوارِها ، وأخرجَ رِزْمَةً من الصُّحُفِ ، وشرع يبسُطُها أمامَها ، ويشيرُ إلى فِقَراتٍ فيها ، وهو يقولُ :

إن حديثَ « القُبْلَةِ » يَشغَلُ الرأىَ العامَّ ... الناسُ جميعاً يُمجِّدُون فيكِ هذا الصنيعَ النبيلَ ... !

فأجابت في شيء من دلالٍ وتحفُّظ : لولا أن العملَ خيريٌّ لما فعلتُ ...
إنى قد مَنَحتُ القبلةَ على سبيلِ الإحسان ... !

فأخذ يصعِّدُ فيها بَصَرَه لحظةً ، وقال :

لو كنتُ على يقينٍ أنكِ لم تمنحينى إيَّاها إلاَّ صدقةً لرَغِبْتُ عنها ... !

— ماذا تقصِدُ ؟

فصمتَ برهةً وهو يحدِّقُ أمامَه تائهَ النظر ، ثم قال وهو على حالِه :

لا أدرى على وجهِ التحقيق ماذا أعنى ؟ ! ولكنى أعترفُ لكِ بأنه لو عُرِضَ علىَّ الأمرُ مرةً أخرى لأقبلْتُ على المزايدةِ بأضعاف شَغَفِي وأضعافِ مابذلتُ من مال ... !

— ما هذا التناقُض ؟

— حقًّا إنه لتناقُضٌ عجيب ... يجب أن أعترفَ لكِ بأننى منذ حَصلْتُ على هذه القُبلةِ ورأسِي يدورُ بى ، فلا أُحسِنُ المَنْطِق ... !

فتضاحكتْ « كليوبترةُ » وهى تَعْبَثُ بوردةٍ فى يَدِها وقالت : وَدِدْتُ لو تَطوَّعتْ بهذه القبلةِ سيدةٌ غيرى ... إن المكانَ كان يزخَرُ بالغِيد الحِسانِ !

— إذن لأخفقت المزايدةُ أشدَّ إخفاق !

— أتقصِدُ أن اسمَ كليوبترةَ هو العنصرُ الذى كان يعملُ على إنجاح المزايدةِ ... ؟

— أقصِدُ جاذبيةَ كليوبترة ... و ...

— لا تُغالِ يا مارتنُ ... تكلَّمْ فى جِدٍ واتزان ... قلتُ لكَ إن الحسان كنَّ يملأنَ المكانَ ...

— أيةَ حِسان ؟ !

— اللَّواتى يرتَدين الأزياء المختلفةَ العصورِ من فرنسيَّةٍ وإنجلوسكسونية ومغُولية وفلاَّحِيَّة ... وقوقازية !

She is fishing for compliments

وحدَّقتْ فى وجهه مبتسمةً ، فعلا ضحكُهُ ، وقال :

لعلكِ تقصدين قوقازيةَ الجنرال ... !

— لم أعْنِها نفسَها ...

— لقد أسلفْتُ رأيى فى هذه الغادةِ ... لقد أثبتَ الجنرالُ سُقْمَ ذَوْقِه ... !

فبدرَتْ من « كليوبترةَ » ضحكةٌ عالية وهى تقول :

ألم تقُلْ إنها كانت كالفلَّاحةِ الإيطالية ؟

— مازلتُ على رأيى ...

فقالت في مداعبةٍ ظاهرة : إنك تَغْلو ... لاتكن على الحِسانِ قاسياً ... !

— بربِّكِ دعِينا من هذا الحديثِ ...

— وفتاتاك : جانيت وفلورا ، وهما فى زِي الفلَّاحة المصرية ؟ ...

— كانتا مضحكتَين ... باردتيْن ... لقد صدقَ الجنرال فى قوله : إنهما فلاحتان على الطريقة الأمريكية ... لاجاذبيةَ ولا سِحْرَ ...

— ولكنَّ العَرْضَ الذى قَدَّمْتَه من هاتِه الفلاحاتِ اللواتى على الطريقةِ الأمريكية قد نَجَحَ ...

— نجح من الوِجْهةِ التَّهْريجيَّةِ لا الفنِّية ... !

— ماذا أسمَعُ ... ؟ !

— إنى أعترفُ لكِ بأنى شيخُ المهرِّجين !

— ماذا تقولُ يامارتنُ ؟ إنك تُلْقِى القولَ جُزافاً ...

— لم أكتشفْ حقيقةَ نفسى إلا أمسِ فقط ، حينما وقفتُ أمامَكِ أنالُ القبلةَ من جبينِكِ ... فى هذه اللحظةِ انى وقفتُ فيها أرمُقُ ذلكِ الجبينَ الساطعَ اللألاء المنطويَ على المَثَلِ الأعلى للجمالِ والفتنة ، تضاءلَ كلُّ شىءٍ أمامى ، وبانَتْ لِىَ الأشياءُ على حقيقتِها خالصةً من الزَّيْفِ . وعند ماتلاقتْ عيناىَ

وعيناكِ كشفتْ في لحاظكِ سرَّ الحياة وجوهرَ الوجود ... لو كُلّفتُ تأليفَ كتابٍ عنكِ لما عوّلتُ فيه على أيِّ مصدرٍ من المصادرِ المكتوبةِ ... لقد أصبحَ التاريخُ في نظري أكبرَ أُكْذوبةٍ ... !

فأجابته « كليوبترةُ » ، خافضةَ البصر ، وقد ازداد عَبثُها بالوردةِ :
وعلى أيِّ مصدرٍ إذن كنتَ تُعوِّلُ ،

— كنتُ أستوحي كلَّ شيء من مَنْبعِ قلبي ... !

وشملتْهما برهةُ صمت ، ثم مدَّ « مارتنُ » يده ، وأمسك بيدِ « كليوبترةَ » وهو يقولُ : أتسمحينَ لي بقبلةٍ من يمينكِ ؟

فتضاحكتْ وهي تقولُ :

أتريدُ أن تنالها من طريقِ المزايدةِ كما حدثَ أمسِ ؟

— بل أنتهبُها انتهاباً كما فعلتُ أمسِ ... !

وانحنَى عليها وأَوْدَعَ راحتَها قبلةً حارَّةً عميقة ، فجذبتْ يدَها منه وهي تقولُ :
لقد أطلتَ مُكوثَكَ حقاً ! .. متى تُزْمِعُ الرحيل ؟

— إذا شئتِ خرجنا معاً ... !

— لماذا ؟

— للنُّزهةِ ... !

— لي رغبةٌ في الحصولِ على بعضِ أشياءَ خاصةٍ بالتطريزِ لأَشغلَ به وقتي وأتسلَّى ...

— وأين توجدُ هذه الأشياءُ فيما تظنّينَ ؟ !

— أخبروني بأننا نستطيعُ أن نجدَ كلَّ شيء في مخازنِ بنتِ السلطان بخانِ الخليلي ...

— سمعتُ بهذا الاسمِ ...

— ألم تَزُرْ هذا المكانَ ؟

— يُسْعِدُني أن تكونَ أُولى زياراتى له فى صُحْبَتِكَ ...

— إذن هيَّا بنا نَزُرهُ معاً ...

وغادرا المعبـــد ...

... وكانتِ السيارةُ بالبابِ ، فصَعِدا فيها ، وجلسْتُ بجوارِ السائق ، وسِرْنا وَوِجْهَتنا « خانُ الخليلى » الجديدُ . وفى أثناء الطريق انبرى « مارتنُ » يروِى لها أنْ قد اختارتْه هيئةٌ محترمَةٌ ليخرجَ فِلمًا صغيراً عن حياةِ « أخناتون » وهو فِلْمٌ خاصٌّ بطلبةِ المعاهِدِ الدِّراسِيَّة ، وأنه سيبذُل جُهْداً ليُخرِجَه دقيقاً مطابِقاً للأُصولِ التاريخيَّة ، ولذلك هو مهتَمٌّ بالمراجِعِ والمصادر .

وأقبلنا على « خانِ الخليلى » ، وتركْنَا السيارةَ ، فاجتَزْنَا البَوَّابَةَ الكبيرةَ المؤسَّسَةَ على الطِّرازِ الشرقىِّ القديمِ كأنها بوَّابةُ المُتَولىِّ عادَتْ إليها جدَّتُها ونَخامَتُها . ودخلْنا فإذا نحن فى السُّوق العظيمةِ ... طريقٌ مسقوفٌ هادئُ النور ، يصلُ إليه الضوءُ مُصفىًّ مختلِفَ الألوانِ من خِلاَلِ سَقْفِه الذى تكسُوهُ ألواحُ البِلَّوْرِ . فكان ذلك يُضْفِي على المكانِ رُوحاً ساحرةً تملأُ النفسَ خُشوعاً وَرهْبَةً . وعلى جانِبَيْ السوقِ حوانيتُ كلُّها مُنشأةٌ على الطِّرازِ الشرقىِّ كثيرةُ الزُّخْرُف ، تري فيها المصاطِبَ ممتدَّةً بجوارِ الأبواب ، وعليها الطَّنَافِسُ يَقْتَعِدُها رُوَّادُ السُّوقِ وأمامهم النراجيلُ ينفثون منها الدخان المعَطَّرَ ، وكانت المجامِرُ على الأبوابِ تبعثُ بَخُورَهَا الذَّكِيَّ يتعالَى فى أشكال رائعة وينتَشِرُ فى الجوِّ كأنه أحلامٌ تتزايلُ ... وأظهرُ ما يمتاز به هذا المكانُ أن جميعَ من فيه من أصحابِ الحوانيتِ والعُمَّالِ يرتدونَ الملابسَ الشرقيةَ الزَّاهيةَ المبرقَشَةَ ، فكنتَ ترى غلامَ القهوةِ يهَرْوِلُ بسراويلِهِ المنتفِشَةِ ومن نِطَاقِهِ تُطِلُّ غدَّارَةٌ مُرَصَّعَة . وهو يحملُ أكوابَ القهوةِ الفوَّاحَةِ للزُّوَّار ، وهناك صاحبُ حانوتٍ واقفٌ بقامَتِه المبسوطةِ أمامَ الباب فى جُبَّةٍ وقَباءٍ حريريٍّ

وعمامةٍ مهيبةٍ يحيّي الناسَ فى أدبٍ بالغ يُذكّرُنا آدابَ العصورِ الخالية . ووقفتْ «كليوبترةُ» وزميلها مشدوهين يُطوّفانِ ببصرهما حولهما كأنهما فى عالَمِ الرُّؤى .
وسرعانَ ما وجدنا الأنظارَ تتجه نحوَ «كليوبترة» ، والهمسُ يتناثرُ شيئاً فشيئاً ، والناسُ يتجمّعونَ وهم يرمُقونها فى تطلّعٍ وفضول . وتزايدَت الزحمةُ وجعلَ لفظ «كليوبترة» يتنقّلُ على الأفواهِ سريعاً ، وأخذَ الناسُ يتدانونَ منها .. وظهر على الملكةِ شيءٌ من الحيرةِ ، ولم تدرِ ماذا تفعلُ ؟ أتشقُّ لها بين الزحامِ طريقاً أم ترتدُّ راجعةً من حيثُ أتتْ ؟ وما هى إلا أن استوقفها شيْخٌ مهيبُ الطّلْعة يرْفُلُ فى ثيابٍ من الدّمقسِ كأنه وزيرٌ من وُزراءِ السلاطين الغابرين ، فتقدمَ نحوَها وانحنى فى تحيةٍ كريمة ، وابتسمَ قائلا :
ألا تُشرّفُ مولاتى الملكةُ متجرى المتواضعَ ... ؟
فاستجابت «كليوبترةُ» لدعوةِ الرجل ، وتقدّمَ أمامنا يهدينا الطريقَ . واجتزنا ممرّاً تتدلّى من سقفه قناديلُ تُشعُّ مزيجاً من نورٍ خافتٍ تطمئنُّ به النفسُ ، وتسكنُ إليه الأعصابُ . وعلى جانبِه الأيمنِ منظرٌ من التماثيلِ يُصوّرُ سلطانةً فى أبهى زينتِها تحيطُ بها الجوارى يقُمْنَ على خدمتِها ...
فتقدمتُ من «كليوبترةَ» وهمستُ :
إنها يا مولاتى مخازنُ بنتِ السلطانِ التى ترغبين فيها ...
وبعد أن اجتزنا الممرَّ إذا بنا فى بهوٍ تحفُّ به أرائكُ فاخرةٌ مكسُوّةٌ بالمُخمل ، وقد بُسِطتْ أرضه بالطنافِسِ ونُثِرَتْ فى أنحائه النمارقُ الثمينة ، تتوسّطه نافورة ترسِلُ الماءَ فى حوضٍ مكسُوٍّ بالقاشانىّ ، وعلى حافاتِ الحوضِ تماثيلُ طيرٍ تحسُو الماءَ فى هيئاتٍ شتّى ، وفى جوانبِ الحوضِ وأعماقِه رُكّبتْ مصابيحُ ترقرقُ أضواؤُها المختلفةُ الألوانِ على صفحةِ الماء .
والتفت صاحبُ الحانوتِ إلى «كليوبترةَ» قائلا :

أيَّ مكانٍ تُؤْثِرِينَ يامولاتى ؟

فأجابت فى صوتٍ خافت ، وهى تُشيعُ بصرَها حولَها :

هنا على الحشايا بجانبِ البِرْكةِ ... !

وسَرْعانَ ماألفيناها تَثْنِى ركبتيْها على حَشِيَّة . وفعل كذلك « مارتنُ » بعد أن عانَى مشقَّةً لكى يتربَّعَ فى جِلستِه على النحوِ الشرقىِّ . وصَفَّقَ صاحب الحانوتِ يأمُرُ بالقهوةِ والنراجيل .

وصافحَت الآذانَ نغماتٌ موسيقيَّةٌ لَيِّنة هادئة كأنها آتيةٌ من بعيد ، فيها طابَعُ البداوةِ الساذَجةِ والإيقاعُ الشرقىُّ الصَّميم .

وسرعانَ ماعَبِقَ الجوُّ ببَخورٍ خفيفٍ طيِّبِ الأريجِ ، يشعُرُ به المرءُ وهو يَسْرِى في أوصالِه فيبعَثُ فيها سكينةَ الأحلام . وأسبلَتْ « كليوبترةُ » جفنيها وشاع على محيَّاها اطمئنانٌ جميل . وبعد هنيْهةٍ أقبل صاحبُ المَتجر عليها فى تلطُّفٍ جَمٍّ كأنه لايريدُ أن يُزْعِجَها في جِلْستِها الحالمة ، وقال لها وهو ينْحَنى أمامَها :

أتأذَنين فى أن نبدأ عَرْضَ الأزياءِ ، لَدَينا مجموعةٌ فاخرةٌ من أجملِ الأزياءِ العصرية ... لَدَيْنا أثوابُ السهرة ، أثوابُ الأصيل ، أثوابُ الرياضة ، مع ملحقاتِها من العصائبِ والحقائب والقُبَّعات وما إليها .

فأجابت « كليوبترةُ » وهى مُسْبلةُ الجفنيْن على حالِها كأنها تَهْمِسُ :

أريدُ أن أشهَدَ أزياءً شرقيةً خالصةً !

فقال لها الرجلُ وهو يَنْحَنى : أمرُ مولاتى ...

واستدعَى بعضَ عُمَّالِه فأصدَرَ إليهم أوامرَه ، وبعد لحظةٍ أقبل أحدُ الخَدَمِ بأقداحِ القهوة ووزَّعَها علينا ، وكانت الأقداحُ مُرَصَّعةً فى صِينِيَّةٍ فِضِّيَّةٍ عليها نقوشٌ شرقية رائعة ، وأقبلَ خادمٌ آخرُ بالنراجيلِ وكانت من البِلَّوْرِ المُفَرَّغِ ذى التصاويرِ المبرقشةِ بشَتَّى الألوان ... وانتقَى صاحبُ المتجرِ نارجيلةً تَفْضُلُ

أخواتِها أناقةً وحُسْناً . وتقدمَ بها إلى « كليوبترةَ » يقولُ :

ألكِ يامولاتى أن تجرِّبى هـذا الطِّباقَ العجميَّ الأصيلَ ، إنه أنْقَى طِباقٍ تُصْدرُه بلادُ فارسَ ... !

ولم يكد يُتمُّ جملتَه حتى وضَع النارجيلةَ عن كَثَبٍ منها وقَدَّمَ لها مَبْسِمَها العقيقيَّ تَرِفُّ منه وَمَضاتٌ تَخطَفُ الأبصار . فرَنَتْ إليها « كليوبترةُ » لحظةً صامتةً ثم همهمتْ : لم أجرِّب التدخينَ قبلَ اليومِ !

فتناولَ « مارتنُ » نَرْجيلَتَه وبدأَ يُعِدُّها وهو يقول الملكةِ :

لن تخسَرى شيئاً إذا دَخَّنْتِ ... !

فقالت « كليوبترةُ » : ولن أكسِبَ شيئاً ... !

وخطا صاحبُ المتجرِ بِضْعَ خُطُواتٍ من « كليوبترةَ » ، وقال وهو يَدْعَك يدَيْه في احترامٍ بالغ : بل تكسِبينَ كثيراً يامولاتى ... !

فقالت « كليوبترةُ » : أحسَبُكَ من أنصارِ التدخين ...

فقال الرجلُ مبتسِماً : ومن خُبَرائه الفنِّيِّين ... !

فقالت « كليوبترةُ » : انتهَى إلى عِلْمى أن الطِّباقَ لايخلو من سُموم .

فقال « مارتنُ » وهو يحاولُ أن يَجْذِبَ أولَ نفَسٍ من نارجيلته : لذلك فكَّرْنا نحن الأمريكانَ أن نتخلصَ منه بإحلالِ اللُّبانِ محلَّه ... !

فقال صاحبُ المتجر : وهل أفلحتُم ... ؟

فابتسمَ « مارتنُ » وقد نجح أخيراً فى إنطاقِ نارجيلتِه ، فجعلها ترسِلُ كَرْكَرَتَها الأصيلة ، وقال : حقاً لاأدرى ياسيدى ، ولكنها محاولةٌ محمودةٌ على كلِّ حالٍ فى سبيلِ مكافحةِ العاداتِ الضارَّة ...

فقال صاحبُ المتجر : لقد سبق لكم ياسيدى أن حاربتم الخمرَ فشاعَ بينكم ماهو أدْهى منها وأَخْطر ، فإذا حاولتم جادِّين أن تُحارِبوا الدُّخان وتُحِلُّوا

محلّه اللبّانَ ، فما أسرعَ أن نجدَ اللبّانَ هذا وقد انطوى على مُخدّرٍ يفوقُ في سُمّه سمَّ الدُّخان ... !

فتضاحكَ « مارتنُ » وقد اغتبطَ بكركرةِ النرجيلة ، فأخذ يتابعُ جَذْبَ أنفاسِه بسُرْعة . وقال مُوجّهاً الكلامَ لـ « كليوبترةَ » :

— إن صديقَنا هذا على جانبٍ من الحقّ ... !

والتفت إلى صاحبِ المَتْجرِ قائلا :

وبماذا تُفَسّرُ هذه الظاهرةَ ... ظاهرةَ إقبالِ الإنسانِ على ما يَضُرُّه ؟ !

فقال الرجلُ ، وقد راح يُشمّرُ كُمَّيْه :

— الأمرُ يسيرٌ ... غايةٌ في اليُسْرِ ... إن الضررَ يا سيدى عاملٌ أساسيٌّ في هذه الحياةِ لا غَناءَ للجنسِ البَشَريّ عنه ، والإنسانُ إذا لم يَحْصُلْ على هذا الضَّرَرِ بكمّيّاتٍ قليلةٍ مناسبةٍ فهو مُنْزلِقٌ إلى أن يناله بكمّيّاتٍ وافرة ، والجسم البشرىُّ في حاجةٍ إلى قِسْطٍ وإن قلَّ من السُّموم . لأنَّ على هذا القِسْطِ الضئيلِ يقومُ اتّزانُ الجسمِ واعتدالُه ...

فهمهمتْ « كليوبترةُ » : اتّزانُ الجسمِ واعتدالُه ... كيف ؟ !

فقال الرجلُ في لهجةٍ كلُّها رزانةٌ وثباتٌ : الصحّةُ المطلَقةُ ليستْ بالصحةِ الطيبةِ يا سيدتى .. ألا تعلمينَ أن الدَّمَ إذا زادَ عن حدِّهِ في الجسمِ احتاجَ إلى حَجّامٍ ليَفصِدَه ويكسِرَ من حِدّته ؟ ... إن جِسْمَ الإنسانِ يامولاتى ، ككلّ مُرَكّبٍ آخرَ من المركّبات ، قائمٌ على عُنْصُرَيْ الخيرِ والشّرّ . ولا يمكنُ أن نجدَ مركّباً خالياً من هذين العنصُرَيْن ...

فقالت « كليوبترةُ » : أنتَ يا صديقى تتكلّمُ في أسلوبٍ يُحاكى أسلوبَ الفلاسفة ، وحديثُ الفلسفةِ كلّه نظريّات ..

فصاحَ « مارتنُ » وهو ينفثُ الدخانَ جزافاً من فمه :

كلامٌ صائب ... الفلسفةُ النظريةُ سفسطةٌ ، لذلك رأينا نحن الأمريكانُ أن نتركها جانباً ونُحِلَّ محلها الفلسفةَ التجريبيَّة العمليَّة ...

وقالت « كليوبترة » : إن التدخينَ يغدو على مرِّ الأيام - كما يقولون - عادةً شديدةَ الوَطْأَةِ على المدخِّنين ، عادةً مستبِدَّة عاتيةً تُكَبِّلُهم بقيودٍ ثِقال .

فابتسمَ صاحبُ المتجرِ وقال : هـذا صحيح . ولـكنَّ الشجاعَ القويَّ الإرادةِ من يستطيعُ أن يجعلَ العادةَ طوعَ إرادتِه ، لا أن يَدَعَها تستبدُّ به ... !

فقال « مارتنُ » ، وقد أخذ يسبَحُ في شِبْهِ أحلامٍ عِذابٍ وهو يَجْذِبُ أنفاسَه ثم يُرْسِلُها دُخاناً كثيفاً :

العاقلُ الشُّجاعُ من عَرَفَ مواطنَ الشرِّ فتجنَّبَها ... !

فقال صاحبُ المتجر في حَماس :

لن يكونَ المرء عاقلا شُجاعاً أبداً إذا جلسَ على الشاطئ يرقُبُ النهرَ وهو يجرى بمائه الصافى الجميلِ ، بل العاقلُ الشجاع من استطاعَ أن يقذِفَ بنفسِه في لُجَّتِه ليجرِّبَ العوْمَ على مافيه من مغامرةٍ ، فيستمتعَ بلذَّتِه ، ثم يَخرُجَ بعد ذلك ناجياً مُعافى ... !

فتضاحكت « كليوبترة » وهى تقول :

مهما قلتَ ياسيدى فلن أُدخِّنَ من نارجيلتِكَ هذه ... فمعذِرةً ...

فابتسم الرجلُ وقال : الأمرُ لكِ يامولاتى على كلِّ حال .

وترك النارجيلةَ مكانَها بجوار الملـكة .

وفى هذه اللحظةِ دنا أحدُ عُمَّالِ المتجرِ من مُضيفِنا وهمس فى أُذنِه ببضعِ كلماتٍ ثم انصرفَ . فقال صاحبُ المتجرِ للملـكة : سنبدأُ العرضَ يامولاتى ...

وكانت الموسيقى ماتزالُ ترسلُ أنغامَها المُشبَعَةَ بالحنينِ كأنها تمثِّل سَيْرَ قافلةٍ تَعْبُرُ الصحراءَ ظاعنةً عن الأهلِ والوطنِ ، وكان البَخُورُ مابَرِحَ يَعقِدُ

سحائبه الرقيقة فتجوب آفاق المكان وتتسلل إلى نفوسنا تملؤها انشراحاً وبهجة.

وبعد قليل بدأ عرض الأزياء. فظهرت دُمية بشرية تتلألأ فى حلتها التركية ذات الصدار المزركش والسراويل الحريرية السابغة، عليها نطاق موشى يبهر العيون. وتبعتها دُمية أخرى ترتدى ثوب الفلاحة المصرية الفضفاض، وتجلجل بحليها التى تزحم صدرها وتحجب معصميها، وخلخالها يرن فى قدميها على إيقاع سوىّ. وتلتهما دُمية ثالثة ترتدى ثوباً بدوياً يتألف من عباءة حريرية هفهافة على لون البنفسج، وعقال مقصب، تحته خمار ناصع مطرز بالذهب. وتراءت بعدهن دُمية رابعة تمثل القادرية فى ملاءتها البلدية وعصابتها الساطعة الألوان ذات الهداب المصطف على الجبين ...

وتتابعت عارضات الأزياء يرتدين ضروباً من الزى الذى يمثل شتى أرجاء الشرق ... وكانت هاته العارضات يسرن فى لين وتخطر ليبرزن محاسن أثوابهن فى رشاقة ودلال، وتستدير كل منهن على عقبيها مرة بعد مرة طوعاً للنغم الموسيقى الهادئ الحنون. وكانت الأضواء المختلفة الألوان تسلط عليهن فى روعة وتفنن فتحيل هذه الدُمى السائرة أمام الأنظار أطيافاً شفافة من عالم الرؤى. وفى أثناء ذلك كانت «كليوبترة» مسترخية فى ضجعتها وهى تنعم النظر معجبة مأخوذة. ثم لمحت يدها وقد امتدت إلى مبسم النارجيلة وأدنته من فمها، ثم راحت تجذب الأنفاس فى رضا وسرور.

ومكثنا على هذه الحال وقتاً وكأننا فى حلم جميل. ثم انتهى العرض فرأينا «كليوبترة» تنهض وئيدة الخطو قاصدة إحدى المقاصير ومعها صاحب المتجر تتحدث إليه بمطالبها من تحف متجره. وبعد وقت خرجت إلينا ترفل فى ثوب أسيوطى أسود يلتمع فيه خيط ذهبى براق، وقد بسطت على منكبيها ملاءة بلدية وحلت رأسها بعصابة زاهية يسترسل هدابها على جبينها الوضاح.

وكانت تحاول إحكام لفّ المُلاءة على جسمها على نحو مارأت من الدُّمية التى تمثّل المرأة القاهريَّة . وأقبلت على « مارتن » تقول مبتسمة مداعبة :

ما رأيك فى هذا الزىّ يامارتن ؟ !

وكان « مارتن » قد فغر فاه وحملق ببصره فيها كأنه يريد أن يبتلعها بعينيه ، وهمهم : شيء من وراء العقول !

— اخترت هـذا الزىّ لأنه وطنىّ أصيل من صُنع بلادى . إنى به لمزهوّة فخور ... !

— إنه آية من آيات الإبداع الفنىّ !

— ومع ذلك هى ملابس متواضعة يامارتن ... اُنظر ... !

ودارت على عقبيها تبسُط الملاءة وتلمُّها متضاحكة ، وواصلت حديثها قائلة :

ليس فى هذا الزيّ شيء من تزاويق أزياء الأمراء والسلاطين !

— إنكِ الآن تمثّلين الملكة الديمقراطية الحقة التي ترغب فى أن تكون مع الشّعب قلبًا وقالبا ... !

— بل قل أُمثّل المصريَّة وكفى ... !

ثم أخذت تصعّد فيه نظرها قائلة : وأنت ؟

— ماذا ؟

— أتظل أمريكيًا على حالك ؟

— وماذا تريدننى أن أكون ؟

— ألا ترغب فى أن تكون مصريًا مثلى ؟

فانحنى أمامها قائلا : أنا كما تأمرين !

فأشارت « كليوبترة » إلى صاحب المتجر ، قائلة له :

عليك به ؛ اصبغه صبغة مصرية صميمة ، وعد به على عجل !

وما لبثْنا قليلا حتى عاد إلينا « مارتِنُ » فى زىّ عمدةٍ ريفىّ من عُمَدِ العهدِ الماضى ، وهو يَخُبُّ فى قَبَائه وجُبَّتِه ، والطَّرَفُ الكشميرىُّ يلتفُّ حول رقبتِه ويُغَطِّى كَتِفيه ، وعلى رأسِه عِمامةٌ مَهِيبة يترنَّحُ رأسُه تحتَها ، وفى قدميه مركوب أحمرُ يزهو ... وبيده مِسْبَحةٌ ذاتُ حباتٍ غِلاظٍ ، فما إن لَمَحَتْه « كليوبترةُ » حتى كركرتْ في ضِحْكَتِها ، وقالت لصاحب المتجرِ :

مَرْحَى ! لقد أحسنت صِبْغَتَه !

وتدانت من « مارتنَ » وأخذتْ بيدِه ، ثم واجَهَتْنا وهى تقول لى :

صارِحْنى ياحضرةَ السكرتير برأيِكَ فى زِينا ، بماذا تُشَبِّهُنا ؟

فلبثتُ متردِّداً لحظةً ، وأنا أُنَقِّلُ بصرى بينهما . وقالت « كليوبترة » :

تكلَّمْ ، ليس عليكَ من حَرَجٍ ، بماذا تُشَبِّهُنا ؟

فقلتُ بعد حَيْرَةٍ وتوقُّف : عمدةٌ من الرِّيفِ اختار عروساً قاهِرية ! ...

وخَشِيتُ أن تُحِسَّ « كليوبترةُ » من قولِى ما يُثيرُ غَضَبَها ... فبادرتُ أستَدْرِكُ خطئ قائلا : عَفْواً ... أقصِدُ ... أعْنى ...

فقاطعتْنى قائلةً : لقد أحسنتَ الوَصْفَ !

والتفتتْ إلى « مارتِنَ » تقول :

عمدةٌ من الرِّيفِ اختار عروساً قاهِرية ! ... والآن ياحضرةَ العمدةِ الهمامِ ، ماذا تقترحُ أن نَعْمَلَ ؟

فصاح « مارتِنُ » فى حماسٍ وفى لهجةٍ تمثيليةٍ :

إلى المأذونِ الشرعىِّ توّاً ... !

— إذن هَلُمَّ ...

وأخذتْ بيدِه وهما يتضاحكان ، واتَّجها إلى البابِ وأنا على أثَرِهما . وسمعتُها تقولُ لـ « مارتنَ » بعدَ لحظةٍ :

لقد أوصيتُ صاحبَ المتجرِ أن يُعِدَّ لنا أصنافًا من البَخورِ الممتاز ... إنَّ رائحتَه تسكُنُ إليها الأعصابُ ، وأعمالُ المؤتمرِ - كما تعلمُ - مثيرةٌ مُرْهِقة !

ثم نادَتْني وقالت : ماذا بَقِيَ علينا أن نزورَه الآنَ في هذه السُّوقِ العجيبةِ ؟!

فقلتُ لها : مُتْحَفُ الشمعِ يا مولاتي !

وانصرفْنا ، فرأيتُ « كليوبترةَ » تقفُ وقتًا لتُصْلِحَ هِندامَها أمامَ المِرآة .

وكان صاحبُ المتْجرِ يُرافقُنا إلى الباب ، فودَّعَنا أجملَ وَداعٍ ...

وسِرنا في الطريقِ المسقوفِ مُيَمِّمينَ شَطْرَ مُتْحَفِ الشمعِ ، فقالت « كليوبترة » :

ما أشدَّ ارتياحي لهذا الزِّيِّ الذي ألبَسُه ، إذْ أنه يُخفي شخصيَّتي ... لقد ضِقتُ ذَرعًا بانتهابِ الأنظارِ إيَّاي ... !

على أن أنظارَ السابلة قد ازدادت لها انتهابًا بخروجِها في هذا الزِّيِّ الطريف ، وخاصَّةً باصْطِحابِها لـ « مارتنَ » في مَظهرِه الجديد . وكانت الجموعُ تحتشِدُ وتُشيرُ إلى « كليوبترةَ » خُلْسةً وتتحدثُ في شأنِها هَمْسًا ، وتقولُ :

هذه كليوبترةُ في مُلاءةٍ بلدية ... هذه كليوبترةُ في خانِ الخليلي ... !

وسِرْنا على هذا النحوِ حتى بلغنا مُتحفَ الشمع ، واستقبلَنا مديرُه في حفاوةٍ رائعة ، وبدأ يطوفُ بنا قاعاتِ المتحَفِ ، فكان أولَ ماشهدناهُ قاعةَ « سِتِّ الملك » أُخْتِ الحاكمِ بأمرِ الله ! ... وكان المنظرُ يمثِّلُ هذه الأميرةَ وهي في موقفٍ رائعٍ أمامَ أخيها يُحيطُ بهما أُمَراءُ كُتامَةَ وأعيانُ الدَّولة .

ووقفتْ « كليوبترةُ » مبهورةً أمامَ هذا المنظرِ إذ كان تِمثالُ « ستِّ الملك » يُعبِّر عن شخصيَّةِ الملِكةِ ذاتِ الإرادةِ القوية والعزْمِ الشديد . وهي تتألَّقُ في زِيٍّ خَلَّابٍ ... ومالت « كليوبترةُ » على « مارتنَ » تقول له :

أتعرِف شيئًا عن هذه الملكة ؟

— أعترفُ لكِ بجهلي الصريحِ في هذا الموضوعِ ، ولكنني أستطيعُ أن أتحدَّث

عن تقسية صاحبة التمثال مستوحيا حديثي مما أظهره المثال البارع من قسمات وملامح .

— ماذا استوحيت ؟

— أراهن على أن هذه الملكة كانت مُنعمة بالحيوية وقوة الحس ، تضطرم جوانحها بحب ثائر ...

وتقدم مدير المتحف وقال :

تضاربت أقوال المؤرخين فى شأن ست الملك ... فمن قائل إنها كانت كثيرة العشاق غير متحفظة فى حبها ... ومن قائل إنها كانت قاسية على نفسها ظهراً وعفافة ، وقد قضت نحبها عذراء ...

فمال « مارتن » على « كليوبترة » ، وقال :

أخشى أن تكون كالملكة أليزابيث التى عاشت دون أن تتخذ لها زوجا ... سأهتم بهذه الشخصية ، وسأجلو أمرها يوما ، وقد أنظم عرضا مسرحيا تكون هى البطلة فيه .

فقالت « كليوبترة » : ليس مهما أن تكون قد تزوجت أو لم تتزوج ، وإنما المهم أن تكون قد استطاعت أن تتحكم في قلوب الرجال وأن تقرر مصائرهم كما تشاء !

ودخلنا بعد ذلك قاعة « هارون الرشيد » ، وكانت تمثل اعتلاء الخليفة الشاب سرير الخلافة ، وعن يمينه « الخيزران » أمه ، عليها مهابة الملك ، يزين رأسها شبه تاج ، وعن يساره « يحيى البرمكى » وحوله الأمراء والجوارى والغلمان .

وهمست « كليوبترة » مشيرة إلى « الخيزران » تقول : هذه ملكة أخرى !

وتقدم مدير المتحف قائلا : لقد كانت شخصية قوية تعد فى طليعة

الشخصيَّاتِ المُلوكيةِ فى التاريخ ، فلطالما أدارت دَفَّةَ الحكمِ خلفَ السِّتارِ ، ولطالما جرَتْ فى عهدِها أحداثٌ جِسام .

فقالت « كليوبترةُ » لـ « مارتنَ » : أُرَاهِنُ على أنك لا تعْرِفُ عنها شيئًا !

— الذى يَتَّضِحُ لى من مَظْهرِها أنها كانت شديدةَ الإسراف ... ألا ترَيْنَ اللآلئَ كأنها ثوبٌ يُغطِّيها ؟ !

— قد تُلْزِمُ الأحوالُ أصحابَ الشخصياتِ الكبيرةِ المطامِحِ أن يُجانبوا الاقتصادَ فى بعضِ الأشياء ...

وخرجْنا من هذه القاعةِ ، واجتزنا قاعاتٍ أُخَرَ ، كانت كلُّها تمثِّلُ مناظرَ من شخصياتِ الملوكِ والأمراءِ فى تاريخِ الشرقِ . وأخيراً دخلنا قاعةَ « كليوبترةَ » وكانت واقفةً تُجاهَ « أكتافيوسَ » ، على حينِ كان « أنطونيو » طريحًا مُثْقَلا بالجراحات ، وهى تمثِّلُ فى وِقْفتِها الملكةَ المصريةَ فى مَظهرِ الأنَفَةِ والكبرياءِ اللتيْن لم يُضعِفْ من حدَّتِهما ما كان يبدو عليها من حُزنٍ ولوعة .

ووقَفنا لحظةً يغشانا الصَّمتُ ، ثم قال « مارتنُ » لـ « كليوبترةَ » : أراضيةٌ أنتِ عن هذا المنظرِ ؟

— ماذا يَعيبُه ؟

ودنا منها هامِسًا وقال : أَوَقَفَ أمامَكِ أوكتافيوسُ حقًّا هذه الوِقفة ؟

فعبِثَتْ « كليوبترةُ » هُنَيْهةً بأطرافِ مُلاءتِها ، وقالت : إن أكتافيوسَ عاهلٌ عظيم ... !

— لا تروقُنى وِقفتُه أبداً ...

— لِمَ ؟ ...

— كان يجبُ أن يُصوِّرَه المَثَّالُ منحنيًا أمامَكِ ...

— ومن أدراكَ أنه قد انحنَى ؟ ... ولكنْ هذا الأنُفُ يامارتِنُ ؟

— أنفُ أو كتافيوسَ ؟

— بل أنفِي فى هذا التمثال ...

— ماله ؟ !

— أكذلكَ هو حقًّا ؟

وتحسَّسَتْ أنفها ، ورأينا « مارتنَ » يتحسَّسُ أنفه هو أيضًا .

وواصلتْ « كليوبترةُ » قولها :

ألا تلاحظُ أن المثالَ ضخَّمَ من أنفِي شيئًا ؟

فتضاحكَ « مارتنُ » وقال :

يقولون إنه لو كان أنفُكِ أصغرَ مما هو لملكْتِ أنتِ وأكتافيوسُ العالَمَ أجمعَ !

— هذه أقوالُ الناسِ ، فما قولكَ أنتَ ؟

فحدَّقَ فيها بُرهةً ثم قال : فى رأيى أنه لو كان أنفُكِ أصغرَ مما هو لما ارتقيْتِ ذِرْوةَ المُلْكِ التى وصلْتِ إليها ...

فوقفتْ « كليوبترةُ » برهةً ساهمةً ، ترنو إلى تِمْثالِها لا تَطْرِف . ثم رأيتُها قد التفتتْ نحوى بغتةً وقالت : ماالذى تعلمه عن أنطونيو ياحضرةَ السكرتير ؟

فقلتُ على الأثرَ : إن القيصرَ يامولاتى ملازمٌ مَخْدَعه !

فقال « مارتنُ » : أمريضٌ هو ؟

فقلتُ : إنه لايشكو عِلَّة . وأحسَبُه مُتْعبًا فحسْبُ ...

فهمهمتْ « كليوبترةُ » : لقد أسرفَ فى الشرابِ أثناءَ الحفلةِ ...

فغمغم « مارتنُ » :

إنى أعُدُّ نفسى مسئولًا عما لحِقَه . ولِزامٌ علىَّ أن أُصْلِحَ الأمرَ ...

— كيف ؟

— إن الفتاتيْن فلورا وجانيتَ تعملان على إفسادِه . يجب أن أُبعِدَهما عنه .

— أغدا أنطونيو طفلا تتلاعَبُ به الغاداتُ ؟ إنه ليُخجِلني أن أعلم أن رفيقاً من سُكّانِ العالَمِ الآخَرِ ، كلُّه طُهْرٌ وصفاء ، تَصدُرُ منه هذه الفِعالُ ...

فقال « مارتنُ » وهو يعبَثُ بقلَمٍ من أقلامِ الحبر التى تزحَمُ جيبَ صِدارِه :

أخشى أن تكونَ لدنيانا ، على ضآلتِها وتفاهتِها ، من القوةِ والبأسِ ما لا تستطيعُ معه أشدُّ العناصرِ وأمنعُها من الاحتفاظِ بشخصيتِها كاملةً لا تتغير ...

فرأيتُ « كليوبترةَ » تأخذُ طريقَها ، هيِّنةَ الخُطا ، إلى بابِ القاعةِ وهى تقولُ :

خَلِّ عنكَ هذا يامارتنُ ، إن دنياكم لأَضْعَفُ من أن تؤثِّرَ فى شخصيةِ بعوضة ... وعلى أيَّةِ حالٍ فأنطونيو بين يدي العالَمِ الرُّوحانيِّ وسيُعْفِيكَ من مئونةِ الاهتمامِ بأمره . سيَعْمَلُ على إعادتِه إلى موطِنِه الأصيلِ حيث كان ... ثِقْ بأنى قد نَفَضْتُ منه يدى . إن مشاغِلى التى جئتُ هذا العالَمَ فى شأنِها ، لأكبرُ من أن تدعَنى أُولِى أمرَ أنطونيو أقلَّ اهتمام ...

*

وخرجنا من مُتحَفِ الشمع بعد أن اجتزنا قاعاتِه ، وتَفَحَّصْنا شخصياتِه ، وعُدنا إلى الطريق المسقوفِ . وبدا على وجهِ « كليوبترةَ » ظِلٌّ من الهموم ، ولم تَعُدْ تتبسَّط فى الكلامِ . واجتزنا ببائعِ زهور ، فوقفتْ « كليوبترةُ » أمامَه وانتقَتْ مما عرَضَه عليها طاقةً من الفُلِّ على شكلِ تاج ، وكان قريبَ الشَّبَهِ بالتاج المرَصَّعِ الذى يَزِينُ رأسَ « الخيزُرانِ » في قاعةِ « هارونَ الرشيدِ » وخلعتْ « كليوبترةُ » عصابتَها البلديةَ وأحلَّتْ طاقةَ الفُلِّ محلَّها ، وقالت لـ « مارتنَ » وهى تناوِلُه العِصابةَ :

إنها تُضايِقُ رأسى ، وأراها لا تُجْدِى نفعاً في إقرارِ شَعرِى ، وهذه الطاقةُ أحسنُ ، لأنها من صُنْعِ الطبيعةِ ، وإنى أُوثِرُ الطبيعةَ فى كلِّ شىء ...

ومررنا بحانوتٍ يَعرِضُ فى وِجْهَتِه عَباءاتٍ حريريةً ثمينةً ، وأشار

« مارتن » إلى إحداها ، وكانت سماويّة اللونِ مُوَشّاةً بالقصب ، فقال :

إنها شديدةُ الشَّبَهِ بعَباءةِ « ستِّ المُلْك » التى شَهِدْناها فى مُتْحَفِ الشمع .

وما لبثْنا أن رأينا « كليوبترةَ » و « مارتنَ » يدخُلانِ الحانوتَ ثم يَخرُجان بعدَ قليل ، وقد استبدلتْ « كليوبترةُ » بُلاءتِها القاهريةِ تلك العباءةَ السماويَّةَ اللونِ ، وكانت تسيرُ فى خُطاً وئيدةٍ وقد رفعتْ هامتَها وأكسبتْ ملامحَها بعضَ مظاهرِ العظمةِ والُخيلاءِ .

واجتزنا الطريقَ صامتِينَ ، وركبنا السيارةَ عائدينَ إلى معبدِ أبى الهَوْل فى مِنْطقةِ الأهرام .

وكانت « كليوبترةُ » أثناءَ الطريقِ على حالِها ، نَزْرَةَ الكلامِ ، ساهمةَ النظرات . وكان « مارتنُ » يسارِقُها النظرَ دائماً ، مُتهيِّباً أن يُقْلِقَ سَكِينتَها .

ولما بلغنا المعبَدَ ، نزلتْ « كليوبترةُ » من السيَّارةِ ، فقال لها « مارتنُ » :

أرجو أن تكونَ الزيارةُ قد صادفتْ منكِ ارتياحًا !

— كلَّ ارتياحٍ يامارتنُ ... أشكرُ لكَ صُحبتَكَ إيَّاىَ ... متى أراكَ ؟

— وقتَما تشائينَ !

فقالت مسترسلةً : تعالَ بعدَ الغَداء ... بل تعالَ نتغدَّ معا ... إن ...

ثم توقفتْ عن الكلامِ كأنها تستدركُ مافرَطَ منها ، وإذْ بها تقول :

بل الأوْفَقُ تأجيلُ ذلكَ إلى فرصةٍ أخرى ...

— سأتَّصِلُ بكِ تليفونياً ...

— كما تشاء ...

وانحَنى على يدِها مقبِّلا ، ثم ودَّعَها .

وانتحتْ « كليوبترة » ناحيةَ المعبَدِ ، فتقدمْتُ منها وقلت :

أتريدُ منِّى مولاتى شيئًا ؟ !

— كلا ... أشكرُ لك ... متى يعودُ المؤتمرُ إلى الإنعقادِ ؟

— سأتعرَّفُ اليومَ موعدَ انعقاده ثم أُخبرُ مولاتى ... !

ومضيتُ أستطلعُ نبأَ المؤتمر ، فأُخبرتُ أنهم سيستأنفون عَقْدَ الجلسةِ صباحَ غدٍ فى الحاديةَ عشْرَةَ ، فسارعتُ إلى الإتّصالِ بالأعضاءِ أنقلُ إليهم ذلكَ الموعدَ ، ثم رجعتُ أدراجى إلى المَعْبَد لألْقَى « كليوبترةَ » ، وكان الوقتُ إذْ ذاكَ قُبَيلَ الغروب . ولما استأذنتُ عليها كانت فى القاعةِ الكبرى مع « أنطونيو » ، واقفةً قُبالَتَه فى كبرياءَ وتعاظُمٍ . وسمعتُه يقولُ لها :

لقد بَنَيْتُ عزمى على الرَّحيلِ غداً ...

فأجابته : ذكرتُ لكَ غيرَ مرةٍ أن مسألتَكَ بين يدَى العالِمِ الرُّوحانىّ ... !

— جئتُ لأُوَدِّعَكِ ...

— وقد وَدَّعْتَنى ... !

— أرجو ألّا تكونى قاسيةً إلى هذا الحدّ يا كليوبترة !

فالتفتتْ إلىَّ « كليوبترةُ » وقالت :

لقد انتهت زيارةُ القيصرِ ياحضرةَ السكرتير ... !

فشعرتُ بحَرَجٍ ، والتفتُّ إلى « أنطونيو » أستوضِحُ منه ماذا أفعلُ ... ومضتْ فترةٌ قَلِقةٌ ، كنا فيها نحن الثلاثةَ صامتينَ ينظر بعضُنا إلى بعضٍ ، ولكنْ سَرْعانَ ما أنقذنى أن التليفونَ أخذ يَدُقُّ ، فهُرِعتُ إليه ، ثم عدتُ إلى « أنطونيو » أقولُ له فى حَيْرةٍ :

الآنسة فلورا تطلبُكَ فى التليفون ياسيدى ...

فصاح بى : لا أريدُ التحدُّثَ إلى أحدٍ ... لا أريدُ ... !

— وماذا أقولُ لها ؟

— قل لها ما تريدُ !

وعُدْتُ إلى التليفون ، وأخبرتُ « فلورا » أن « أنطونيو » فى جَلسةٍ خاصةٍ مع بعضِ أعضاءِ المؤتمرِ . ولما عدتُ سمعتُه يقولُ لـ « كليوبترةَ » :

أعترفُ لكِ بأن موقفى فى الحفلة لم يكن بالحميد . ولكن ثِقى بأننى حَسَنُ النِّيَّةِ . وأن مابينى وبين الفتاتيْن ليس إلا صداقةً بريئةً .

فاشتدَّ توهُّجُ خَدَّيها واحتقانُ عينَيها ، وقالت فى صوتٍ مُتَهَدِّج :

لا يهُمُّنى نوعُ العلاقةِ القائمةِ بينَكَ وبينَهما ، الذى يهُمُّنى هو سلوكُكَ . سلوكُ كائنٍ من عالَمِ الرُّوحِ جاء إلى هذه الأرضِ ليكونَ نموذَجًا للطُّهْرِ والعَفاف .

فصاح فى حماس : مازلتُ نموذَجًا للطُّهْرِ والعفاف !

وعاد التليفونُ يُدِقُّ . وقصدتُ إليه ثم عدتُ وأنا أقولُ لـ « أنطونيو » :

الآنسة جانيتُ تطلبُكَ ياسيدى ... !

فصاح « أنطونيو » صيحةً مُنْكَرَةً :

قلتُ لكَ لاأريدُ أن أتحدَّثَ إلى أحد ... !

فصاحت « كليوبترةُ » قائلةً له :

بل يجب أن تذهَبَ أيها الأحمقُ السادِرُ لتتحدَّثَ إليها ، يجب أن تُتِمَّ مأساتَكَ المُخجلةَ وأن تجعلَ مَسْرَحَها مَسكَنى !

— لم أطْلُبْ من أحد أن يتحدَّثَ إلىّ . إنهما تُلاحِقانِنى ... !

— ياللزَّهْوِ ... ويا للفَخارِ ... حقًّا إنك قد رَبِحْتَ أكبرَ المعارِكِ خطرا أيها القائدُ العظيمُ بانتصارِكَ على قلبِ هاتيْن الغادتيْن ... مَرْحَى ... مَرْحَى ... !

فلمعتْ عينا « أنطونيو » غضبًا ، وقال :

إنك تُمعِنينَ فى إهانَتى ياكليوبترةُ ... فحَذارِ !

فوقفتْ أمامَه شامخةَ الأنف وقد عقدتْ ساعِدَيْها على صدرِها ، وقالت :

ماالذى تستطيعُ أن تَفْعَلَه أيها الأحمقُ ... ؟ !

— سَتَرَيْنَ ... !

ثم وجَّه الكلامَ إلىَّ قائلًا : قُدْنى إلى مكانِ التليفون ...

وهمَّ بالسَّيْرِ ، فرأيتُ « كليوبترةَ » قد ونَمَتْ قُبالَتَه تَمْلِكُ الطريق عليه ، وصاحت : أتجْسُر ؟ ...

— سأفعلُ مايروقُنى ... !

فهوتْ « كليوبترةُ » بكَفِّها على وجهِه وهى تُدَمْدِم : وقِحٌ ... سفيهٌ ... !

ورأيتُ « أنطونيو » وقد تصلَّبتْ عضلاتُه يقفُ أمامَها كالتمثالِ ، يحدِّقُ فيها صامتاً بعين تَقدَحُ شَرراً . وانقضتْ برهة . وكلٌ منهما واقفٌ تُجاهَ الآخر ، يرمُقُه شَزْراً ، ثم رأيتُ « كليوبترةَ » وقد حوَلتْ رأسَها عنه ، وسارت فى خُطُواتٍ مضطربةٍ إلى المقعَد وتهالكَتْ عليه ، وقد بدا عليها الضَّعْفُ والخَوَرُ وأخـــذ وجهُها يُمتَقَع . أما هو فارتسمَتْ على شفتيْه ابتسامةٌ هزيلة ... وبغتةً ألفيتُ « كليوبترةَ » ، وقد أخفَتْ وجهَها فى مِنديلها ، واندفعتْ تَنْشِجُ ... ولمحتُ « أنطونيو » يتَّجِهُ نحوَها بطيءَ الخُطَا ...

وأحسستُ أن موقِفى أصبح لامحلَّ له ، فتركتُ البَهْوَ منسحِباً ، أسيرُ على أطرافِ أصابعى ، وقد أخذ منِّى العَجَبُ كلَّ مأخَذٍ !

*

رجعتُ إلى منزلى لأستريحَ ، وأستعِدَّ لجلسةِ المؤتمرِ فى الصباحِ . فوجدتُ « عبدَ العالِ » الحاجبَ ينتظرُنى ومعه أوراقٌ ورسائلُ ، فأكببتُ عليها أتفحَّصُها وأُرتِّبُها . على حينِ مضى « عبدُ العال » يهيِّئُ لنفسِه مُغْلَى النَّعناعِ ... وعادَ بعدَ قليلٍ يحمِلُ الصِّينِيَّةَ ، وجلس على الأرضِ فى هدوءٍ يحتَسِى قَدَحَه ؛ وبعدَ أن أرسلَ تجشُّؤَةً ضَخْمةً ، سمِعتُه مغمغماً ، يقولُ :

أُريدُ الإفضاءَ بأمرٍ إليكَ ...

فقلت وأنا بتصفُّحِ الأوراقِ مشغول : قلْ ...

— أرغَبُ فى تقديمِ استقالتى !

فرفعتُ إليه وجهى ، قائلا : ماذا ... ؟

— أقولُ أرغَبُ فى الإستقالةِ من عملى ... إن الإستقالةَ معى ... وقد كتبْتُها ، وإنى أُقدِّمُها إليكَ ... إنها قانونيةٌ على ورقةٍ تمغة ...

وأخرج من جيبِه ورقةً مطويَّة ، وهمَّ بأن يقدِّمَها إلىَّ ، فقلتُ له :

لقد جُنِنْتَ حقًّا ياعبدَ العال ... !

— لماذا ؟ ...

— أيفرُّ القائدُ من المَوْقعَةِ وهو على وَشْكِ الإنتصار ؟ أَعَزَبَ عنكَ عُظْمُ الفائدةِ التى ستَجنيها بعدَ انتهاءِ المؤتمر ؟ ...

— أيةُ فائدةٍ ؟

— سيكونُ اسمُكَ فى الخالدينَ أيها الأبْلَه ... سيتردَّدُ ذِكْرُكَ فى العالَمينَ ... حاجبُ مؤتمرِ المدينةِ الفاضلةِ كلُّه ، أفى هذا تَزْهَدُ نفسُكَ ؟ ألا ماأغباكَ ... !

— لا يَهُمُّنى من ذلك شىء ، إنَّ متاعِبى التى تجشَّمْتُها فى المؤتمرِ لا حَصْرَ لها ... لقد ازدادَ تَأَبُّكُ مِعْدَتى واشتدَّ بىَ الإمساك ... !

— والمداليةُ الذهبيَّةُ التي تنتظِرُكَ ... ؟ !

— أتساوى كثيراً هذه المداليةُ فى الرَّهْنِ أو البَيع ؟

— إنها شرفٌ عظيمٌ ومجْدٌ باقٍ ! لماذا أجدُكَ دائمًا منصرفًا إلى المادَّة ؟

— إننى أبحثُ عن شىءٍ أُطْعِمُه وتَطْعَمُ منه أُسْرَتى ... ذلك هو المجدُ الباقى والشرَفُ العظيم ... !

— تصوَّرْ ياعبدَ العال ماستشعُرُ به من غِبْطةٍ وفخرٍ حينما تعلمُ أنك أحدُ الذين وضعوا للعالَمِ أُسسَ الطُّمأنينةِ الأبديَّةِ والسلامِ العامِّ .

— اِسمح لى ياسيِّدى أن أُصارِحَك بأنك قصيرُ النظرِ ... أراكَ شديدَ التفاؤلِ بنتائجِ المؤتمر ... !

— ماذا ؟ ألا تُقدِّرُ لهذا المؤتمرِ نجاحاً ؟

— بعدَ هذه الحفلةِ التى شَهِدْتُها وكان حاضِرَها أعضاءُ المؤتمرِ لن أُقدِّرَ للمؤتمرِ أىَّ نجاح ... ألم ترَ سُلوكَ الأعضاءِ وما أظهروه من نَزَواتٍ ومَعايثَ ؟ أخليقٌ هذا بمؤتمرٍ يفكِّرُ فى نعيمِ البشر ؟ ! ألم ترَ مافعله مندوبُ البلاغةِ الدوليةِ فى حَلْقةِ الرَّقص ؟ ... وهذا الأميرُ التَّتَرِىُّ الذى طالما أفضْتُم فى حديثِ شجاعتِه ، وأنه قد نَزَلَ من العالَمِ العُلْوِيِّ لِيُصْلِحَ ماأفسدَه الدهرُ فى عالَمِنا المَوْبُوءِ ... لقد كان مَنْظَرُه كالأطفالِ وهو يراهِنُ فى حَلْبةِ السِّباق !

— إنه لَهْوٌ بَرِىءٌ ، وإنه تنفُّسُ الراحةِ بعدَ العناءِ والكَدِّ ... وأنت ياعبدَ العال ... ألم ترقُصْ مع الراقصين ؟

— رقصتُ وطَبَّلْتُ وزَمَّرْتُ ... ولكن من أنا بجانبِ هؤلاء ؟ على أنى كما ترانى أُقدِّمُ إليكَ استقالتي !

وجَرَعَ من قَدَحِ النَّعناعِ جُرْعةً وافرةً ، فحدَّقْتُ فيه مَلِيًّا ، وقد شَغَلنى التفكيرُ فيما قال ، ثم قلتُ له :

ألا تُناوِلُنى قدحاً من نَعْناعِكَ المُغْلَى ؟

---

٢٨ يناير

فى صَباحِ هذا اليومِ خرجتُ مبكّراً إلى المَعْبَدِ ، فقابلتُ كَبِيرَةَ الوصائف وسألتُها قائلاً : كيف الحالُ ؟

— نِعْمَ الحالُ ياحضرةَ السكرتير .

فدَنَوْتُ منها ، وأنا أقولُ خافِضَ الصَّوْتِ :

كيف انتهتْ زيارةُ أنطونيو ؟

فابتسمتْ ابتسامةً لطيفةً ، وهى تقولُ :

لقد تناولَ العَشَاءَ مع كليوبترةَ على ضَوْءِ القمر بجوار أبى الهول . وكثيراً ما كانَ فى أثناءِ الطَّعام يَنْحَنِى على يَدِيْهَا يَلْثُمُهُمَا ...

— وهى ؟

— لقد راجَعَها صَفَاؤُها ...

— حَمْداً لله ... !

ورأيتُ الوصيفةَ تدنو منى وتَهْمِسُ فى أُذُنى :

أتعلَمُ ؟ لقد سَمِعْتُ أطرافَ حديثٍ بينهما يتعلَّقُ بمعهدِ تجميل وطبيبٍ روسىٍّ مشهورٍ يُجيدُ الجِراحَةَ لِزِينَةِ الوَجْه ...

— مُدْهِش ...

— والأدهشُ من ذلك أنه قد وصلتْ إلينا بضائعُ من مخازِنِ بنتِ السلطان فيها ملابسُ مختلفة ...

وفى تلكَ الفترةِ سَمِعْنا جلجلةً بالباب ، وإذا « زَيْن السيوف باشا » يظهر بغتةً ، ويدخلُ بخُطُواتِه الثقيلةِ ، وقامتِه الفارِعَةِ يتلفَّتُ حواليْه متفحِّصاً ، وقد

زَوَى ما بين حاجبَيه ، وسألَ عن « كليوبترةَ » من فَوْرِه ، فأخبرتُه بأن الملكة لم تغادِرْ بعـدُ مَخْدَعها ، وأشرتُ إلى مَقْعَدٍ يجلِس عليه ليستريحَ ، فأجابنى فى لهجةٍ مقتَضَبة : حسَنًا ... حسَنًا ...

ولم يَقْصِدْ إلى المَقْعَدِ ، بل جعل يَذْرَعُ القاعةَ ذهابًا وجَيْئةً ، ولاحظتُ أنه يحمِلُ فى يدِه عُلْبةً ضخمةً ثمينةً ، أكبرُ الظنِّ أنها من عُلَبِ الحلْوَى ، ولم يشأْ أن يتركَها ، بل ظلَّ يحملُها فى جَيْئَتِه وذَهابِه .

وبعدَ حين فُتِحَ بابُ المَخْدَعِ وظهرت منه « كليوبترةُ » ، وكانت ترتدى عَباءةً وشيبةً لم نَرَها ترتديها من قبلُ . وهى من طِرازِ عَباءةِ « ستِّ الملك » وقد حلَّتْ جبهتَها بتاج مرصَّع يُشبِهُ تاجَ الخيزُرانِ . وما إن رآها « زينُ السيوف باشا » حتي هَرْوَلَ إليها يُحيِّيها ، فاستقبَلَتْه بابتسامةٍ مصنوعة ، وحيَّته فى تلطُّفٍ ينطوى على تكلُّف . والتفتتْ إلىَّ تقول :

هل السيَّارةُ مُعَدَّةٌ ياحضرةَ السكرتير ؟

— إنها بالبابِ يامولاتى ...

— نخْرُج إذن ... !

فقال « زينُ السيوف باشا » : ألا تسمَحِينَ لى بكلمة ؟ !

— سنذهبُ معًا ياجنرال ... ألا تريدُ ؟

— لم تـكنْ بالحفلةِ الناجحة ـ حفلةِ جمعيَّةِ الرغيفِ الأسودِ ... لقد أحسنتِ بانصرافِكِ عنها ...

— كنتُ مُتْعَبةً ...

— لقد بحثتُ عنكِ كثيراً ، فأخبرونى بأنكِ غادرتِ المكانَ ... كنتُ أرغَبُ فى أن أصحَبَكِ ... !

— لاعليكَ ... كان وجودُكَ بين أعضاءِ المؤتمر ضروريًّا ...

— ولكن كان واجباً علىَّ أن أصحبك ... لا أدرى كيف اختفيتِ من الحفلةِ سريعاً !

— قلتُ لكَ كنتُ مُتْعَبةً ...

وتهيأتْ « كليوبترةُ » للخروج ، فدنا منها فى تَضَرُّعٍ ، وقال وهو متلجلجٌ :

أرجو ألَّا يكونَ قد ضايقكِ منى فى تلكِ الليلةِ شىء ! ...

— كنْ على ثقةٍ أنه ليس فى الأمر مايستوجبُ المؤاخذةَ ...

وتابعتْ خُطواتِها ، فلاحقها وهو يقول : أرغبُ فى صَفْحِكِ ... !

— عن أىِّ شىءٍ تطلُبُ الصَّفْحَ ياجنرالُ ؟ !

— سننْسَى كلَّ ماوقَع ...

— لم يَقَعْ شىء يَقْتَضِى النِّسيانَ !

والتفتتْ إلىَّ تقول : تقدَّمْنا ياحضرةَ السكرتير ...

وذهبتُ من فورى أفسَحُ الطريقَ ، وأطلُبُ السيارةَ .

وركبْنا جميعاً ، فانطلقتْ بنا السيارةُ إلى قصرِ الورد . وغَشِىَ « كليوبترةَ » و « زينَ السيوف باشا » الصمتُ برهةً ، وكان صمتاً قَلِقاً ، حاول « زينُ السيوف باشا » أن يقطَعَه بكلمةٍ أو بسَعْلةٍ فلم يُفْلِحْ ، واستطاع أن يَنْبِسَ بعدَ حينٍ بعباراتٍ كانت « كليوبترةُ » تُجيبُ عنها بأجوبةٍ خاطفةٍ لم تَخْلُ من أدب . ولما بلَغْنا قصرَ الورد تركْنا السيارةَ ، ولاحظتُ أن « زينَ السيوف باشا » قد بدا عليه تجَهُّمٌ واضح . وصعِدَت « كليوبترةُ » في دَرَجِ القصر ، وكان بعضُ الأعضاء واقِفينَ في أعلى السُّلَّم ، فما إن لَمَحوها حتى هبَطوا إليها يستقبلونَها ويُحيُّونَها ، وكان أسبقَهم « أنطونيو » إذْ قفزَ إليها يُحيِّيها في ابتهاجٍ وإشراق ، فردَّتْ « كليوبترةُ » تحيتَه فى لُطْف بالغ . وأحاطَ بها الأعضاء ، وصعِدوا جميعاً معها إلى البهْوِ الكبير . وكانت تُضاحِكُهم

فى رقةٍ ومجاملة . واشتبكَ الجمعُ فى حديثِ مؤانَسةٍ ، على حين كان «زينُ السيوف باشا » على أوّلِ دَرَجِ السُّلَّمِ واقفاً يُحمْلِقُ والثورةُ تتأجّجُ في قلبِه . وفجأةً ألفيتُه يقـذِفُ بالعُلْبةِ من يدِه ، ويَرْكُلُها بقدَمِه رَكْلةً شديدةً بَعْثَرَت محتوياتِها من الحَلْوَى ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ ، فتهافَتَ خَدَمُ القصر وحُرّاسُ السياراتِ يلتقطون الحَلْوَى .

ورأيتُ « كليوبترة » تنتَحِى ناحية بـ « أنطونيو » ، وصافَحتْ أُذُنِى من حَديثِهما كلماتٌ : مَعْهَدِ التجميل ، الجَرّاحِ الرُّوسِىّ ... وكانتْ وهى تحدِّثُه كأنها تُوصِيهِ بأن يُؤدِّىَ لها مُهِمَّةً . وسرعَانَ مانَزَل « أنطونيو » مغادِراً قَصْرَ الورد .

وبعد فترةٍ حضر العالِمُ الرُّوحَانِىُّ فى صُحْبَةِ رئيسِ المؤتمر . وما إنِ انتهتْ واجباتُ التحيَّةِ والترحيب ، حتى رأيتُ العالمَ الرُّوحَانِىَّ قد أخذ بيدِ « كليوبترةَ » جانباً ، وسمعتُه يقولُ لها : لقد اعتزمْتُ أمراً فى شأنِ أنطونيو . إنى قَضَيْتُ شَطْراً من الليلِ مُتَّصِلاً بالعالَمِ الأَثِيرِىِّ ، فانتهيتُ إلى أن إرْحالَه لابدَّ منه ...

— بين يَدَيْكَ أَمْرُه ... !

— لقد أوْصَيْتُ بطائرةٍ أَثِيرِيَّةٍ لِتَقِلَّه .

— أَتَرَى أن العودةَ أصْلَحُ لحالِه ؟

— البيئةُ هناكِ لها أَثَرُهَا فيهِ . أمّا هُنا فإِنى أخشى عليه الفسادَ . وقد ظهرتْ عليه بوادِرُه !

— أنت تعلَمُ أن أنطونيو لابدَّ له من هادٍ ، هادٍ ناصِحٍ يلازِمُه ... فهل تُظنُّ أنه واجدٌ ذلك الناصحَ الهاديَ هنالِكَ ؟

— لاأجزِمُ بشىء ... وكنتُ أظنُّه سيكون تحتَ إشرافِكِ هنا ، ولـكنكِ أخبرتِنى أنك تخلَّيتِ عنه ...

— الرأيُ عندى أن تتولَّى أنتَ الإشرافَ عليـه ، لنرَى ماذا

يصيرُ إليه أمرُه ... !

— ولم لا يكونُ تحتَ إشرافِكِ أنتِ وقد كنتُما معاً فى العالَمِ الآخَرِ ؟

— إن مشاغِلى كثيرةٌ ، وليس فى مُستطاعى أن أَزِيدَها ... ولكنَّكَ إذا أصرَرْتَ فإنى لا أرفُضُ لكَ مَطْلَبَك ، على أن تشتركَ معى في ملاحظَتِهِ ورعايتِه .

فأخذ العالِمُ الرُّوحانىُّ ينظرُ إليها مَلِيًّا مُتفحِّصاً مفكِّراً ، ثم همهمَ :

لا بأسَ ... لا بأس ...

وظهرَ آنئذٍ مندوبُ البلاغةِ الدَّولية يَرْفُل في حُلَّةٍ بالغةِ الأناقةِ ، على رأسِه قَلَنْسُوَتُه التقليدية ، وفي يدِه عصاهُ الثمينةُ ، وشاهدْنا خلفَه « زينَ السيوف باشا » مجاهداً فى كَبْحِ غَضَبِه ، والظهورِ بالمظهرِ المألوفِ وهو يُحيِّى الحاضرينَ تحيةً عابرَة ... وتتابَعَ الجمعُ على قاعةِ المؤتمر . وفيما هم يتوافَدونَ إذْ بـ « تيمورلنكَ » مُقْبِلٌ يزحَمُهم متوكِّئاً على عصًا غريبة الشكل ، وأقبل على الأعضاءِ يحيِّيهم في بِشْرٍ وطَلاقة . وقد لَفَتَت العصا أنظارَ الزملاءِ فتناقَلوها يتفحَّصونَها فى إعجاب .

وكانت قويَّةَ الساقِ ذاتَ عُقَدٍ كثيرة ، كأنها جِذْعُ شجرة اجتُثَّتْ من الأرضِ ، وكان لها مَقْبِضٌ على شكلِ طائرٍ نادِرٍ ...

وأخذ « تيمورلنكُ » يقول : لقد اضْطُرِرْتُ إلى استعمالِ هذه العصا مع بُغْضى لها ... إن ساقِى عادتْ تَوْجَعُنى !

فابتسم العالِمُ الروحانىُّ ابتسامةً خفيفةً وقال :

إنها على كلِّ حال رمزُ الضَّرْب والحرب ...

فقال « تيمورلنكُ » : لولا اضطرارى إليها لما حَمَلْتُها بيدى !

فاشرأبَّ مندوبُ البلاغةِ الدَّولية قائلا :

إن عصاى لا تفارِقُنى دائماً وإن كنتُ لا أتَّخِذُها لِحَرْبٍ ولا لِضَرْب !

فدنا منه وزيرُ المناطِقِ الجنوبيَّةِ السَّبْعِ ، وهو يَدْرُج بجسمه المتكتِّلِ القصير ووجْهِه المقبَّبِ ، وقال لمندوبِ البلاغةِ وعلى وجهِه ابتسامةُ دُعابةٍ :

ولِمَ تتَّخذُها إذن ؟

فقال مندوبُ البلاغة الدَّوْلية : إنى أعتبرُها صديقاً وفيًّا أركَنُ إلى صُحْبتِه وأُصْغِي إلى أحاديثِه مستلهماً إيَّاه حَلَّ المعضِلاتِ ...

وكان « زينُ السيوف باشا » يبدو في وِقفَتِه الصُّلْبَة منهمكاً في فَتْلِ شارِبِه ، فقال :

إن العصا يَصِحُّ أن تكونَ سلاحَ دفاعٍ لاسِلاحَ هجومٍ ، فليس فى تَحَمُّلِها ضرَر .

فربَّتَ « تيمورلنكُ » كَتِفَه قائلاً :

إن السلاحَ مكروهٌ على أيَّةِ حال ، ويجبُ أن تعْترِفَ بهذه الحقيقةِ .

ولَفتَ نَظَرَ الجمعِ مَقْبِضُ العصا على شَكلِ الطَّائرِ ، فأخذُوا يتحدَّثون فى شأنِه فمِنهم من قال : إنه ضَرْب من الخفافيش ، ومنهم من قال : إنه قريبُ الشَّبَه بالببْغاءِ ، ومنهم من قال : إنه الرُّخُّ ... وكان « زينُ السيوف باشا » ومندوبُ البلاغة الدَّوْلية صامِتَيْن يُصْغيانِ وينظران إلى المَقْبِض ، فانبرى مندوبُ البلاغة يقولُ فى تُؤدَةِ الواثِقِ : مالكم تختلِفُون ؟ إن نِصفَه الأعْلَى على شكل الأَنُوقِ ، ونِصْفَه الأدنى على شكلِ العَنْقَاءِ ، وهذا رَمْزٌ يُمَثِّلُ العِزَّةَ والمباهاة ...

فابتسمَ « تيمورلنكُ » والتفتَ إلى « زينِ السيوف باشا » وقالَ له :

وأنت مارأْيُك ؟

فقال فى مَنْطِقِ المُعتَزِّ بما يقولُ : يَلُوحُ لى أنه نَسْرٌ من النُّسور الفواتِكِ !

فرأينا « كليوبترة » تقولُ على الفَوْر : كلا ... كلا ... أراكَ بَعُدْتَ عن الحقيقةِ ياجنرالُ ... إن الطائرَ عليه ملامِحُ الوَدَاعة ... !

فحاولَ « زينُ السيوف باشا » أن يقتربَ من « كليوبترة » فتباعَدَتْ عنه ...

وهنا هَزَّ مندوبُ البلاغةِ الدَّولية عصاهُ فى يدِه ، وقال :

لا تُتْعِبُوا أنفسكم فى غيرِ طائل ، قلتُ لكم نصْفُه الأعلى طائرُ الأَنُوقِ ونصفُه الأدنى طائرُ العَنْقاءِ .

ورأينا « عبدَ العال » الحاجبَ يتدانى في خُطُواتٍ زاحفةٍ ، وهو يرمُقُ تمثالَ الطائر ، ويقول : إن أَذِنْتُم ياسادةُ قلتُ كلمةً فى هذا الموضوع ...

فابتسمَ العالِمُ الرُّوحانىُّ ، وقال : تقدَّمْ ... تقدَّمْ ...

على حينِ كان وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْعِ قد عَبَس وغمغمَ مستنكِراً تدومَ الحاجبِ واختلاطَه بأعضاءِ المؤتمر ... وكذلك لم يستطِعْ مندوبُ البلاغةِ أن يُخفِى تأفُّفَه ... وتفحَّصَ « عبدُ العال » تمثالَ الطائر وهو يقول :

لاشكَّ أن هذا الطائرَ قريبُ الشَّبَهِ بالحمام !

فقال « تيمورلنكُ » :

لقد أصبتَ أيها الحاجبُ ... وإنى أهنِّئُكَ ... !

وضربَ بيدِه كَتِفَ « عبدالعال » ضربةً أبعدَتْه عن الجمع .

والتفَّ الجمعُ حولَ « تيمورلنكَ » قائلينَ : أحمامةٌ حقًّا ؟ !

فوقف « تيمورلنكُ » وسْطَ الحلْقةِ ، وأخذ يتكلمُ بلهجةِ المحاضِرِ المَهيب :

إن هذا التمثالَ أيها السادةُ يصوِّرُ الحمامةَ التى بعثَ بها نوحٌ من سفينتِهِ إلى الأرضِ تستطلِعُ أخبارَ الطُّوفانِ ... وهى من الحمامِ البُدائىِّ المتفرِّعِ من طَيْرٍ آخرَ فى سُلَّمِ التطوُّر ...

فهمهم الجمعُ قائلين : من أينَ دلمتَ هذا ؟ ...

— لقد جُبْتُ أنحاءَ القاهرةِ أبحَثُ عن عصاً توافِقُ مِزاجى ، فعثرتُ على هذه العصا عند بائعِ التُّحف ، وقد أكَّدَ لى أن الحفَّارَ رسَمها مستوحيًا حمامةَ نُوحٍ !

فقال العالِمُ الرُّوحانيُّ : عجيبٌ هـذا ! ... إن الأسطورةَ والعلمَ ليتّحِدان فى هذا الطائر ! ... ولـكنّ الأعْجَبَ أن يهتدِيَ عبدُ العال إلى حقيقةِ التمثال ، وكلُّنا غفَلَ عنها ...

وكان وهو يقولُ ذلك ينظرُ إلى « عبدِ العال » نظْرَةَ ملاطفةٍ وتودُّد .

فقال « عبدُ العال » وهو ينظُر إلى « تيمورلنكَ » نظْرَةَ مُداهنةٍ وحَذَر :

لم أُجْهِدْ نفسى كثيراً ياسيدى العـالِمَ فى معرفةِ ذلك ... حسبى أنى على يقينٍ من أن تيمورلنكَ العظيمَ لن يختارَ إلا شيئاً يمثِّلُ الوَداعةَ والمحبةَ والسلامَ ، ومن أحقُّ بهذا كلِّه من الحمام ! ...

فقهقهَ « تيمورلنكُ » يقول : أنتَ رجلٌ داهيةٌ أيها الحاجبُ !

وما عَتَّمَ أن وقعتْ عينُه على ساعةِ الحائطِ ، فقال :

لقد أطلْنا الحديثَ فى العصا أيها الرِّفاق ... إن جدولَ الجلسةِ مشحون .

ثم ضربَ بعصاهُ الأرضَ ، ورفعَ عقيرَته قائلا بلهجةِ الآمِر :

إلى المقاعِدِ أيُّها الرِّفاق !

وانبعَثَ الجمع ، وأخذ كلٌّ مكانَه من المجلِس ، واتخذتْ « كليوبترةُ » مقعدَها بجانبِ الرئيسِ ، وجلس « تيمورلنكُ » من يمينِها . أما مندوبُ البلاغةِ الدولية فقد استقرَّ فى مَقْعَدِه بعد أن استوْثَقَ أنهم جاءوا له بالوسائد والحشايا ...

وسمِعْنا « تيمورلنكَ » يعلو صوتُه قائلا :

والآنَ ياحضرةَ السكرتير ... اِقرأْ مالَديك ...

فرأينا رئيسَ المؤتمر يقومُ ، وقد ارتسمتْ على وجهِه أَماراتُ الِامْتعاض ، وأخذ يحُكُّ بإصبعِه جِلْدَةَ رأسِه الأصلعِ ، وقال وقدالتفتَ إلى « تيمورلنكَ » :

لم نفتتِحِ الجلسةَ بعدُ أيها الزميلُ الموقَّرُ !

ثم صمتَ وقتًا ، وأخذ يقلِّبُ أوراقاً بين يدَيه ، وبعد تنحْنُحات أطالها

عامِداً ، قال بصوت جَليّ : فُتِحَت الجلسة ...

ثم جَلس متمكِّناً فى مَقْعَدِه ، ولكنه ما كادَ يفعل ، حتى صاح « تيمورلنكُ » :

اِقرأْ جدولَ الأعمالِ ياحضرةَ السكرتير ...

فوقفتُ قائلا :

إن فى رأسِ الجدولِ إقرارَ صيغةِ المادَّةِ الأولى من مِيثاقِ السلام ...

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ :

ألم نَفْرُغْ بعدُ من الصِّيغةِ ؟ أَحْسَبُنا قد انتهَيْنا منها ... المسألةُ هيِّنة ...

اُكْتُبْ : الحربُ ممنوعةٌ بتاتاً فى أىِّ وَضْعٍ من أوضاعِها ...

فنهضَ « زينُ السيوف باشا » بقامتِه الفارعة ، وقال :

يجبُ أن تفسِّرَ مدلولَ كلمةِ « حربٍ » .

فهبَّ مندوبُ البلاغةِ الدولية ، وقال :

أجلْ ، يجبُ أن نبحثَ لفظةَ « حربٍ » .

ثم تلفَّتَ حولَه ، وغمغم فى تضايُق :

أينَ خِزانةُ الكُتب ؟ لماذا لم يُحضِروها لى ؟ !

ورمَقَ « عبدَ العال » شزْراً ، وصاح بصوتٍ مُتَحَشْرِجٍ : ألا تعرفُ أيها الحاجِبُ البليدُ أن خِزانةَ الكتبِ يجبُ أن تكونَ حاضرةً بجانِبى ؟ !

فنظر إليه « عبدُ العال » لحظةً متأمِّلا ، ثم همهم :

سأُحْضِرُها على الفوْر ...

وخرج عَجِلاً . ورأينا مندوبَ اتحادِ أُورُبَّةَ الشماليةِ بقامتِه العَجْفاءِ وقد انطلق منهمكاً يمسَحُ نظارتَه الفَرْدِيَّةَ ويُثَبِّتُها على حُقِّ عينِه ، وقال :

ألا تَرَوْنَ أيها الزملاءُ الأجِلاء ، رَعْياً لأُصُولِ المجامَلةِ ، أن نبعَثَ برسالةٍ إلى مندوبِ جمعيةِ الرَّغيفِ الأسود نشكُرُ له ما لَقِينا من حَفاوةٍ بالغة ؟

فتعالتْ أصواتٌ قائلةٌ : رأىٌ صائب !

وقمتُ أُنبِّهُ الرئيسَ إلى مسألةٍ ذاتِ شأن ، وقلتُ :

بهذه المناسبةِ أُخبرُ سعادةَ الرئيس أن لدينا برقياتٍ ورسائلَ وصلتْ إلينا من هيئاتٍ مختلفةٍ تشكرُ مَسْعَى أعضاءِ المؤتمرِ فى معونةِ جمعيةِ الرغيف الأسود بحضورِ ذلك الاحتفال .

ثم أخرجتُ من الحقيبةِ رِزْمةً ضخمة ، وأشرتُ إليها ، فقال الرئيسُ :

اِقْرأْها رسالةً رسالة !

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ : يبدو أن عددَها كبير ...

فقال وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْع :

أَقترحُ تأليفَ لجنةٍ لقراءةِ هذه الرسائلِ والرَّدِّ عليها ...

فنهضَ مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشماليةِ يقول : مازلتُ عند رأيى الذى أبديتُه فى مناقشةٍ سابقةٍ من أن اللجانَ أكبرُ معطِّلٍ لإنجازِ الأعمالِ ...

فأسرع وزيرُ المناطقِ الجنوبية السبعِ يقول ، والكلماتُ تتراقصُ على شفتيْه فى تَأتأةٍ بالغةٍ : ولكننا أمامَ عشراتٍ من الرسائلِ ... أيرغبُ العُضوُ المحترمُ فى أن نُضيعَ وقتَنا فى قراءتِها ؟ ! ...

فنهضَ مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلَى ، وقد انتفشَ عُثْنونُه ، وقال :

يجبُ أن نَطَّلعَ جميعًا على هذه الرسائل ! ...

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ : ألا نَفْرُغُ أولًا أيها الزملاءُ المُبَجَّلونَ من وَضْعِ المادةِ الأُولى من ميثاقِ السلام ؟ !

فعلَا مندوبُ البلاغةِ بكتِفَيْه ، وقال :

لم يُحضِرُوا لى بعدُ خِزانةَ الكتب ... أين الحاجبُ البليدُ ؟

وقال « تيمورلنكُ » فى صوتٍ عريض : يجبُ أن نعلمَ على الأقلِّ أسماءَ

من بَعَثُوا إلينا بهذهِ الرسائلِ ! ... اِقرَأْ ياحضرة السكرتير ...

وبسطتُ الرسائلَ أمامي ، وجعلتُ أقولُ : من الشُّعْبَةِ الدَّوليةِ لمحاربةِ الفاقة ، من هَيْئَةِ الرِّفْقِ بالعُرَاةِ ، من جماعةِ المطالبةِ بالعَدَالةِ الاجْتماعية ، من رابطةِ مُقاوَمةِ الجُوعِ ، من اتحاد جمعياتِ الفَرْدِ المجموع ، من ...

وهنا قاطعَنى وزيرُ المناطِقِ الجنوبيَّة السَّبْعِ ، يقولُ : لقد كان معنا مندوبُ ذلك الاتِّحادِ فى الحفلة ، رجلٌ نشيطٌ نَهَّاض صادقُ الرغبة فى خِدْمَةِ البشريَّة .

فقال مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلَى : وقد خَسِر في السِّباقِ خسائرَ فادحةً ... لقد كان مُتهوِّراً فى اللَّعِب ... !

فهمهم « تيمورلنكُ » : لاتنسَ أيها الزَّميلُ المحترمُ أن أحداً لم يَرْبَحْ فى السِّباق ... إن هذه اللُّعبةَ كانت وسيلةً شريفةً لجمْعِ رِبْحٍ طَيِّبٍ لصُنْدُوقِ الجمعية .

وهنا تكلمَتْ « كليوبترةُ » فى صوتِها المنَغَّمِ قائلةً :

لم تُقَرِّرُوا بعدُ أترغبُونَ فى إحالةِ هذه الرسائلِ إلى لجنةٍ للردِّ عليها أمْ نَطَّلِعُ كُلُّنا عليها ونُبْدِى رأْيَنا فيها ؟ !

فقال « تيمورلنكُ » : أرى أن نحيلَ هذه الرسائلَ على أحدِ الأعضاءِ ونَدَعَ له حريةَ التَّصرُّفِ . هذا أجْدَى ! ... وإذا رأى المؤتمرُ أن يَكِلَ هذا الأمرَ إلىَّ فإنى أرحِّبُ بذلك ـ على ما فى هذا العملِ من متاعبَ ومَشَاقَّ ـ خِدْمَةً للمؤتمر وتيسيراً لأعماله ...

ironic

فقال الرئيسُ ، وهو يَتَفَحَّصُ الحاضرينَ كأنه يَلْتَمِسُ أن يشارِكُوه الرأىَ : لا ريبَ أن إحالةَ هذا العملِ على عُضْوٍ واحدٍ ، فيها اقتصادٌ للوقتِ وتيسيرٌ للأعمال . ولكن هذا العضوَ ـ أيها الزملاء الموقَّرونَ ـ يعبِّرُ عن رأيه وذَوْقِه ، فقد يُوَرِّطُنا فى أمرٍ يَجْلُبُ على المؤتمرِ بعضَ المتاعِبِ التى نحنُ فى غِنًى عنها ... هذا مع احترامى البالغِ لمقدرةِ الزميلِ العظيمِ تيمورلنكَ !

فرمقه « تيمورلنك » بنصف عينه ، وقال وهو متمكن في جلسته :

وماذا يرى حضرة الرئيس المبجل حلاً لهذه المشكلة ؟

فقال الرئيس وقد تعالت يده إلى رأسه الأصلع يحك جلدته بخنصره :

أرى أن نشرك عضواً آخر مع الزميل الموقر تيمورلنك ليساعده على إنجاز هذه المهمة على الوجه الأمثل .

فقال مندوب اتحاد أوربة الشمالية :

ألفت نظر الرئيس المبجل إلى أن هذا معناه تأليف لجنة ...

فنهض « تيمورلنك » يقول : إني أعد إشراك شخص آخر معي مظهراً من مظاهر ضعف الثقة بالأعضاء ، وإني لمتنح عن هذا العمل من تلقاء نفسي ...

فقال الرئيس ، وقد اشتد في حك جلدة رأسه بخنصره :

معاذ الله ألا يثق المؤتمر بأعضائه ! ... إني باقتراحي هذا أرغب في الأخذ بمبادئ الديمقراطية ، حيث يكون الأمر شورى ...

فقال مندوب اتحاد أوربة الشمالية :

إذن فالأجدر بنا - أخذاً بمبادئ الديمقراطية الصحيحة - أن نشرك جميع الأعضاء في هذا الأمر ، فلا نقرر شيئاً إلا بعد أخذ الأصوات . هذا رأيي ... !

فنهض « زين السيوف باشا » ، وقد أحدثت جلجلته صوتاً أفزع مندوب البلاغة الدولية ، وكان قد أخذته سنة من النوم ، فثاب إلى يقظته ، وهو يتلفت حوله جزعاً ... وقال « زين السيوف باشا » :

إنكم لو أخذتم بمبادئ الديمقراطية على الوجه الذي سمعته الآن لضاع وقتنا هدراً ، ولتشعبت أعمالنا وتشابكت ... !

فنهض « تيمورلنك » ، وقال عالي الصوت : ما زلت مصراً على رأيي . تجب إحالة هذه الرسائل على عضو واحد ومنحه السلطة التامة في وضع الردود ...

وإنى أقترحُ أن يُوكَلَ هذا الأمْر إلى الزميلِ المحترمِ زينِ السيوف باشا ...

فقام وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْعِ ، وقال فى تأتأتِه المعهودةِ :

لِزَامٌ علينا أن نسيرَ وَفْقَ مبادئِ الديمقراطية الحرَّةِ ... !

فقال « زينُ السيوف باشا » : ولو كان فى هذه المبادئِ ما يُعَطِّلُنا ويؤخِّرُنا ؟

فقال الرئيسُ : إن مبادئَ الديمقراطيةِ صحيحةٌ ، لن يَخيبَ من يأخُذُ بها ...

فنهض « تيمورلنكُ » ، وقد انتفختْ أوداجُه ، وقال :

إنى أَعْجَبُ لكم أيُّها السادة المحترمون ... العالَمُ كلُّه يتبدَّل ويتطوَّر ، ومبادئُه دائمًا فى تحوُّلٍ مستمرّ . وهذه الديمقراطيةُ - وإن كانتْ فى جوهرِها صحيحةً - فى حاجةٍ إلى تطوُّرٍ يناسِبُ العصرَ الذى تعيشونَ فيه . الدنيا فى حاجةٍ إلى وَثْبةٍ إلى الأمام ... وثبةٍ جبَّارَةٍ تُبْعِدُها عن هذه النُظُمِ العتيقَةَ ...!

فصاح مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشمالية :

العالَمُ مهما يتطورْ فهو غيرُ راغِبٍ في نُظُمٍ يخضعُ فيها المجموعُ لرأيِ الفَرْدِ ...

فصاح « تيمورلنكُ » : وإذا كان هذا الفردُ قد مَنَحه اللهُ قوةً خارِقَةً فى الذكاءِ والنَّشاطِ ، أفَلَا يستفيدُ المجموعُ من رأيِه الصائبِ ؟ !

فقال العالِمُ الرُّوحانيُّ : يبدو لى أن المسألةَ ليستْ مسألةَ نُظُمٍ اجتماعيةٍ للحُكمِ ، ولكنَّ العبرةَ بالأشخاصِ الذين يتولَّوْنَ تنفيذَ هذه النُّظُمِ . وقد يأتى الخيْرُ بعضَ الأحيانِ على يَدَيْ دكتاتورٍ مستبدٍّ ... !

فقال مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشمالية صائحًا :

كذلكَ يأتى الخيرُ من الديمقراطيةِ إذا تولَّى أمرَها أُناسٌ قادِرونَ ...

وهنا دخل « عبدُ العال » يحمِلُ خِزانَةَ الكتب ، فوضعَها على مقرَبَةٍ من مندوبِ البلاغةِ ، فأقبل عليها يجتذِبُ منها مُجلَّداً وراح يتصفَّحه . ثم جعل يقولُ :

ديمقراطية ... إنها اللَّفظةُ التى تتحدَّثُونَ عنها ...

وطفق يقرأ مهمهاً في لهجة غير واضحة ، ثم قال :

الديمقراطية أيها السادة الأماجد ... الأصل في معناها : حكم الأمة نفسها بنفسها بلا سلطة عليها ...

فقام مندوب اتحاد الشرق الأعلى ، وهو يعبث بعثنونه ، ويقول :

وأين مكان الحكومة إذن في هذا الوضع ؟

فاسترخى مندوب البلاغة في جلسته ، وأسبل جفنيه ، وقال :

لا حكومة في هذا الوضع ... هذا هو المعنى الأصلي للديمقراطية عند الإغريق ...

ونهض « تيمورلنك » يقول :

هذا ما يدعم قولي لكم ويثبته ... إن الديمقراطية في تطور دائم وتحول مستمر ... أين ديمقراطية الإغريق من ديمقراطية هذا العصر ؟ ...

وقام العالم الروحاني يقول : أنبه حضرات الزملاء الموقرين إلى أننا لم نهتد بعد إلى صيغة المادة الأولى من ميثاق السلام ...

وصاح وزير المناطق الجنوبية :

ولم تقرر شيئاً بعد في موضوع الرد على جمعية الرغيف الأسود ...

فقال مندوب اتحاد الشرق الأعلى :

أقترح أن نقيم لجمعية الرغيف الأسود حفلة تكون بمثابة رد التحية لها ...

فقال وزير المناطق الجنوبية السبع :

ما كان يجب أن يفوتنا ذلك ... وإني بالنيابة عن زملائي الأعضاء أقدم لك الشكر على هذا الالتفات الموفق ...

فقال مندوب اتحاد أوربة الشمالية :

إن كرامة المؤتمر تملي علينا تأييد ذلك الاقتراح ...

فقال الرئيس : وإذا وافقنا على مبدأ إقامة الحفلة ، فهل ترون أن ندخل

فيها عُنْصرَ السِّباقِ ؟

فصاح « زينُ السيوف باشا » : يجب أن نُبعِدَ السِّباقَ عن بَرْنامجِ الحفلة .

فقالت « كليوبترةُ » : وما هو وجهُ انتقادِكَ للسِّباقِ ياجنرالُ ؟ مع أنه باعترافِ الجميعِ أسلوبٌ شريفٌ لنَفْعِ صندوقِ التبرُّعاتِ ...

فقال « زينُ السيوف باشا » :

بلَغَ بى الضَّجَرُ كلَّ مبلَغٍ ليلةَ الحفلةِ من الهَرْجِ والمَرْجِ !

فصاح وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْعِ يقول :

لقد ضَجِرَ الجنرالُ لأنه كان مضروباً عليه الحِصارُ فى تلكَ الحفلةِ ... !

وأطلقَ ضِحْكةً رَنَّانةً جاوزَتِ الحدَّ ، فبدَا الامْتعاضُ على أعضاء المؤتمرِ .

فقالت « كليوبترةُ » فى صوتٍ رقيق :

إن الجنرالَ لم يَخْسَر المَوْقعةَ على أيَّةِ حال ... !

فقال « تيمورلنكُ » : إنه خَسِرَ قُبلةَ المزادِ ... وكَفَى ... !

وربَّتَ كَتِفَ « زينِ السيوف باشا » مداعِبًا ... فكان « زينُ السيوف باشا » يتلفَّتُ يَمنَةً ويَسْرَةً ، والحيرةُ تلتَمِعُ في عينيه !

وقال رئيسُ المؤتمرِ ، وقد أكسَبَ ملامحَه رزانةً ووَقاراً :

حقًّا كانت فكرةُ قُبلةِ المزادِ فكرةً رائعة . . عملًا إنسانيًّا نبيلا ... وقد بَذلَتْ كليوبترةُ في ذلك أوفَرَ سهمٍ ، فأدَّت أجلَّ خِدْمَة ...

فقالت « كليوبترةُ » : لقد أَمْلَى علىَّ الواجبُ ما قمتُ به ...

وكان مندوبُ البلاغةِ أثناءَ ذلك قد طَوَى المجلَّدَ الذى بين يَدَيه ، وأصغَى إلى الأحاديثِ واندمَجَ فيها كلَّ الاندِماج ...

ورأينا العالِمَ الرُّوحانىَّ ينهضُ قائلا بلَهْجَةٍ فيها حِدَّةٌ يحاولُ إخفاءَها :

أُوجِّهُ أنظارَ الأعضاءِ الموقَّرين إلى أننا خرجْنا عن الموضوعِ ... أين البحثُ

فى صِيغَةِ المادةِ الأولى من قانون إقرارِ السلام ؟

فقال وزيرُ المناطق الجنوبية السبع ، وقد احمرَّ وجهُه المتكتِّلُ ، والرذاذ يتطايَرُ من بين شفتيْه : تذكَّرْ ياسيدى أن عملَنا أجمعَ وخُطواتِنا كلَّها من أجلِ السلام ... وفى سبيلِ السلام ... !

فسَرَتْ بين الأعضاءِ عاطفةُ ارتياحٍ لهذا الجوابِ .

وأراد العالِمُ الرُّوحانىُّ أن يتكلَّمَ ، وقد تلظَّتْ عيناه ، فانبعثَتْ ضَجَّةٌ من بقيةِ الأعضاء لإسكاتِه . وعَلتْ الهمهمةُ والزَّمزمة ، فقام فى هذه اللحظةِ « تيمورلنكُ » ، وضربَ الأرضَ بعصاه ضربةً شديدةً ، وصاح :

صمتًا ... بعضَ الهدوء أيها الرِّفاقُ المُوقَّرون !

وقام رئيسُ المؤتمرِ ، وقد اشمأزَّ من تدَخُّل « تيمورلنك » ومحاولتِه أن يفرضَ سلطانَ رياستِه على المؤتمر ، واندفع يَحكُّ جلدةَ رأسِه الأصلعِ حتى كادت تَدْمَى . ونطقَ ببضعِ كلماتٍ بدَّدَتْها الضجةُ الشاملة . وهنا سَمِعنا ضحكاتٍ متواليةً بجوارِ الباب ، فإذا بـ « عبدِ العال » يقهقِهُ ، فالتفتَ إليه الرئيسُ وقال : ماهذا ؟

فملَكَ « عبدُ العال » زِمامَ نفسِه ، وقال :

عفواً مولايَ الرئيسَ . حدَثَ ذلك على الرَّغْمِ منى ! ...

ثم همهم : إن العملَ من أجلِ السلام لايتطلَّبُ كلَّ هذه المشاجَرات !

فالتفتَ إليه وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبعِ ، وقال مُحْتَدًّا :

لابُدَّ أن يُقصَى هذا الوقِحُ عن قاعةِ المؤتمر ... !

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ على الأثَر ، وقد ضربَ المِنْضَدة بيده :

بل لابدَّ من الإبقاءِ على هذا الحاجِبِ المُخْلِص ، واغتفارِ مابدا منه ...

وانبعثَت الضجةُ ثانيةً ، ولكن ما أسرعَ أن أسكتَها « تيمورلنكُ » ، واستطاعَ الرئيسُ بعدَ حينٍ أن يقولَ بصوتٍ هَزِيل :

اِقْرَأْ يا حضرةَ السكرتيرِ بَرْنَامجَ العمَلِ ... !

وما كدتُ أَهُمُّ بالسُّؤالِ عما يجبُ أن نتبَّعه في ترتيبِ أعمالِ المؤتمرِ، حتى رأينا مندوبَ البلاغةِ يتهالكُ على مَقْعدِه، وإذا به يُغْمى عليه. فاضطربَ أعضاءُ المؤتمرِ، وقمنا إليه نحملُه، وخرجْنا به من القاعةِ، فلم يَبْقَ فيها إلا الرئيسُ والعالِمُ الرُّوحانيُّ، وفيما نحن خارجُونَ سمعنا الرئيسَ يقولُ في القاعةِ الشاغِرةِ:

أيها السادةُ ... رُفِعَتِ الجلْسَةُ ... !

وخرجَ العالِمُ الرُّوحانيُّ يخترقُ الزَّحْمَةَ كالزوبعةِ، وانتحى ناحيةً قَصِيَّةً، بجانبِ إحْدَى النوافذِ يتلمَّسُ الهَواءَ ...

وشُغِلْنَا بأمرِ مندوبِ البلاغةِ، فمدَدْناه على إحدَى الأرائكِ، وجِئْنا له ببعضِ المُنْعِشَاتِ، وأَسْقَيناهُ بعضَ المُرطِّبَاتِ، حتى ذهبَ عنه الإغماءُ ...

وكانَ الأعضاءُ يتناقلونَ فيما بَينهم - هامِسِين - كلماتِ التَّبَرُّمِ بالعالِمِ الرُّوحانِيِّ والإنْحاءِ عليه باللَّومِ، واستنكارِ ما بدا منه - على جلالةِ قَدْرِه - من هذه المعارضةِ التي تجافَتْ عن الذَّوْقِ.

وفي هـذه اللحظةِ رأينا شَبَحَ « مارتنَ » يتقدَّمُ منا مقبِلاً من الخارجِ، وأدركَ على الفورِ أن في الأمرِ شـيئاً، فأقبلَ يقولُ:

خيراً ... مالي أرى الجوَّ غائماً ؟ ...

ودنا من « كليوبترة » يحيِّيها تحيةً مُحبَّبَةً، فقالت له: كانت جَلْسَةً شاقَّةً ...!

فقال « مارتنُ » على الأثَرِ:

أعانكمُ اللهُ على عملِكم العظيمِ ... إن العملَ لِلسِّلْمِ أَشَقُّ من العمَلِ للحَرْبِ ... !

وكان أحدُ الخدمِ يَطُوفُ بأقداحٍ من شرابِ الليمون، فقدَّمتْ « كليوبترةُ » قدَحاً إلى « مارتنَ »، وقالتْ له: قد تكونُ مِثْلَنا في حاجةٍ إلى مُرطِّبٍ...

فأخذ « مارتنُ » الكأسَ، ثم تَشمَّمها وقال:

عصيرُ ليمون ؟ ! يالِلسَّذاجةِ البريئة ... علينا بكوكتيل مارتن !

وأوصى السَّاقيَ بأن يُحْضِرَ « كوكتيلا » شرح له عناصرَه ، والتفتَ إلى الجَمْعِ ، قائلاً : إنه من اختراعى أيها السادة !

ثم التفتَ الى « كليوبترة » ، وقال :

لقد اضْطَرَّتْنِي حالتى الخاصةُ إلى اختراع هذا الكوكتيل ، ورأيتُه أصْلَحَ شىءٍ لعلاجِ الأزماتِ النَّفْسِيَّةِ إثْرَ الأعمالِ الشاقَّة . وكثيراً ما أفادَنِي في المُلِمَّات !

فدنا منه « زينُ السيوف باشا » في تَعاظُمٍ ظاهر ، وقال : لاتنسَ ياسيِّد مارتن أننا هنا في مؤتمرٍ موقَّرٍ قد لايناسِبُه هذا الكوكتيلُ الذى اخترعْتَه !

فأجابه : إنى يا سيدى في أشدِّ الحاجةِ إلى هذا الكوكتيل الآنَ ... أما أنتَ ، فشأْنُكَ وما تريدُ ...

وأقبل على « كليوبترةَ » يقول لها :

إنى لم أذُقِ النومَ البارحةَ إلا غِرَاراً . كنتُ أفكِّرُ فى إخراج فِلْمٍ أخناتونَ . تطوَّرَتِ الفكرةُ واتَّسَعَتْ ، وسأجعَلُ من هذا الفِلْمِ فتحاً سينمائيًّا جديداً !

والتفتَ إلى الجَمْعِ يخاطِبُه ، وقد اكْتَسَبَ وَجهُهُ سِمَاتِ المُحاضِرِ ، فقال :

أيها السادةُ ، أُوَجِّهُ إليكم الحديثَ فى مَشْرُوعٍ هو أكبرُ دِعامَةٍ فى صَرْحِ عملِكُمُ العظيم ، تَشْيِيدِ «المدينةِ الفاضِلَة» وإنى أُناشِدُكُمُ الحقَّ أن تُرْعُونِي أسْماعَكم .

ووقعَ بَصَرُه على العالِمِ الرُّوحانِيِّ فى مَجْلِسِه البعيدِ بجوارِ النافذةِ ، فناداهُ :

يا سيدى ! ألا تُقْبِلُ لتَشْتَرِكَ فى سماعِ ما أريدُ عَرْضَه من مشروعى العظيم ؟

فرأينا العالِمَ الرُّوحانىَّ يُقْبِلُ على « مارتنَ » ، وقد استعادَ هُدوءَه ، وكان يسيرُ فى خُطاهُ الوئيدةِ ، ويُمشِّطُ لِحْيَتَه بأصابعِه . فصافَحَ « مارتنَ » ، وقال له : أىَّ مشروعٍ تريدُ ياصديقى ؟

فتدانَتْ « كليوبترةُ » من العالِمِ الرُّوحانِيِّ ، وقالت له فى تلطُّفٍ :

إنه يعملُ فى إعدادِ فِـلْمٍ عن أخناتونَ الملِكِ المِصْريِّ القـديمِ داعيةِ السلام الأوَّل .

فهمهم العالِمُ الرُّوحانىُّ مبتسماً : حقًّا إنها لفكرةٌ نيِّرة ... !

فقال « مارتنُ » يُتِمُّ خِطابَه :

أيها السادةُ ، لقـد قضيْتُ البارحةَ أُراجعُ المصادرَ ، وأُمحِّصُ الوقائعَ ، وأُوازِنُ بين أقوالِ المؤرِّخينَ ، فانتهيتُ إلى أن أَسْتَلْهِمَ من كلِّ ذلك شخصيةً طريفةً لأخناتونَ سأُظهِرُها على ضوْءٍ جديد ...

فقال « زينُ السيوف باشا » : أيُّ ضوْءٍ ياسيدى ؟ كُلُّنا نعلَمُ أن أخناتونَ كان أولَ من اهْتَدَى إلى التوحيدِ ، وفـكَّرَ فى الدعوةِ إلى نَشْرِ رايةِ السلام .

فقال « مارتنُ » : هـذه هى الشخصيةُ الظاهرةُ ... الشخصية التى تبدو للباحثِ العابِرِ ، ولـكن ماهى الدوافعُ الخفيةُ خلفَ هذه الظواهر ؟ ... لقد استطعتُ أن أُطبِّقَ مذهبَ فرويدَ وإدلرَ ومن أتَى بعدَهما من أساطينِ علماءِ النفسِ على هذا المَلِكِ ، وعلى عقلِه الباطن ، فتجلَّى لى أن له شخصيةً مزدوجَةً .

فقال « زينُ السيوف باشا » : سيكون هذا افتِئاتاً على التاريخ .. !

— إنى مُخرِجٌ فنَّانٌ ، أَسْتَلْهِمُ التاريخَ ، ولـكننى لاأتقيَّدُ به .

والتفتَ إلى الجمعِ يقول : والآن أُناشِدُكم المروءةَ أن تُعِينونى !

فسمعْنا صوتَ مندوبِ البلاغةِ ، وهو يحتَسِى شرابَ الليمونِ ، يقول :

وما هو وجهُ معونتِنا لكَ ياسيدى ؟ !

فقال « مارتنُ » : سأتـكلَّمُ فى جوهرِ الموضوع رأسًا ، أريدُ أن تشتركوا معى فعلًا فى تنفيذِ الفـكرة ، وذلك بأن تكونوا أنتم ممثِّلِى الفِلْمِ ... !

وكانت مباغتةً نشرتْ بين الحاضرين همهمةً وتساؤلا وتعجُّبًا ، ولـكن « مارتنَ » تابعَ كلامَه وقد التفتَ إلى « كليوبترةَ » قائلا :

تتنزَّلُ كليوبترةُ مثلا فتقبلُ تمثيلَ دورِ « تفرتيتى » . أما أنا فسأضطلع بدَوْرِ الملك أمينوفيسَ الرابعِ « أخناتونَ » تمسِه ، زوجِ « تفرتيتى » .

وتلقَّتْ « كليوبترةُ » هـذا النبأَ بهدوء ، ولم تُحِرْ جوابًا ... أما « زينُ السيوف باشا » فقد ابتسمَ ابتسامةَ ازدِراء ، وغمغم :

ألاعيبُ أمريكيَّة ... ! ألاعيبُ أمريكية ... !

وواصلَ « مارتنُ » حديثَه قائلا : وسأَعْرِضُ دَوْرَ « حورمحب » قائدِ مصرَ على الجنرالِ ... إنه خيرُ من يقومُ بهذا الدَّوْرِ العظيم ...

ووجدنا « زينَ السيوف باشا » يتركُ الحلْقةَ ويخطو بِضْعَ خُطُواتٍ ذَهابًا وجَيْئَة ، وهو يردِّدُ ألفاظًا مُبهَمةً ... وقال « مارتنُ » مواصلًا حديثَه :

أما كبيرُ كَهَنَةِ « آمونَ » المناوئُ لأخناتونَ فإنى أعرِضُ دَوْرَه على العالِمِ الرُّوحانىِّ ...

فهبَّ العالِمُ الرُّوحانىُّ يقول على الأثَر : أعتذِرُ آسِفًا !

فواصلَ « مارتنُ » قولَه :

وإذا تنحَّى العالِمُ الرُّوحانىُّ ، فمندوبُ البلاغةِ خليقٌ بهذا الدَّوْر ...

فقال مندوبُ البلاغةِ : لايجوزُ أن أعتديَ على دَوْرِ زميلى !

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ : كأنكم قرَّرْتُمْ أن تشتركوا فى التمثيلِ ، ولم يَبْقَ إلا توزيعُ الأدوارِ ... !

فتقدم « تيمورلنكُ » قائلا :

المسألة ماتزالُ قَيْدَ البحثِ والشُّورَى ! ونحن لم نرتبِطْ بشىءٍ بعدُ ... !

وقال « مارتنُ » وقد ربَّتَ كَتِفَ « تيمورلنكَ » :

إنى محتفظٌ لك بدَوْرِ « سابى » القائدِ السُّوريِّ الهاجِمِ للتُّخوم المصرية ...

فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ : إننى أتركُ لحضرات الزملاء حريةَ المناقشةِ فى قَبول

الاشتراكِ في هذا التمثيل أو رَفْضِه ، ولكن اريدُ قبلَ أن اغادرَ المؤتمرَ أن أُدْلِيَ لكم برأيي صريحاً ، وهو أنه يَجْدُرُ بأعضاء المؤتمرِ أن يتركوا هذا الممثِّلينَ المحرِفينَ ... والآن أستودِعُكُمُ اللهَ ... !

وخرجَ مهرولاً ، والضيقُ بالغٌ منه كلَّ مبلَغ ...

فقال وزيرُ المناطقِ الجنوبية السَّبْعِ :

عجيبٌ أن نَسمعَ هذه الأقوالَ في عَصْرٍ تسودُه الديمقراطيةُ والتسامُحُ ... !

وهمهم مندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى وهو يعبثُ بعُثْنُونِه :

لهذا العالمِ الروحانيِّ عقليةٌ غريبةٌ لاتخلو من شُذوذ ! ...

فقال « مارتنُ » مستأنفاً حديثَه : لقد اخترتُ لكلِّ عُضْوٍ من أعضاءِ المؤتمر دوراً يُلائمه ... ماأجملَ أن يقومَ دُعاةُ السلام بخدمة السلامِ فى نِطاقٍ عمليٍّ قَوِيِّ الأَثَر ... لاتنسَوْا أيها السادةُ أنه سيظْهَرُ اسْمُ كلِّ عُضْوٍ من أعضاءِ المؤتمر فى لوحٍ خاصٍّ على الستارةِ البيضاء ، ملوَّنٍ على وضْعٍ بارز . وسيُطبَعُ من هذا الفِلْمِ آلافُ النُّسَخِ ويوزَّعُ فى سائرِ الممالكِ ، ولهذا يُعَدُّ أكبرَ دِعَايَةٍ لقضيَّةِ السَّلام .

ووجَّه الكلامَ إلى رئيسِ المؤتمر قائلا : ما قولُكَ ياسيدى الرئيس ؟ !

فاندفع الرئيسُ يحكُّ جلدةَ رأسِه الأصلع ، وشفتاه تختلِجانِ دونَ أن تَنبِسا .

فقال « مارتنُ » :

أيُنْكِرُ أحدٌ أن هذا العملَ من الأعمالِ الجليلةِ النَّفْعِ للبشريَّةِ ؟ ! ...

فقال الرئيسُ بعد صَمْتٍ مضطرب :

لانُنْكِرُ ... لانُنكر ... ولكن يجب أن نَتَرَوَّي فى الأمرِ ... !

ووُزِّعَتْ علينا فى هذه اللحظةِ كُئُوسُ الكوكتيل ، كوكتيل مارتنَ ، وأخذنا نَعُبُّ منها ، ورأينا « عبدَ العال » يتقدَّمُ من « مارتن » بوجهٍ باسم ، ويقول :

أرجو ألَّا تكونَ قد نَسِيتَنى ياسيدى الأمريكانيَّ ... تذكَّرْ أنك وعدتنى

منذُ أيامٍ بأن تحتفظَ لى بدَوْرٍ في أعمالِكَ الفنيةِ !

فضربَ « مارتنُ » كَتِفَ « عبدِ العال » قائلا له :

إذا لم يكن دَوْرُكَ قد أُعِدَّ فسأخلُقُه لك خَلْقًا ... اِطْمَئِنَّ ...

ثم ضرب جَبْهَتَه بيده ، وقال :

ها قد وقعتُ على دَوْرٍ يناسبُك ... ستكون رئيسَ مقابر الدَّولة ...

فنظر إليه « عبدُ العالِ » طويلًا ، وهمهم :

تَقصِدُ « شيخَ التُّربية » ... ولكن ياسيدى ...

فقال « مارتنُ » وقد بَسَط صدرَه ، وعلَا بهامتِه :

ولكن ماذا ياعبدَ العال ؟ ... رئيسُ مقابرِ الدولةِ هو المُهَيْمِنُ على الموتِ فى ذلك الزمنِ الغابرِ ... هو السفيرُ بين البشَر وبين مَلَكِ الفَناء ... بل هو اليدُ اليُمنَى لملَكِ الفناءِ نفسِه ...

— أتَعنِي أنه سكرتيرُ عزرائيلَ ؟

فقال « مارتنُ » : هذا هو الواقعُ ...!

فانسرحَ « عبدُ العالِ » يفكِّر وقتًا ، وقد علا وجهَه وُجُومٌ طارئ ، ثم قال ، وقد أخذ يتزايلُ وُجومُه :

لا بأسَ ... لا أرفُضُ لك مَطْلَبًا على أيَّةِ حال ... !

وتقدم وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْع ، وقال وهو يتظاهرُ بمداعبةِ « مارتنَ » :

وماذا فى حقيبتِكَ لى من الأدوارِ أيها السيدُ مارتنُ ... ؟ !

فقال له « مارتنُ » على الفورِ :

رئيسُ شُرْطةِ أخناتونَ الأعلى ، وحارسُ الذَّخيرةِ الأوَّل ... !

فتطلَّقَ وجهُ الوزير ، واندفع يتضاحكُ ويَعُبُّ من كأسِه .

وقال « زينُ السيوف باشا » وهو عاقِدُ الجبين :

لا أقبلُ دَوْرَ حورمحب ... لا أقبَلُه ... !

فقال له « مارتنُ » على الفور :

ثِقْ بأنى اخترتُ لك الدورَ الذى لا يَنهَضُ به سواكَ ... !

ثم وجدْناه يَهْمِسُ في أُذُنِه قائلا : إن دَوْرَ أخناتونَ لا يصلُحُ لك ... !

فصاح « زينُ السيوف باشا » :

لا أقصِدُ أن أطلُبَ دورَ أخناتونَ ، ولن أطلُبَه ...

فقال « مارتنُ » : يجبُ أن تعلمَ ياجنرالُ أنك رجلُ نِزالٍ ونِضالٍ ، ويُعوِزُكَ كثيرٌ من الخيالِ والشاعِرِيَّة ، وهما أهمُّ المُمَيِّزاتِ فى دَوْرِ أخناتونَ ... لا يَضِرْكَ قَوْلِى ... !

فقالت « كليوبترةُ » : ماذا تقولُ ؟ أتحكُمُ على الجنرالِ بأنه ليس مُرْهَفَ الإحساس ، رقيقَ القلب ... هذه مبالغة !

فقال « مارتنُ » : لستُ إلى ذلكِ أقصِدُ ، فإنَّ حورمحب فى روايتى سيكونُ رجلا مُحِبًّا ...

فقال « زينُ السيوف باشا » : من التى يُحِبُّها ... ؟ !

فقال « مارتنُ » : نفرتيتى طبعًا ... !

فأشرقَ وجهُ « زينِ السيوف باشا » بالرَّغْم من تحفُّظِه ، وأخفَى ابتسامةً كادت تَرِفُّ على فمِه ، وواصلَ « مارتنُ » حديثَه قائلا : ولكن نفرتيتى لا تبادلُه حبًّا بحبٍّ مع الأسف ... وهنا إحدى عُقَدِ الفِلْمِ الرئيسة ... !

ووجدنا شاربَ « زينِ السيوف باشا » يهتزُّ انفعالا ، وعاد جبينُه إلى التعقُّد . وكان « مارتنُ » يُتِمُّ توزيعَ الأدوار ، ويُزَيِّنُها لأصحابِها ، ولم يَنْسَنى باعتبارى سكرتيراً لـ « كليوبترةَ » ، فاختارَ لى دَوْراً يناسبُ مُهِمَّتى .

وجعل الجمعُ يتناقَلُ الحديثَ فى موضوعِ الاشتراكِ فى التمثيل ، ويتشاورون

فيما يفعلون . وسمعتُ « تيمورلنكَ » يقول وهو يبتسمُ ابتسامةً متكلَّفة :

لقد اختارَ لى « مارتنُ » دورَ قائدٍ سوريّةَ ، ونسِيَ أننى لا أصلُحُ الآن لقيادةِ الحزبِ ... سيضطرُّنى إلى أن أُناقِضَ نفسى ! ... يالَهُ من أمريكيٍّ غريبِ الأطوارِ ! ...

وتضاحكَ وقتاً ... فقال « عبدُ العالِ » :

إنكَ ياسيدى بهذا تبذُلُ مكرُمةً في سبيل المبدإ ، مبدإ السَّلام !

فرمقَه « تيمورلنكُ » بنظرةِ تعالٍ وازدراء . .

وأخذ « مارتنُ » بيد « كليوبترةَ » ، وخطَوا بِضعَ خُطواتٍ ، فقال لها :

ألا تتناولينَ طعامَ الغَداء معى ؟

فصمتتْ بُرهةً ، ثم قالت : إنى آسِفةٌ يامارتنُ !

— ولِمَ الأسفُ ؟ إن العملَ يقتضى أن تتناولِي الغَداءَ معى . لديَّ طائفةٌ من الصُّورِ الرائعةِ لنفرتيتى سنَتفحَّصُها معًا ... يجب انتقاءُ شكلِ الشَّعرِ ، ومعرفةُ طريقةِ التَّزيُّن ومظاهرِ الزيّ ... لقد أوصيتُ حائكةَ الثِّياب بأن تحضُرَ لنَعرِضَ عليها نماذجَ الملابِسِ المطلوبة .

فقالت له « كليوبترةُ » : ولكننا لم نقرِّرْ شيئا بعدُ فى أمرِ هذا الفلم .. !

وفى هذه اللحظةِ علَا صوتُ « تيمورلنكَ » قائلا :

ياحضرةَ السكرتير .. ليكن موضوعُ جلسةِ غدٍ النَّظرَ فيما اقترحَه مستر مارتن ...

ووجدْنا رئيسَ المؤتمر يعلو بقامتهِ ، وهو يهمهمُ فى صوتٍ هزيل :

أجل ... ستكون جلسةُ غدٍ موضوعُها النظرُ فى اقتراحِ مستر مارتن ... فأَعِدُّوا أنفسَكم لمناقشةِ الاقتراح ... !

وسمعتُ « مارتنَ » يقول « لكليوبترةَ » : لقد اتفقنا على أن نتغدَّى معا ... !

فقالت « كليوبترةُ » : كما تشاء ... والآنَ إنى مُضطرَّةٌ لقضاءِ بعض

شئونى ، فأينَ أجِدُكَ ؟ ...

— فى الاستديو .

وأخرج من جيبِه بطاقةً دفعَها إلىَّ وقال : هاكَ عُنْوانَ الاستديو !

وكان « زينُ السيوف باشا » يتسمَّعُ من بعيد ، فلما انتهتْ إليه هذه الجملةُ ازدادَ تجَهُّمُ وجهِه ، وبدا الضِّيقُ عليه ، واندفَع يُعبُّ ما بَقِىَ من كأسِه فى غيظٍ ، وقصَد إلى إحدى النوافذِ يتطلَّعُ إلى السماء ... !

وحيَّتْ « كليوبترةُ » الحاضرين ، وانصرفَتْ من القاعةِ وأنا فى إثْرِها .

وركبنا السيارةَ ، فطلبتْ منى أن أذهبَ بها إلى مَعْهَدِ التجميلِ الرُّوسىِّ .

ولما بلَغْنا دارَ المعهَدِ شاهدتُ « أنطونيو » بالبابِ ينتظِرُ . فصَحِبَها ، وبقِيَا معًا فى المعهَدِ فترةً ، ثم عادا إلىَّ . وسمعتُهما وهما مقبلانِ على السيارةِ يتحدَّثانِ عن عمليَّةٍ جِراحِيَّةٍ تريدُ « كليوبترةُ » إجراءَها . ووقفا فترةً يُناقِشان ، ثم ما كادت « كليوبترةُ » تتجهُ نحوَ السيارةِ حتى هُرِعَ « أنطونيو » إلى الباب ليفتحَه ، ولكنه تعثَّرَ فى مِلْحَفِه الرُّومانىِّ ، وكاد يسقُطُ .

فبدرَت من « كليوبترةَ » ضِحْكةٌ لطيفة ، وقالت :

إن مِلْحَفكَ الرومانىَّ قد غدا غيرَ صالحٍ لمقتضياتِ هذا العالَمِ الذى نعيشُ فيه !

فتجلَّى البِشْرُ على وجْهِ « أنطونيو » وهو يقول :

كنتُ على وَشْكِ أن أتحدَّثَ إليكِ فى هذا الشأنِ !

— وماذا ترى ؟

— الرأيُ لكِ ياصاحبةَ الجلالة ... !

فتخايلَتْ ابتسامةٌ خلابةٌ على ثغْرِها ، وهى تقول :

بل الرأيُ لكَ أنتَ ياقيصرُ !

وصعِدَت الملِكةُ فى السيارة ، ووقف « أنطونيو » مكانَه يُحيِّيها تحيةَ

وَدَاعٍ وُدِّيّ . وانطلقتْ بنا السيارةُ إلى استوديو « مارتنَ » وَفْقًا لما طلبَتْه « كليوبترة » ، ولما وصلْنا إلى الاستديو ، قالت لى وهى تَهُمُّ بالدخول :

إلى غدٍ ياحضرةَ السكرتير .. !

فحيَّيتُها وانصرفت ...

وقصدتُ إلى دارى ، فوجدتُ « عبد العال » متربِّعًا على المُتَّكَإِ ، وهو يحتسِى مُغْلَى النَّعناع فى سُهوم ، فصِحْتُ به : مالكَ ؟ !

— لاشيءَ ...

— فِيمَ تُفَكِّرُ ؟ !

— لاشيءَ ... أحوالُ الدنيا كثيرةٌ ... !

فضربتُ كَتِفَه ، وأنا أقول :

أُرَاهِنُ أنكَ تفكِّرُ فى أمرِ الفلم والدَّوْرِ الذى اختارَه لك مارتنُ ...

— لاأريدُ أن أُكْذِبَكَ القولَ ياسيدى السكرتيرَ ، صحيحٌ ماقدَّرتَه ... !

— إن عملى سكرتيراً للمؤتمر لَيُعَدُّ تافِهًا ساقطَ القِيمةِ بالنسبةِ لعملِكَ الجديدِ سكرتيراً لعزرائيلَ ياعبدَ العال ... !

— إن أردتَ الحقَّ فإن دَوْرى الذى سأقومُ به فى هذا الفِلْمِ قد راقَنى !

— ولِمَ ؟ !

— سأشعُرُ بلذَّةِ العملِ مع عزرائيلَ والهَيمنَةِ على عالَمِ الحياةِ والتصرُّف فى أرواحِ الخلائقِ ... أقليلٌ هذا ؟ ...

— سيكونُ هذا على أيَّةِ حال خيالاً ، لن تكونَ أكثرَ من « أراجوز » ... !

— وهل نَسيتَ ياسيدى السكرتيرَ أنك ستكون « أراجوزاً » معى فى

هذا الفلم ... ولا مؤاخذة !

— إنى لم أقطعْ برأيٍ بعدُ فى الاشتراك فى هذا الفلم ...

— أتزعُمُ أنكَ من المعارضين فى فكرته ؟

— الفكرةُ فى صميمها لا أُعارضُ ! ... فإن فيها دعوةً إلى السلام بلا رَيْب .. ولكنَّ هذا لا يمنعُ التصريحَ بأن التمثيلَ فى الأفلامِ لا يَبْعُدُ كثيراً عن مُهِمَّةِ « الأراجوز » ... !

— واللهِ إنى لأُمجِّدُ هذا الأمريكىَّ الذى استطاع أن يجعلَ منا « أراجوزات » فى فِلْمِه ... ولكن اسمَعْ ياسيدى البك ... ألسنا فى الدنيا لا نَزِيدُ على « أراجوزات » ؟ ! إننا نُباهِى بظُهورِنا فى هذه الملابِسِ المحترَمَةِ ، ولكن إذا أرسلتَ العينَ الفاحصةَ الخبيرةَ تجلَّى لكَ أننا نَلبَسُ السراويلَ الفضفاضةَ والطراطيرَ الطويلةَ ونَصْبَغُ وجوهَنا بالطِّلاءِ ... ياسيدى دَعِ الأمرَ للهِ ! ... على كلِّ حال سأخرُجُ من هذه اللُّعبةِ بكَسبٍ يرجِعُ نفعُه للأولاد وأُمِّ الأولاد . . سينْعَمونَ وقتاً برَغَدٍ من العَيش ... !

٢٩ يناير

فى صُبحِ هذا اليومِ بكّرتُ إلى معبدِ أبى الهول ، فما إن دخلتُ الرَّدهة الفسيحةَ حتى أقبلتْ علىَّ كُبْرى الوصائفِ مهرولةً ، وعلى وجهِها ملامحُ الاهتمام ؛ فقلتُ لها مستطلِعًا : ماذا ؟ !

فأخذتْنى من يدى ، وأسرَّتْ إلىَّ أنه قد تمَّ الصُّلحُ بين « كليوبترة » و « زينِ السيوف باشا » ... فقلتُ : وهل كانا متخاصِمَيْن ؟ ...

أتتَغابَاهُ ياحضرةَ السكرتير ؟ جزاؤكَ عندى أن أَعْرُكَ أُذُنَك !

— وما يكونُ جزاؤكِ عندى على هذا القولِ ؟

ثم لاطفتُ خدَّها ، واستأنَفْتُ أقولُ : وكيف تمَّ الصُّلح ؟

فطفِقَتْ تُهَنْدِمُ شعرَها ، وتَتَثَنَّى فى وِقْفَتِها ، وهى تقولُ :

لما عادت بعد غَدَائِها مع مارتنَ شرع التليفونُ يُدَقُّ ، وكان المتكلمُ زينَ السيوف ، واعتذرتْ كليوبترةُ عن تَلْبِيَتِه أكثرَ من مرةٍ بشتّى الأعذارِ ، ولكنها اضطُرَّتْ بعدَ إلحاحِه أن تنهضَ إلى التليفون وتتحدثَ إليه ، وبعد مُراوَغاتٍ فيها كثيرٌ من الإعراضِ قبِلَتْ أن يحضُرَ لزيارتِها ويتناولَ معها العَشاءَ .

— وهل تَعَشَّيَا معًا ؟

— فى ضَوْءِ القمر كما جرَى عَشاءُ أولَ مِن أمسِ مع أنطونيو ... ليتَك كنتَ حاضراً حينما رَكَعَ زينُ السيوف بين يديها مُقَبِّلًا أنامِلَها ... لقد كان شارِبُه يتراقَصُ مُهتاجًا ... !

وفى هذه اللحظةِ دقَّ الجرسُ ، فقالت كُبْرَى الوصائف :

إنها تَطْلُبُنى ... !

وهُرِعتْ إلى مَخْدَعِ « كليوبترةَ » .

ووقفتُ هُنَيهةً أفكّرُ وقد طافت برأسى ثلاثةُ أَخْيلَةٍ لثلاثةِ فُرْسانٍ ، يستبقون إلى صيدٍ ، وكلٌّ منهم يَجِدُّ فى رَكْضِه ليحُوزَ قَصَبَ السَّبْق ... ولكنَّ الفريسةَ ـ أو على الأصحِّ : الصائدة ! ـ كانت تُخادِعُهم وتُراوِغُهم فيمْضون فى اللَّحاق بها وينظرُ بعضُهم شَزْراً إلى بعض ... !

وظهرتْ « كليوبترةُ » تامَّةَ الزِّينةِ رائعةَ الوَسامةِ تتألَّقُ ...

وانطلَقْنا توًّا إلى قصرِ الورد حيثُ المؤتمرُ ...

وكانت الجلسةُ صاخبةً ثائرةً ، يدورُ النِّقاشُ فيها حولَ مشروعِ « مارتنَ » فى إخراجِ فِلْمِ « أخناتون » وتوزيعِ الأدوارِ على أعضاءِ المؤتمر ، وقد أُذِنَ لـ « مارتنَ » فى حضورِ الجلسةِ لإيضاحِ فِكْرتِه ، والدفاعِ عن غرضِه . ولا أُخْفِى أنه كان دكتاتوراً فى توزيعِ الأدوار يَفرِضُ أوامِرَه فرضًا ولا يقبَلُ لها تحويلا ولا تبديلاً وكان العالِمُ الرُّوحانىُّ يرفَعُ رايةَ الحملةِ على فكرةِ الاشتراكِ فى التمثيل ، فلَقِىَ معارَضةً عارِمةً ، ورأيتُ الجمعَ يتغامزون به ويسخرونَ منه ، وسمعتُ بعضَهم يقولُ :

شَدَّ ما يُعطِّلُ هذا الرجلُ أعمالَ المؤتمر !

وانجلَى الأمرُ عن موافقةِ المؤتمرِ على كلِّ ما عرضَه « مارتنُ » وقُبَيْلَ انفضاضِ الجلسةِ انسحب العالِمُ الرُّوحانىُّ مخذولا يائسا .. أما رئيسُ المؤتمرِ فقد هانَ شأنُه فى هذه الجلسةِ ، وتصاغرتْ سُلطَتُه ، وأصبحَت الرياسةُ الفعليَّةُ لـ « تيمورلنكَ » قوةً واقتِداراً ، فكان يُجَلْجِلُ بصوتِه ، ويضرِبُ الأرضَ بعصاه التى تحَلِّى مَقْبِضَها حمامةُ نوحٍ رمزُ السلام !

ووقفَت « كليوبترةُ » تعلِنُ أنها فى حاجةٍ إلى إجراءِ عمليَّةٍ في أنفِها لأنها مُصابةٌ بزوائدَ تولَّدَتْ من رُطوبةِ الجوِّ . وطلبتْ إجازةَ بضعةَ أيام ،

لإجراءِ هذه العمليةِ البسيطةِ ، فاشرأَبَّ رئيسُ المؤتمرِ وهو يُسارِقُ « تيمورلنكَ » نظراتِ الحَذَر ، ثم قال بصوتٍ هَزيل :

لامانعَ من الإذنِ لكِ ياصاحبةَ الجلالةِ بالإجازةِ التى تَطْلُبينَ ... !

فقام وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السبع ، وقال وهو يتلفَّتُ يَمْنَةً ويَسْرَةً :

أيجوزُ أن يَعْقِدَ المؤتمرُ جَلَساتِه وقد حُرِمَ حُضورَ رُكْنٍ مُهِمٍّ من أركانِه ؟ ! ... أقترحُ أن يكونَ المؤتمرُ فى إجازةٍ حتى تفرُغَ الملكةُ من إجراءِ العمليةِ الجِراحيَّةِ ، وتعودَ إلينا بسلام ! ...

فلم تأخُذ المناقشةُ فى هذا الاقتراحِ وقتًا طويلا ، وسَرْعانَ ما أعلنَ المؤتمرُ أنه فى إجازةٍ بضعةَ أيام .

وقال وزيرُ المناطقِ الجنوبيَّةِ السَّبْع مستطرِداً :

يمكِنُ فى أثناء هذه الإجازةِ أن يعملَ الأعضاءُ فى التمهيدِ لإنجازِ مُهِمَّاتِ المؤتمر ... وبذلك لا يَضيعُ علينا الوقتُ ...

فتحرك مندوبُ البلاغةِ الدوليةِ بين وسائدِه الوثيرةِ وهو يُصلِحُ قَلَنْسُوَتَه اللامعةَ ، وقال : كونوا على ثقةٍ أننى سأقتلُ كلمة « حربٍ » بحثًا وتمحيصًا ... سآتى لكم بكُلِّ مَدْلولاتِها ومعانيها ، من حرب دفاعيَّة ، أو هجومية ، أو راجِفَة ، أو خاطفة ، أو مائعة ، أو شائعة ، إلى ماهنالك من ألوانِ المدلولاتِ والمعانى !

وترك الأعضاءُ قاعةَ الاجتماع تعلو وجوهَهُمْ سِيما البِشْر ، وهُمْ بـ « كليوبترةَ » مُحيطونَ ، يسألونَها عن مَوْعِدِ العمليةِ ، وما يتعلَّقُ بها ...

---

٣٠ يناير

قصدتُ إلى دارِ معهدِ التجميل ، حيث تُجرى « كليوبترةُ » عمليةَ الأنف ، وقد علمتُ من كُبْرى الوصائفِ أنها عمليةٌ يُرادُ بها في الحقيقةِ تصغيرُ أنفِ « كليوبترةَ » . وكان المعهدُ هادئًا ، والحُجُراتُ مَطْليَّةً بالبياضِ الناصعِ كأنه الزجاجُ اللامعُ ، وكان الأثاثُ عصريًّا فخما ، والنوافذُ فسيحةً يندفعُ منها الضوءُ جزافًا . وقد طالعتني – أولَ مادخلتُ القاعةَ الكبرى بجوارِ حُجْرَةِ العملياتِ – أشباحُ الفُرْسانِ الثلاثة : « مارتنَ » ، و « أنطونيو » ، و « زينِ السيوف باشا » ، واقفينَ بالبابِ كأنهم حُرَّاسٌ أيقاظ ... وكانوا صامتِين لا ينبسُونَ ولا يتحرَّكون كأنهم التماثيلُ . وأكبرُ مالفتَ نظرى من « أنطونيو » ارتداؤهُ أولَ مرةٍ الملابسَ العصريَّةَ ، وقد بدا أنيقًا فيها ، فرِباطُ الرقبةِ رشيقُ العُقْدَةِ بهىُّ اللون ، ومن جَيْبِ السُّتْرَةِ الأعلى يتدلَّى مِنْدِيلٌ شفافٌ ينبعثُ منه أَريجٌ عطِرٌ . أما « زينُ السيوف باشا » فكان يحمِلُ طاقةَ وردٍ فاخرةً تُثْقِلُ ذراعَيْه فينقلُها من يدٍ إلى يدٍ فترةً بعد فترةٍ .

فأما بقيةُ أعضاءِ المؤتمر فكانوا فى قاعةِ الزُّوَّارِ بجوار الرَّدْهَةِ يتلَقَّوْنَ أنباءَ العمليةِ من جِهازٍ فى الحُجْرَةِ مُضَخِّمٍ للصوتِ تُلْقِيها عليهم مُمَرِّضَةٌ في قاعةِ العَمليَّات . وكان مندوبُ البلاغةِ الدولية كعادتِه أنيقًا رشيقَ البِزَّةِ قد اختار لنفسه مُتَّكأً وثيرًا استأثر به وغرِقَ فى حشاياه . أما الرئيسُ فكان واقفًا يتطَلَّعُ من النافذة ويَحُكُّ بخنْصَرِه جلدةَ رأسِه فى الفينةِ بعدَ الفينةِ . على حينِ كان وزيرُ المناطقِ الجنوبية السَّبع يَرُوحُ ويجىءُ فى القاعةِ كأنه كُرَةٌ يتقاذفُها الرُّماةُ . وقد لَفَتَ نظرى من « تيمورلنكَ » أنه كان وهو فى مَقْعَده الفسيحِ مُضْطَجِعًا ضِجْعَةَ السِّيادَةِ وفى

يُمْنَاهُ لِفَافَةٌ سوداءُ كبيرةٌ من تبغ « الهافانا » يَنْفُثُ دخانَها ويتأمّله مستغرِقاً فى تفكير ، وعلى مَقْرَبَةٍ منه عُلْبَةٌ مُلِئَتْ لفائفَ سوداً من ذلك التبغِ الفاخرِ . وبين حِينٍ وحِينٍ يأخذ العُلْبَةَ فى يده ويعرِضُها على زُمَلائِه أعضاءِ المؤتمرِ من بعيدٍ دون أن يُحرِّكَ ساكناً ، فيُضطرُّ كلُّ واحدٍ منهم إلى التقدُّمِ منه وتناولِ اللِّفَافَةِ من عُلْبتِه . أما إشعالُ اللفائفِ فكان يقومُ به « عبدُ العال » ، إذْ يَحمِلُ قَدَّاحةً ضخمةً على هيئةِ تِنِّينٍ ، إذا ضُغِطَ رأسُه انفتحَ فمُه واندلعَ منه لِسانُ النار . وكان الابتهاجُ بهذه القدَّاحةِ بادياً على « عبدِ العال » إذْ كان يَمُرُّ بها على الحاضرين ، ويَضْغَطُها لحاجةٍ أو لغيرِ حاجة ، كأنه طفلٌ يَعْبَثُ بلُعْبَتِه ،

وسمعتُ أخيراً « مارتنَ » يهمهم وهو واقفٌ دونَ الباب :

إذا لم تَنْجحِ العمليةُ فعلى الفِلْمِ السلامُ !

Stereotype Am businessman

فرأيتُ « زينَ السيوف باشا » يقول دون التفاتٍ إليه كأنه لا يَخُصُّه بالحديثِ :

ليسَ الفلمُ ما يَعْنِينا . صِحَّةُ المَلِكةِ قبلَ كلِّ شيء . ليس يَعْنِينا أمرٌ سِواها !

فتكلم « أنطونيو » وهو يُصْلِحُ رباطَ رقبتِه ويُخَفِّفُ ضغطَ عُقْدَتِها :

لا أدرى لِمَ تَشَبَّثْتَ بإجراءِ هذه العمليةِ ؟

فهمهم « مارتنُ » : أَنسِيتَ الزوائدَ اللحميةَ التى تكَثَّرَتْ من رُطوبةِ الجوِّ ؟!

وأخيراً أعلنَ مُضخِّمُ الصوتِ أن العمليةَ قد تَمَّتْ ، فاهتزَّتِ القاعةُ ، وتحرَّكتِ الأقدامُ ، واشتدَّتِ الهمهمة ، وهُرِعَ الجَمْعُ إلى البهو ، وتدفَّقوا على حُجْرَةِ العمليَّاتِ يتقدَّمهم الفُرْسانُ الثلاثةُ ... واجتزْنا ممرًّا صغيراً أسلَمَنا إلى الحجرة ، فوجَدْنا « كليوبترة » مُضْطَجِعةً على مَقْعَدٍ فسيح ، وشَطْرُ وجهِها مُغطًّى بالضِّماداتِ ، وعيناها تلتمِعانِ وهى تُقلِّبُهما بين الأعضاءِ مغتبطةً شاكرةً ، وحولها أربعُ مُمَرِّضاتٍ صِباحُ الوُجوهِ يَبْذُلْنَ فى العنايةِ بها غايةَ المجهود . وشاهدتُ الطبيبَ الرُّوسىَّ « الدكتورَ ميخايلوفتش » أمامَ « زينِ السيوف باشا »

يناقشه فى طاقة الورد وضرورة إبعادها عن الحجرة ، و « زين السيوف باشا » محتقن الوجه يدمدم . وكان الدكتور ضئيل الجسم أمرد الوجه لماع البشرة نفاذ العينين ، يرتدى معطفا أبيض محسور الأكمام . وعلى رأسه قلنسوة بيضاء منشاة تطل من حافاتها بوا كير المشيب . وحسم « أنطونيو » الخلاف بين « زين السيوف باشا » والدكتور بأن اختطف طاقة الورد من « زين السيوف باشا » وقذف بها فى الممر . وعاد مقبلا على « كليوبترة » فاتخذ مكانه على مقربة من قدميها ... على حين أخذ بقية الأعضاء يتعاقبون تجاه الملكة يحيونها ويهنئونها بنجاح العملية . وأعلن الدكتور « ميخائيلوفتش » أن « كليوبترة » ستبقى رهن المعهد ثمانيا وأربعين ساعة ، ثم تنزع الضمادات ، وتستأنف نشاطها كسابق عهدها . فشاهدت وجه « مارتن » يتألق بشرا ، وسمعته يهمس لـ « كليوبترة » :

إذا أذنت بدأنا التجارب بعد أيام قلال ...

فابتسمت له ابتسامة الموافقة ثم ألفتها تشير إليه أن يدنو منها ، ورأيتها تسر إليه كلمات ، فما إن سمعها حتى قال لها : تستطيعين أن تطمئنى ... عولى علىّ !

وتوسط الدكتور الحجرة وقال بصوت أبح : انتهت الزيارة !

فوجدنا « تيمورلنك » يشمخ بهامته ويلتفت إلى الأعضاء ويشير إشارة خاطفة آمرة . ثم تقدمهم خارجا فتبعوه جميعا ... وأخذنى « مارتن » من يدى ، وقال لى ونحن نجتاز الممر : سنذهب توا إلى معبد أبى الهول !

— أثمة حاجة طارئة إلى الذهاب ؟

— سنجرى فى المعبد بعض إصلاحات فنية ، تستلزمها صحة الملكة ...

وضغط يدى وقال : يجب أن ينتهى العمل فى ثمان وأربعين ساعة على الأكثر ، وسنجلب من العمال ما يكفى لإنجاز هذه المهمة مهما يكن عددهم . هلم . هلم ...

أول فبراير

ما إنْ تقضَّتْ ثمانٍ وأربعونَ ساعةً حتى انقلب المعبَدُ قصراً فاخراً ، كأنما جالتْ فيه يدُ ساحرٍ ... كلُّ شيء فيه يُعبِّرُ عن الترَفِ والرفاهية ... أثاثٌ ثمين ... ثُرَيَّاتٌ كهربيَّةٌ رفيعةُ الطِّراز ... أجهِزَةٌ لتكييفِ الهواء ... حمَّامٌ على أحدث أسلوب ... وأبرزُ ما فى المكان إقامةُ حانٍ أمريكيٍّ فى ركنِ البهوِ حافلٍ بشتَّى ألوانِ الشرابِ وصُنوفِ الأطعمةِ والمُشَهِّيات ...

وبينما كنتُ أنا و«مارتنُ» نُجْرِى الترتيباتِ التكميلية ، أعلنَتْ لنا كُبْرَى الوصائفِ أن سيارةَ « كليوبترةَ » أتتْ تُقِلُّ الملكةَ ... فهرولْنا نحوَ الباب نستقبلُها ، فألفيناها تترك السيارةَ معتمدةً على ذراعِ الطبيبِ الرُّوسِيِّ ، يحيطُ بها الممرِّضاتُ الأربعُ ، وفى المُقَدِّمةِ « زينُ السيوف باشا » و « أنطونيو » يفسحانِ لها الطريقَ . وكانَ « أنطونيو » فى حُلَّةٍ عصريَّةٍ جديدةٍ غيرِ التى كان يلبَسُها أولَ مِنْ أمسٍ ، وكثيراً ما كان يُخْرِجُ مِنْدِيلَه الحريريَّ المُعطَّرَ يمْسَحُ به وجهَه ؛ فيخالِسُهُ « زينُ السيوف باشا » النظرَ فى امْتعاضٍ وازْدِراء .

وحيَّتْ « كليوبترةُ » « مارتنَ » تحيةً لبِقَةً واستبْقَت يدَه لحظةً فى يدِها وقالت :

ماَرأيُكَ فى نتيجةِ العمليةِ ؟ !

فصاح « مارتنُ » ، وقد لوَّحَ بيديه فى حركةٍ تمثيليَّةٍ عريضةٍ :

نجاحٌ باهر ... توفيقٌ عظيم ... Marvelous مارفلاس !...

فكركرتْ « كليوبترةُ » فى الضَّحِك وتابعتْ سيْرَها ... وأردتُ أن أنظرَ إلى أنفِ « كليوبترةَ » ، لأَتبيَّنَ ماجدَّ من تغيير ، فلم ألحظْ شيئاً غيرَ ما كان . واتهمتُ بصرى أولاً وذكائى ثانياً ... وكانَ الدكتور « ميخايلُوفِيتْشُ »

يخوضُ فى حديثٍ طويلٍ شارحًا الملكةِ كيف أنه أحْرقَ من الغضاريفِ الباطنةِ للأنْفِ مقدارَ ملِّيمترَيْنِ ونصفِ ملِّيمتْر ، وكيف ضَغَط الأنفَ من الخارج ضغْطًا فزيولوجيًّا غيرَ مباشر ، وكيف أنها عمليَّةٌ جراحيَّةٌ حديثةٌ الطريقةِ اخترَعَها هو نفسُه وينتظِرُ عرْضَ دقائقِها ونتائجِها على المجمعِ الطِّبِّى في كورْنييف .

ودخلنا المعبَدَ ، فدارتْ « كليوبترةُ » بنظرِها مأخوذةَ اللُّبِّ مبهورةً بما ترى ، ورنَتْ إلى « مارتنَ » رُنُوَّ الشكرِ قائلةً :

لِمَ كلُّ هـذا يامارتنَ ؟ !

— من أجلِ محبتكِ ياصاحبةَ الجلالةِ ... لقد كان وَكْرًا رَطْبًا ... !

ووقفتْ « كليوبترةُ » أمامَ مِرْآةٍ كبيرة ، وأطالت وِقْفتَها تتأمَّلُ وَجْهَها ، فقال « مارتنُ » هامسًا :

بِوُدِّى لو كان أوكتافيوسُ حيًّا لِيَراكِ فى هذا البهاءِ ...

— ماذا تَظُنُّه فاعلاً ؟

— إذن لَاخْتَطفَكِ — من فورِه — إلى رُومَةَ ، لِيُتَوِّجَكِ ملِكةً للعالَمِ أجمعَ ...

فبرزَ « أنطونيو » وقال : ما كنتُ لِأَسْمحَ له أن يفعلَ ... !

فقال « مارتنُ » ، وقد ضَربَ بيدِه كتِفَ « أنطونيو » : أنَسِيت أنك كنتَ قد رحلْتَ إلى العالَمِ الآخرِ قبلَ قدومِ أوكتافيوسَ ولقائه الملكةَ ؟

— مهما يكنْ من أمرٍ ، فإنى على ثقةٍ من وفاءِ كليوبترةَ !

— يامستر قيصر ... إن كلمةَ وفاء التى تتشدَّقُ بها لا تُناقِضُ تتويجَ « كليوبترةَ » ملِكةً للعالَمِ تقديراً لجمالِها وبهائها وعظمتِها ...

فقال « أنطونيو » : إنكم معشرَ الأمريكيِّين — كما علِمْنا — تريدون قلْبَ

natural digression

كلّ شيءٍ رأسا على عقبٍ ، لن ترحموا شيئًا حتى معانى الفضيلة ... !

فصاح « مارتنُ » :

لاتنسَ ياصديقى أن « الفضيلة » من صُنْعِ أيدِينا نحنُ أبناءَ الحياة ...

ووجدْنا « زينَ السيوف باشا » يرسِلُ ضحكةً خشِنَةً مترفعةً كأنه يَزْدَرِى كُلاًّ من المتحدِّثَيْن . وسمعْنا الطبيبَ يقولُ :

بل قلْ ياجنابَ القيصر إنّ الأمريكيينَ يريدون وضْعَ الأشياءِ مواضِعَها الصحيحةَ ، بعيداً عن التقليد والوهْم . فهم يقْصِدون الحريةَ والتجديدَ والاِبتكارَ ...

فقهقه « زينُ السيوف باشا » يقول :

حتى فى الفضيلةِ يريدُ السادةُ الأمريكيُّون التجديدَ والاِبتكارَ ... ؟ !

فالتفت « مارتنُ » إلى « زينِ السيوف باشا » يقول :

أحسبُكَ تقصِدُ ياسيدى الجنرالَ أن تقولَ إن الفضائلَ لها حدودٌ مُعيَّنَةٌ لاتتعدَّاها ، ومعانٍ واضحةٌ لا خفاءَ فيها ، مهما تغيَّرَ الوقتُ واختلفَتِ البيئةُ !

فراح « زينُ السيوف باشا » يفتِلُ شاربَه ، ويقول :

الفضيلةُ هى الفضيلة فى كلّ زمانٍ ومكان .. فمثلا السَّرِقة ... ألها معْنًى غيرُ المعنى الواضحِ الذى نَعْرِفُه ؟

فدنا منه الطبيبُ الروسِىُّ ، يقول :

إذن فاشرَحْ لنا ياسيدى الجنرالَ ماهى السَّرِقَة ؟

فقال « زينُ السيوف باشا » فى تعاظُمٍ وقد عقَدَ مابين حاجبيْه :

ألا تعرفُ ماهى السرقةُ ؟ ليس للسَّرِقَةِ إلَّا معنى واحدٌ ... السرقة هى أن يأخُذَ الإنسانُ من أخيه الإنسانِ ماليسَ له وما لا حقَّ له فيه ...

فصاح « مارتنُ » : هذه هى المسألَة - كما يقولُونَ - فهل تستطيعُ أن تُحدِّدَ لنا ياجنرالُ حقوقَ الفردِ تحديداً واضحًا ، وتُبصِّرَنا بما يَجُوزُ لِلإنسانِ أن

يأخذه من زميلِه الإنسانِ وما لا يجوزُ له أَخْذه ؟

فوقف « زينُ السيوف باشا » وِقْفَة السِّيادة ، رافعًا هامتَه ، باسطًا مَنْكِبيه عابسًا بعضَ العُبُوس ، وقال : إنك تأخذ بأسلوبِ السُّفْسطائيِّين ياسيدى فى مناقشاتِك ... على هذا المِنْوالِ نستطيعُ أن نتبادلَ الحديثَ الساعاتِ الطِّوالَ ، ونلوكَ في أشداقِنا الكلماتِ الجوفَ ، دون أن نصلَ إلى نتيجةٍ تَطْمَئِنُّ إليها النفسُ. إن هذا الأسلوبَ لا يَرُوقنى فى المناقشةِ ...

فقال « مارتنُ » ، وقد ضرب بيدِه كَتِفَ « زينِ السيوف باشا » : فلنفرِضْ أنكَ على حقٍّ ... إذن فقلْ لى فى لهجتِكَ الصريحةِ الحقَّةِ : ماذا تُسمى الشُّيوعِيِّينَ في روسيا ؟

فصاح « زينُ السيوف باشا » على الفور : لُصوص ... !

فقال « مارتنُ » :

ولكنهم هُمُ الذين يعتبرونَكَ أنتَ ومَن على شاكِلَتِكَ من ذَوِى رُءُوسِ الأموالِ من أَنْبَغِ اللصوصِ وأمهرِهم ! ... فأيُّ الفريقيْنِ على حَقٍّ ؟ !

فتضاحكَ الطبيبُ الرُّوسىُّ طويلا ، وراح « زينُ السيوف باشا » يفتِلُ شاربَه فى شِدَّةٍ ، وهو يغمغِمُ بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ .

وتقدم « أنطونيو » فى هُدوءٍ يقولُ :

على كلِّ حال أرى أن الفضيلةَ ليست إلا مسألةً شخصيَّةً بحتةً ، على الإنسان أن يُفسِّرَها وَفْقَ عقلِه ومِزاجِه ، وما دام ضميرُه مرتاحًا لهذا التفسيرِ فهو على حقٍّ .

فهَيْنَمَتْ « كليوبترةُ » تقولُ :

ولكن لا تنسَ ياأنطونيو أنه يجِبُ ألَّا يكونَ فى هذا التفسيرِ ما يَضُرُّ بالآخرين ... يجب أن يكونَ الدافِعُ لنا فى تفكيرِنا وأعمالِنا الخيرَ وَحْدَه ، خيرَ الإنسانيَّة ... !

فصاح الطبيبُ الروسىُّ قائلا :

لا فُضَّ فُوكِ يامولاتى !

فرنَتْ « كليوبترةُ » إليه مبتسِمَةً ، ثم أخذتْ بيدِه وقالت :

أَلَا تأتى لتطوفَ بالمَعبَدِ لتتأمَّلَ ما صنَعَهُ هذا الساحرُ مارتن من أعاجيبَ ... ؟

وبدأتْ طَوافَها بأرجاءِ المَعْبَدِ ، والجمعُ حولَها يبالغُ فى الترحيبِ بها ...

ثم استدعَتْنى الملِكةُ قائلةً :

سنعقدُ المؤتمرَ فى المعبدِ غداً ياحضرةَ السكرتير ... فى البَهْوِ الكبيرِ ... اتَّخِذْ ما يَلْزَمُ ...

---

٢ فبراير

عقد المؤتمرُ اليومَ جلْستَه في البَهْو الكبيرِ من مَعْبَدِ أبي الهوْل، عن كثَبٍ من الخانِ الأمريكانيّ في ضِيافةِ «كليوبترة» ... إذْ توافدَ الأعضاءُ على البَهْوِ في وَقارهم المعهودِ تتجلَّى على وجوهِهم مخايلُ البِشْرِ والارْتياحِ. وأقبلتْ عليهم «كليوبترةُ» ترحِّبُ بِمَقْدَمِهم وتُغدِق عليهم تحياتِ الإيناس. وكانت ترْفُلُ في ثيابٍ شرقيَّةٍ أخّاذة، والأعضاءُ يحوطونَها بنظراتٍ مُتَطلِّعةٍ يتوضَّحُ فيها الفُضولُ والإعْجاب، وكانوا يُهنِّئونها بنجاحِ العمليةِ الباهرِ وبما شَمِلَ مَسْكَنَها من بدائع التجديد. ثم أخذوا يتنقّلونَ في البَهْوِ يتطارَحونَ أفانينَ الحديثِ.

وبعد حِينٍ رأيتُ «عبدَ العال» يَقْدُمُ مع الخَدَمِ حاملينَ خِزانةَ مندوبِ البلاغةِ الدَّوليَّة ووسائدَهُ. وعُنِيَ «عبدُ العال» بتَهْيِئةِ المَقْعَدِ لمندوبِ البلاغةِ، وما كادَ يَفرُغُ حتى لاحَ سيادَتُه يتخطَّرُ في ملابسَ أُرْجُوانيَّةٍ زاهِيَةٍ، فما إن وَقَعَ بَصرُه على المَقْعَدِ المُعَدّ له حتى التفتَ إلى «عبدِ العال» قائلا:

أنتَ اليومَ نشيطٌ مجتهِد ... بُورِكَ فيكَ!

— أنا على الدوام خادِمُك.

— يبدُو لى أنكَ ذو قَلْبٍ طيِّب، على الرَّغْمِ مما يَبْدُرُ منكَ أحيانًا من فَرَطاتٍ ونَزَواتٍ ...

— إنى أبْتَغِي دائمًا مَرْضاةَ صاحبِ السِّيادَةِ ... ماذا تُحبُّ ياسيدى أن نُحْضِرَ لكَ من المُرطِّبات؟

— كوكتيل مارتن ...

وانحنَى «عبدُ العال» مُطيعًا، وهُرِعَ إلى الخانِ يأتى له بما طَلَبَ.

وفى هـذه اللحظةِ ظهرَ « مارتنُ » ، فما إن رآهُ الجمعُ حتى هَشوا له مُرحِّبينَ . ووقف « تيمورلنكُ » متوسِّطًا الجمعَ ، وصاح :

لقد انتخبناكَ يامستر مارتنُ عُضْواً فخريًّا فى هيئة المؤتمر إكباراً لرُوحِكَ السامية فى نُصْرةِ قضيَّةِ السلام ، والتفكيرِ فى بَثِّ المبادئِ الإنسانيـةِ الكريمةِ بشتَّى الطُّرقِ الفنِّيَّةِ ...

ثم طافَ بنظرِه فى الجمعِ قائلا : أثَمَّةَ اعْتراض ؟

وكانت عيناه تُرْسِلانِ بريقًا حادًّا ، ويدُه قابضةٌ على العصا الضخمةِ التى تُتَوِّجُها حمامةُ السلامِ ، فتصايحَ الجمْعُ موافقين ، وتتابعوا على « مارتنَ » يهنِّئونَه بالعُضْوِيَّةِ الفخريَّةِ . وسرعانَ ما أُديرت أقداحُ كوكتيل « مارتن » بين الضَّجَّة والصِّياح ... !

وهنا قَدِمَ العالِمُ الرُّوحانىُّ ، وهو يسيرُ مُتَّئِدَ الخَطْوِ ، يَحمِلُ على فمِه ابتسامةً غامِضة ، فلما لَمَحُوهُ سَكَنَتِ الضَّجَّةُ على الفور ...

وتقدَّمَ العالِمُ الرُّوحانىُّ من « مارتنَ » ، وقال له رَزِينَ الصوْتِ :

اهنِّئُكَ ياسيدى الأمريكىَّ ... انتهى إلىَّ وأنا بالباب نبأ انتخابِكَ عُضْوًا فخريًّا ... آنَ للمؤتمرِ أن يَثِقَ بأن النجاحَ أضحى له حليفًا ...

وأرسل قهقهةً خفيفة لا تَخْفَى دَلالَتُها ...

وألفيتُ وزيرَ المناطقِ الجنوبيةِ السبْعِ يُسِرُّ إلى رئيسِ المؤتمرِ قولَه :

لايروقُنى هذا التعبيرُ الملتوى من عالِمٍ وَقُورٍ !

وقال « تيمورلنكُ » بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ لرئيسِ المؤتمرِ :

فلنبدأ الجلسةَ ياسعادةَ الرئيس ... !

فرأيتُ رئيسَ المؤتمرِ قد وقَفَ يُعلِنُ افتتاحَ الجلسةِ بصوتٍ متراخِى النَّبَرات .

وبَسَطْتُ الأوراقَ أمامى ، وقلتُ :

صَوْغُ المادةِ الأولى من ميثاقِ السلام !

فصاح مندوبُ البلاغةِ الدَّولية : وقفَ بنا الكلامُ عند كلمةِ « حربٍ » . وانحنَى على الخزانةِ يُقلِّبُ مافيها من كُتُبٍ . وسمِعْنا مندوبَ اتحادِ الشرق الأقصى يقولُ ، وهو يَطْرِفُ بعينيه الضَّيِّقتَيْن اللامعتَيْن ، ويداعِبُ عُثْنُونَه :

لم نَستقِرَّ بعدُ على رأي في موضوعِ إقامةِ حفلةٍ تدْعي إليها جمعيةُ الرغيفِ الأسوَد ردًّا على دعوتِها لهيئةِ المؤتمر ...

فقالت « كليوبترة » بصوتٍ عَذْبٍ رقيقِ النَّغَم : إنى أضعُ هذا المعبَدَ تحتَ تصرُّفِ المؤتمرِ لهذا الغرض ، إذا رَغِبَ فى إقامةِ الحفلة ...

فصاح « زينُ السيوف باشا » : فِكْرةٌ موفَّقة ... !

واقترَبَ من « كليوبترةَ » يُطْرِى كريمَ اقتراحِها ...

وقال « مارتنُ » على الفورِ : نستطيعُ أن نستغِلَّ الرَّحْبةَ الرمليَّةَ حولَ المعبَدِ لنبسُطَ عليها الموائدَ ونُعلِّقَ الثُّرَيَّاتِ على نحوٍ مبتكَر .

ورأيتُه يُقَدِّمُ لـ « كليوبترةَ » قدحًا من الكوكتيل ، فتتاقَّاه منه وعلى فَمِها ابتسامةُ شُكرٍ رقيقةٌ .

وسَرعان ما رأيتُ « زينَ السيوف باشا » يُخرِجُ من جيبِه لفيفةً ، ويَفُضُّها ثم يضعُها أمام « كليوبترةَ » على المائدةِ . فإذا هى تحتوى حَفنةً من الفولِ السودانىِّ المقشورِ ... وهمس « زينُ السيوف باشا » قائلا :

إنه من أجوَدِ المُشَهِّياتِ ... وقد جلَبْتُه معى من مَوْطِنِه الأصيلِ فى صميمِ السودانِ ، وقمتُ أنا بقَلْيِه وتمليحِه على طريقةٍ خاصَّةٍ ... ولعلَّكِ تلاحِظينَ أن حبَّاتِه غايةٌ فى الضخامةِ والنُّمُوِّ ... !

فأجابته الملكةُ :

أشكُرُ لكَ حُسنَ اهتمامِكَ ... إنى أَستطيبُ هذا الصِّنْفَ من المُشهِّياتِ ...

ورفع الرئيس رأسه ، وقال :

لم نَنْتَهِ بعدُ إلى قرارٍ فى موضوعِ الدعوةِ ...

ودار بعينيه فى بهوِ المؤتمر ، فلم يُعِرْه اهتمامَه أحدٌ ، إذْ كان الأعضاء في شُغُلٍ بالشَّرابِ والمسامرةِ .

وبعد حينٍ توسَّطَ « مارتنُ » المجلِسَ ، وقال عالِيَ الصوت :

أَقترِحُ أنْ تكونَ الحفلةُ تنكُّرِيَّةً يظهرُ فيها الأعضاء بملابِسِ الفِلْمِ .

فاشتدَّ اللَّغَطُ بين الأعضاء ، ومالَ بعضُهم على بعضٍ يتشاورون ...

وطال الجَدَلُ والنِّقاشُ ، على حينِ انتبذَ العالِمُ الرُّوحانىُّ مكانًا قَصِيًّا يرمُقُ الجمعَ بابتسامتِه الغامضةِ ويُصْغِى دونَ أن يَنْبِسَ . وألفيتُ مندوبَ اتحادِ أُوربةَ الشماليةِ يَتَّجِهُ إليه بقامتِه الفارِعةِ ، وجِسمِه الضامِرِ ، وهو يقولُ له :

لماذا لا تقاسِمُنا الحديثَ ياصاحبَ السِّيادة ؟!

فأجابه وَئِيدَ الكلماتِ :

لأنكم تُناقشونَ في التنكُّرِ وليس لى فيه نصيب ... !

فقام وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْعِ مستنيرَ المُحيَّا ، تتلَظَّى نظراتُه من أثرِ الشرابِ ، وقال : لستَ فى حاجةٍ إلى تنكُّرٍ صناعيّ ، ففى زِيِّكَ ما يكفِي !

ثم أطلقَ ضِحْكةً عريضةً ، وهو يتلفتُ حولَه كأنما يريدُ أن يَشْرَكَه الجمعُ فى الإعجابِ بهذه الدُّعابةِ . ولكن الأعضاءَ كانوا فى شُغُلٍ عنه فلم يستجيبوا لِضِحْكَتِه ، وتابعوا نِقاشَهم وجدَلَهم ، وأقداحُ الشرابِ تغدو أمامَهم وتروحُ .

ولم يَطُلْ بهم المُقامُ حتى رأينا العالِمَ الروحانيَّ ينهضُ متَّجِهًا إلى رئيسِ المؤتمر ، فيستأذِنُ فى الانصرافِ لِمَا أَلَمَّ برأسِه من الدُّوارِ . وغادر قاعةَ الاجتماعِ ، وما زالت على فَمِه تلك الابتسامةُ الغامضةُ يُشيِّعُ بها زُملاءه الأعضاءَ . وما إن طوَى ظِلَّهُ البابُ حتى رأيتُ « تيمورلنكَ » يَهمِسُ لـ « كليوبترةَ » قائلًا :

إنى غيرُ مطمئنٍّ إلى تصرُّفاتِ هذا العالمِ الرُّوحانىِّ .

وجعلا يتهامَسانِ بُرهةً ، ولم يَمضِ مَديدُ وقتٍ حتى لَمَحْنا « أنطونيو » يَفِدُ على القاعةِ فى حُلَّتِه الأوربيةِ الأنيقة . وكان الجديدُ فيه أنه يَضعُ على رأسه شيئًا كالخُوذةِ الرُّومانيةِ من اللِّبْدِ ... وأقبل « أنطونيو » على « كليوبترةَ » يُحيِّيها فى تحبُّبٍ ظاهر ، ولم يَنسَ أن يَنْثُرَ على سائرِ الأعضاءِ تحايا خاطفةً ، ثم اتخذ مَقعَدَه بجانبِ المَلِكة . على حينِ كان « زينُ السيوف باشا » يرمُقُه ويتفحَّصُ ملابسَه فى شِبْهِ ازدِراء . وكان الفُرسانُ الثلاثةُ يُحيطون بـ « كليوبترةَ » كلٌّ يتفنَّنُ فى اجتذابِ أنظارِها ، وهى تضاحِكُهُمْ وتُحسِنُ بينهم توزيعَ الحديثِ .

وبعد لحظةٍ وجدتُ المناقشةَ قد حَمِيَ وَطِيسُها : فريقٌ يُشايِعُ رئيسَ المؤتمر فى تحبيذِه التنكُّرَ بملابسَ غيرِ ملابسِ الفِلْمِ ، وفريقٌ آخرُ يناصِرُ فِكْرةَ « مارتنَ » فى إيثارِه أن تكونَ ملابسُ الفِلْمِ هى التى يظهرُ بها الأعضاءُ فى الحفلةِ ، واحتدَّتِ المجادَلاتُ حتى كادتْ تؤدِّى إلى التضارُبِ . فما كان من « عبدِ العال » إلا أن أرسلَ ضَحِكاتِه وهو يُصفِّقُ من طَرَبٍ ، فبُوغِتَ الجمعُ بهذا وأدركهم وُجوم . وصَوَّبوا نَظَراتِهم إلى « عبدِ العال » يستنكِرون فَعْلَتَه . ورأينا « تيمورلنكَ » يسيرُ إليه بعَصاه المُتوَّجةِ بحمامةِ السَّلام . ثم أخذ يُصعِّدُ فيه النظرَ ويُصوِّبُه ، ثم قال له فى صوتٍ يُجلجِلُ غضبًا :

مِمَّ تَضْحكُ ؟ !

فبدا الوجَلُ على « عبدِ العال » ، وقال فى تَذلُّلٍ وتوسُّل :

لاشىءَ وحياةِ رأسِكَ ياسيدَ الحُكَّامِ !

— كفاكَ هُزُؤًا وسُخْريةً بأعضاءِ المؤتمر ... !

وسمعتُ وزيرَ المناطقِ الجنوبيةِ السَّبْعِ يَصيحُ بقوله :

لا بدَّ أن يُطْرَدَ فوراً ... !

فقال « تيمورلنكُ » : بل يجبُ أن نتَّخِذَ في تهذيبِهِ وسيلةً أُخرى ... ثم شمَّرَ عن ساعِدِه وأمسكَ بـ « عبدِ العال » وأخذ يُشبِعُه لكماً وركْلاً .

وكان كُلّما سقطَ وهَمَّ بالنُّهوض ، عاجَلَه « تيمورلنكُ » بلكماتٍ تَصرَعُه ، فراح « عبدُ العال » يَصيحُ ويَستَغيثُ بأعضاءِ المؤتمر ويناشدُهم الرحمةَ والإشفاقَ باسمِ المحبَّةِ والسَّلامِ . ولما لم يجِدْ من أحدٍ انبعاثاً لنَجدتِه انطلقَ يَنعتُ « تيمورلنكَ » بالوحشيَّةِ والجبروتِ . وعَجِبْتُ من نفسي كيف لم أهُمَّ بنجدتِه ؟ وكيف تسمَّرتْ قدمايَ وتخاذلَتْ قُوايَ . فقد تمَّ هذا المشهدُ في سُرعةٍ عجيبةٍ ومباغتةٍ عاجلةٍ لم نستطعْ معها أن نُبدِيَ حراكاً ، وخرج « عبدُ العال » من المعركةِ يَجُرُّ نفسَه ذليلاً كالكلبِ المزجورِ أثخنَتْه الجراحُ .

وعاد « تيمورلنكُ » وهو يُصلِحُ من ثيابِه ويقول :

إن هذا الوقِحَ ينعَتُنا بأننا طُغاةٌ متوحّشون ، ونَسِيَ أنه بأعمالِه الصبيانيَّةِ يُفسِدُ جوَّ المؤتمر ويُعكِّرُ علينا صفوَنا . فلنكن طُغاةً في سبيلِ المحافظةِ على الصفاءِ والنظامِ وإقرارِ السَّلامِ ! ...

فصاح وزيرُ المناطقِ الجنوبيةِ السبعِ بصوتٍ حماسيٍّ يُدوِّي :

حسناً فعلتَ ... !

ورأينا بقيَّةَ أعضاءِ المؤتمر يُؤيِّدون قولَ الوزير ... وتوسَّط « تيمورلنكُ » الحلْقةَ ، وقال بصوتٍ جهوريٍّ عليه مسحةُ الاهتياجِ :

أقترِحُ أن يكونَ التنكُّرُ بملابسِ الفلْمِ ...

فوافقَ الجمعُ بسرعةِ البرق !

ثم قال لرئيسِ المؤتمر في لهجةِ الآمرِ :

يتفضَّلُ سعادةُ الرئيسِ بإعلانِ انفضاضِ الجلسةِ ...

فسرعانَ ما استجابَ له الرئيسُ في صوته المتخاذِل ...

وتفرَّق الأعضاء على الأثرِ منصرِفينَ ، وأقفرت المناضدُ من جُلاَّسِها ، إلا مائدةً واحدةً جلسَتْ إليها « كليوبترةُ » ومن حولِها فُرْسانُها الثلاثةُ : « مارتنُ » و « أنطونيو » و « زينُ السيوف باشا » ، وأمامهم أقداحُ الكوكتيل وطبَقُ الفولِ السودانيِّ الضخمِ الحبَّاتِ ، وتجاذَبوا الأحاديثَ شائقةً تَشيعُ فيها الدُّعابةُ والهَزْلُ . ورأيتُ أخيراً « كليوبترةَ » تشُدُّ أُذُنَ « زينِ السيوف باشا » فى جُرْأةٍ ظاهرة ، فتهلَّلَ وجهُه ، وشرعَ يتضاحكُ مُنتفخَ الأوداجِ مُتَرَنِّحَ الأعطافِ ... ونهضَ « أنطونيو » وقد تضرَّجَ وجهُه وقال فى حِدَّةٍ :

أصارِحُكِ يا كليوبترةُ بأنكِ جاوزْتِ الحدَّ ... !

فنظرتْ إليه الملكةُ فى شىءٍ من الكبرياءِ ، وقالت : أيَّ حَدٍّ تريدُ ؟ !

— لايروقُنى منكِ أن تَجْذِبى أُذُنَ الجنرال !

فصاح « زينُ السيوف باشا » :

ولكنّ ذلك يروقُنى ... فأَرِحْ نفسَكَ !

فتصدَّى « مارتنُ » لـ « أنطونيو » قائلا :

كنْ على ثقةٍ أنَّ مافعلتْه الملكةُ دُعابةٌ من الفنِّ الرفيعِ ...

فأجاب « أنطونيو » فى غَضَب : بل إنها دُعابةٌ من الفنِّ الرَّخيص ...

فقالت « كليوبترةُ » وقد أشاحتْ بوجهِها عن « أنطونيو » :

حقًّا لقد أَثْقَلَ فى الشرابِ ... وهذا عَيْبُه !

فردَّ « أنطونيو » :

كُلُّنا أثقلْنا ... لايمكنُ أن أَغْفِرَ لكِ جَذْبَكِ أُذُنَ الجنرالِ !

فأجابت « كليوبترةُ » :

اِحْتَشِمْ فى قولِكَ ياأنطونيو ... بأىِّ حقٍّ تجترِئُ علىَّ بما تقولُ ؟

فصاح « أنطونيو » ، وقد احتقن وجهه :

بحق الحب الذى أبادلك إياه !

فأخذ « زين السيوف باشا » يقهقه ... وقال « مارتن » :

أى حب ؟ كلنا نحب كليوبترة ونجلها ونفنى فى سبيل خدمتها ...

فأجاب « أنطونيو » : إنك تنتصر لها لأنها عركت أنفك فيما سلف ...

فتحسس « مارتن » أنفه على الفور ، وقال :

أنفى ؟ ... أنفى ؟ ... لا أذكر أنها عركت أنفى !

— أما أنا فأذكر ذلك ولا أنساه ...

فوضع « مارتن » يده في خاصرته ، وقال لـ « كليوبترة » :

أقترح ياسيدتى فضاً للنزاع أن تجبرى خاطر صديقنا القيصر بقرصة لطيفة تنزل عليه برداً وسلاماً !

فضرب « أنطونيو » المائدة بجمع يده ، فاهتزت ، وكاد يسقط ما عليها ، وقال : وهل أنا كمثلكما أرضى بهذه الدعابات الجريئة ؟

فتبعه « زين السيوف باشا » بضربة أخرى بجمع يده على المائدة حتى كادت تنقض لها ، وقال :

إنك تهيننى ، وإنى أطلب منك اعتذاراً صريحاً فى الحال ...

وأترع « مارتن » قدحه ، ودفعه مرة واحدة في فمه ، وقال :

أما أنا فلا أطلب اعتذاراً ... إنى أدعوك ياقيصر لملاكمة علنية بيننا ... وعليك أن تحدد الموعد ...

فنهضت « كليوبترة » ، وقالت متهدجة الصوت :

كل هذا أنا سببه ... إليك يامارتن اعتذارى ، وكذلك إليك ياجنرال ... أرجو أن تتناسيا حماقة هذا الطائش ... !

ثم أخذتْ بيدِ « أنطونيو » وانتحتْ به ناحيةً ، وقالت له :

إنكَ برُعونَتِكَ توقِعُنى دائمًا فى مآزِقَ ... !

— وهل الذنبُ ذنبى ؟ !

— ذنبُ مَنْ إذن ؟ !

— إنى أُحِبُّكِ يا كليوبترة ، أُحبُّكِ ، ولا ...

— ألا تعلمُ أنكَ تُضايقُنى بهذا الحبِّ ؟

— رُحماكِ إنى غَيُورٌ ... !

وبدا عليه التَّصاغُرُ والتخاضُعُ والاِستِرحامُ ، فقالت له فى شىءٍ من التعالى :

عاودَتْكَ فِعالُكَ الصِّبيانيَّةُ ... !

فأقبل عليها فى تلهُّفٍ وهو يقول : أُريدُكِ لى ... لى وحدِى !

فأشارت إليه فى عُنْفٍ ، وقالت : مكانَكَ !

— أنتِ لا تحِبِّيننى كما أُحِبُّكِ !

فأجابتْه وقد عَقَدَت يدَيها على صدرِها ، ووقفتْ شامِخةَ الأنفِ :

نعم لا أُحِبُّكَ ... !

— ولكنكِ تُحِبِّينَ غيرى !

— أُحبُّ من أشاء وأُبغِضُ من أشاء ...

فأرادَ أن يُمسِكَ بها ، فدفَعَتْه دَفْعةً ترَنَّحَ على أثَرِها ، ثم وقفَ تُجاهَها بُرْهةً يَحدِجُها بنظراتٍ تتوقَّد ، ثم همهم : لا بأسَ ... لا بأس ...

والتفتَ يريدُ الاِنْصرافَ ، فاعترضَتْ طريقَهُ زَهْرِيَّةٌ مُلِئَت وردا ورَيحانا ، فركَلَها رَكْلَةً طاحتْ بها وتركَتْها على الأرضِ حُطامًا .

وانصرف كالزَّوْبَعةِ العاتيةِ ... ورَجَعتْ « كليوبترة » إلى صديقيها وهى تُرَوِّحُ وجهَها المحتَقِن ، فما إنْ دانَتْهما حتى أخذَتْ تُكَرِّرُ لهما الاِعْتذارَ ،

وتنافَسَ كلاهُمَا فى التخفيفِ عنها بإعدادِ كُرْسِيِّها وتَقْدِيمِ الشرابِ لها .

وما هى إلاَّ هُنَيهَةٌ حتى عادتْ « كليوبترة » تتحدَّثُ إلى « مارتنَ » « وزينِ السيوف باشا » فى شأنِ حَفْلَةِ غَدٍ ، وما يكونُ لها من بَرْنَامجٍ ...

ثم استَدْعَتْنى تقولُ لى : كن على اتِّصالٍ بمستر مارتنَ لإِعْدادِ حفلةِ غَدٍ ...

والآنَ يَسعُكَ أن تنصرِفَ إذا شِئْتَ ...

فخرجتُ لِتَوِّى أطْلُبُ « عبدَ العال » فأخبرُونِى بأنهم نَقلوه إلى منزلِه فى حالة يُرْثَى لها ، فقصدتُ إليه ، فوجدْتُه يَتَقلَّبُ على فراشِه وهو يتأوَّه ، وقد تعدَّدَتْ على جَسَدِه الكِمادَاتُ والضِّمادات ، وحين وقع بَصَرُه علىَّ قال :

حتى أنتَ ياسيدى السكرتيرَ لَمْ أَلقَ منكَ معُونَةً ؟

فأقبلتُ عليه وقد ملكَنى الخجلُ والحيْرَة ، وقلتُ :

أُقسِمُ لكَ ياعبدَ العال إن الأمرَ قد اختلط علىَّ ، حتى إنى لم أَدْرِ ماذا أفعلُ ؟ لقد عَقَدَ الذهولُ لسانى وشَلَّ يدى ... !

فغمغم « عبدُ العال » مغمضَ العينينِ قائلا :

فَوَّضْتُ أمرِي فيكُمْ إلى اللهِ ...

وتحرَّكَ فى فِرَاشِه كأنه يريدُ أن يعتدلَ فى مَرْقَدِه ، فسرْعان ما أحسَّ ألمًا حادًّا صرخ منه صرخةً عالية ، ثم استقرَّ في فراشه لحظةً ، وقال وقد فتح عينيه وهما تلتهبان غضبًا :

سيرَى ... سيرَى ... سيرى هذا التَّترىُّ صاحبُ حمامةِ السلامِ عُقْبى مافعلَ بى !

فأدركتُ أنه يَهْذِى ، فأقبلتُ عليه أُطَيِّبُ خاطِرَه وأُسَرِّى عنه .

٣ فبراير

مررتُ بـ « مارتنَ » فى الاستديو ، فوجدتُه بالباب وقد جاء بسيارةٍ ضخمة حَمَّلها مُختلفَ الأزياءِ والأثاث ، ومضينا إلى المعبدِ ، نُعِدُّ العُدَّةَ لحفلةِ المَساء ، وما كادت الشمسُ تُؤْذِنُ بالمَغيبِ حتى كانت المُعِدَّاتُ كلُّها قد تمَّتْ ، وحتى كان المعبدُ كلُّه قد أَخذ زُخْرُفَه وازَّيَّن . ومما تفنَّن فيه « مارتنُ » أنه رَكَّبَ حولَ أبى الهولِ مصابيحَ صَبَّتْ عليه أضواءَها الساطعةَ ، فكسَتْهُ حُلَّةً مُزَرْكَشَةً تأخذُ بلُبِّ الناظِرِ ، وكذلكَ سَلَّطَ هذه الأضواءَ المختلفةَ الألوانِ على الرِّمالِ المنبسطةِ فى الرَّحْبةِ حول أبى الهول على نِظامٍ هَنْدَسِيٍّ فَنِّيٍّ ، فأحال تلكَ الرمالَ طَنافِسَ شرقيةً مُلَوَّنةً بهيجةَ المنظرِ بالغةَ الرُّوَاءِ .

وقد مُدَّت الموائدُ على هذه الطنافسِ تَزْخَرُ بشتَّى المطاعِمِ والمشارِبِ على نَسَقٍ مُبتَكَرٍ تتجلَّى فيه الأناقةُ والمَهارةُ والبهاء ...

وبدأَ أعضاءُ المؤتمرِ يُوافونَ المكانَ ، فكنتُ أُرافِقُهم إلى الحُجرِ حيثُ كان « مارتنُ » يوزِّعُ عليهم الأزياءَ ، ويُسْلِمُهم إلى الخدمِ لِيُعِينُوهم على ارتداءِ ثيابِ التنكُّر . وشُغِلْتُ بعد ذلك باستقبالِ المدعُوِّينَ من الرجالِ والنِّساءِ وإحلالِهم أمكِنَتَهم من الموائدِ ، وكان كلٌّ منهم مُتَّخِذاً حُلَّةً تَنَكُّرِيَّةً تدعو إلى الإعجاب ، حاجبًا نصفَ وجهِه بنِقابٍ لاتبدو منه إلا العينان ، فكادتْ شخصيَّاتُهم تَخْفَى علىَّ ، ولكننى اهتديتُ سريعًا إلى معرفةِ العملاقِ الرُّوسىِّ مندوبِ جمعيةِ الرغيفِ الأسوَدِ حينما جاء يتخَطَّرُ فى حُلَّةِ سُلطانٍ من سلاطينِ آلِ عثمانَ ، وحولَه سِرْبٌ من جواريه تمثِّلُ كلٌّ منهنَّ قُطْرًا من أقطارِ الإمبراطوريةِ العثمانيَّةِ القديمةِ ، واختار مَجلِسَه على ظهرِ أبى الهول حيث مُدَّتْ له مائدةٌ حافلةٌ بقَنانِىِّ الفودكا

وصحاف البطارخ الروسية . وكانت الموسيقى أثناء ذلك تصدح وأنغامها تنساب في الجو دون أن يرى العازفون أو ترى مضخمات الأصوات .

... ولما حل الموعد هرعت إلى دخيلة المعبد وبيدى هراوة ضخمة وفق التعليمات التي أرشدت إليها ، وقرعت الأرض بها قرعات ، وصحت بأعلى صوتى :

صاحبة الجلالة تقرتيتى ، وصاحب الجلالة أخناتون ... !

وانفتح الباب ، وظهرت « كليوبترة » تتألق فى ملابس « تقرتيتى » وبجوارها « مارتن » فى لبوس « أخناتون » آخذاً بيمينها . فانحنى الجمع أمامهما في صمت وروعة ، وجعلا يسيران فى طريقهما حتى بلغا الرحبة الرملية حول أبى الهول ، وكانا يحييان المدعوين فى وقار ملكى مهيب .

وسرعان ما صدحت الموسيقى بلحن راقص بديع . فافتتح الملكان الدورة برقصة فرعونية أخذت بلب الجمع ، وتتابع المدعوون يتراقصون ، فكنت ترى المكان يضطرب بأمواج زخارة من حلل وحلى رفافة تزيدها الأضواء سحراً وفتنة !

وتوالت دورات الرقص والشراب والطعام ، وشاع فى المكان جو رائع خلاب من الأنس والمرح ، وبدأت أندمج مع الجمع فيما هم آخذون فيه ، فنلت قسطاً من الطعام والشراب ... وشاهدنا العملاق الروسى وقد قام منتصب العود على ظهر أبى الهول وغاداته يتعلقن بعنقه وكتفيه فيحملهن ذهوباً وجيئة وهو يخطو على إيقاع الموسيقى ويتمايل طوعاً للنغمات .

أما « تيمورلنك » فكان يتبختر في لبوسه الحربى ، لبوس القائد السورى الأعظم ، وهو متقلد سيفه المرصع ، تزهو عليه حمائله ، يأمر وينهى فى حراسه وغير حراسه !... فإذا ما أدركه النصب اتجه نحو مائدة مندوب البلاغة وانهمك معه يلاعبه الشطرنج ويناقسه فى تدخين النارجيلة ... أما « زين السيوف باشا »

فكان دائماً يُلازِمُ المَلِكَيْن ، وهو في ملابِسِ « حورمحب » القائِدِ المصرى الأعلَى ، ويبدو أنه قد أَقْنَعَ نفسه بأنه مادام قد اختارَ دَوْرَ القائِدِ فمكانُه الطبيعيُّ هو المكانُ الثانى بعد المَلِكِ ... ومن ثَمَّ حَرَصَ على ألَّا يُفارِقَ المَلِكَين ، فهو إما بين يديهما يَفسَحُ لهما الطريقَ ، وإما خلفهما يتفقَّدُ الحاشيةَ والأتباعَ .

وكانت « كليوبترةُ » مبتهجةً ضَحُوكاً لاتفتأُ تُرسِلُ دُعاباتِها الرقيقةَ .

وتغالت فى عَرْكِ أُذُنِ « زينِ السيوف باشا » وجَذْبِ أنفِ « مارتن » دون أن يُبْدِيَ أحدُهما أيَّ تأفُّفٍ أو اسْتِياءٍ . بل لقد كان كلاهما يَغْتَبِطُ لهذا العملِ وتَقَرُّ به نفسُه ، ورأينا « أنطونيو » يدخُلُ بغتةً فى صَخَبٍ وضجيج ، وكان مُتَنَكِّراً فى زِيِّ شيخٍ شرقيٍّ بعِمامةٍ ضخمة وقَباءٍ فَضفاضٍ ، وعلى جانبَيْه « فلورا » و « جانيت » في زِيِّ فلاحتيْن حسناوَيْن ... وتقدَّم نحوَ مائدةِ « كليوبترةَ » وحَنَى رأسه يحيِّيها ، فقال له « مارتنُ » على الأثرِ :

ماأعظمَ توفيقَكَ فى اختيارِ هذا الزِّيِّ الجميل ياشيخَ البلد ... أُهَنِّئُك !

وقال « زينُ السيوف باشا » مبتسِما ابتسامةَ السُّخْريةِ : ومن هاتان الفتاتانِ ؟ !

فقال « أنطونيو » على الفورِ : إنهما زوجتاىَ ... ضَرَّتانِ ، ولكنهما على وِفاقٍ !

فهمهمت « كليوبترةُ » بقولِها ، وقد طبَعتْ على فمِها ابتسامةً مصنوعةً : مُبارَكٌ !

فاعتدَلَ « أنطونيو » فى وقفتِه ، وأمال عِمامتَه على رأسه ، وقال :

إنهما ساذَجتانِ يامولاتى ! ... لاتعرِفانِ جَذْبَ الأُنوفِ ولاعَرْكَ الآذانِ ! ...

فصدَفتْ « كليوبترةُ » عنه بنظرِها فى استعلاءٍ وازدراءٍ ، وتنحنح « زينُ السيوف باشا » مُغْضَبًا ، ودَمْدمَ بألفاظٍ لم تَسْتَبِنْ . أما « مارتنُ » فتقدَّمَ وضربَ بيدِه كَتِفَ « أنطونيو » ، وهو يقول : أنتَ ظريفٌ على الرَّغْمِ من حماقَتِكَ ، ولكن يبدو لى أنه سينتَهِى بىَ الأمرُ إلى أن أَفْصِلَ من وجهِك هذا الأنفَ الرُّومانىَّ الأَقْنَى وأَستبدِلَ به أنفًا شرقِيًّا يناسِبُ ماترتديه من الملابِسِ !

فانحنى « أنطونيو » انحناءةً مسرحيَّةً ، وهو يقولُ :

إنى طوْعُ أمرِكَ ياصاحبَ الجلالة ... !

ثم رفع هامتَه وبالغَ فى إمالةِ عِمامتِه الضخمةِ على فَوْدِه ، واندفع ضاحكاً فى ضَجَّة ... ثم مضى بغادَتيْه إلى مائدةٍ على مَقْرُبةٍ من مائدةِ « كليوبترةَ » وأخذ معهما في الطعامِ والشرابِ . ولكنه كان يُغالِى فى التَّحَبُّبِ إلى الغادتيْن وفى التلطُّفِ بهما على نحوٍ يَسترعِى النظرَ ...

ورأيتُ « زينَ السيوف باشا » ينحنى على « كليوبترةَ » ويقولُ :

ألَا تأْمُرُنى مولاتى بشىءٍ فى شأنِ هذا الرُّومانىِّ السادِرِ ؟ !

فأجابته ، وهى تتكلَّفُ الهدوءَ : لا ... لا .. لا شأنَ لنا به ...

وقام « أنطونيو » يراقِصُ غادتيْه رَقْصًا شرقِيًّا عجيبًا كان موضعَ اهتمامِ الجمعِ وإعجابِهم ، حتى كلَّتْ الأيدِى من التصفيق ... وكان في أثناءِ رَقصاتِه يُخالِسُ « كليوبترةَ » النظرَ ، فيراها وقد تصنَّعَتْ الرزانةَ والإغضاءَ ، فيبالغُ فى الرقْصِ والتضاحُكِ ... !

... قضَى الجمعُ وقتًا طيِّبًا فيما لَذَّ وطابَ من طعامٍ وشراب ، وفى أُنْسٍ متواصِلٍ بالرقصِ والموسيقَى وتجاذُبِ الحديثِ ، وأعترِفُ بأنى جاوزتُ الحدَّ فى الشُّرْبِ ، وأذْكُرُ أننى راقَصْتُ كُبرَى الوصائفِ مرَّاتٍ ، وأكبرُ ظنِّى أنِّى اختلسْتُ منها بعضَ القُبَلِ في زوايا أبى الهوْلِ السَّمْحِ الصَّفُوحِ ... !

والتبسَ علىَّ الأمرُ في النهاية ، فخُيِّلَ إلىَّ أنى أرى أبا الهول يتطايرُ وقد نَشَرَ جناحيه ودَفَّ بهما فى الهواء حاملا على ظهرِه العِملاقَ الرُّوسىَّ بغوَانِيه ...

---

٤ فبراير

أَمْضَيْتُ صبيحةَ اليومِ فى فِراشى أشكو الصُّداعَ وقد اتخذَتْ الكماداتِ المثلوجةَ على جَبِينى ، ولكننى استطعتُ قُبَيْلَ الأصيلِ أن أُغادرَ البيتَ ، فقصدتُ تَوًّا إلى المَعْبَدِ لأستَطْلِعَ ما هنالِكَ ، وأتعرَّفَ : على أيِّ شيءٍ اسْتَقَرَّ الرأْيُ فى أعمالِ المؤتمر ؟ ... فطلَبَتْنى من فَوْرِها « كليوبترةُ » حين علمتْ مَقْدَمِى ، وكان يبدُو عليها بعضُ الضِّيقِ بالرَّغْمِ مما تَتَظاهَرُ به من تَماسُك ، ورغبتْ إلىَّ فى أن أدْعُوَ لها العالِمَ الرُّوحانيَّ ، فلم أَلاقِ عَنَتًا فى الاهتداءِ إلى مَقَرِّه ودَعْوَتِه إلى مُوَافاةِ المِلكةِ ...

دخلَ عليها العالِمُ الرُّوحانيُّ وصافحَها فى سُكونٍ وصَمْت ، ومضتْ هُنَيْهَةٌ لم يبدأْ أَحَدُهما الحديثَ ... وكان العالِمُ يَرْمُقُ الملكةَ بين حينٍ وحينٍ بابتسامتِه الغامِضَةِ ، وهى تُسَرِّحُ طَرْفَها فى الأُفُقِ ، وتَعْبَثُ بقِلادَةٍ فى صَدْرِها .

ولما طال صَمْتُها قال العالِمُ الرُّوحانيُّ : ألم تُرْسِلِي فى طَلَبى ؟

فخفضَتْ من بَصَرِها ، ومازالتْ يَدُها بالحِلْيَةِ عابثةً ، وقالتْ بعد هُنَيهةٍ فى تباطُؤٍ : أردتُ باستدعائكَ أن أتحدَّثَ إليكَ في شئون المؤتمر ... يبدو لى أنكَ لستَ عن أعمالِه براضٍ ...

— هذا أمرٌ يطولُ الجِدالُ فيه ، وليس هذا وَقْتَه ... !

— بل أراه أنْسبَ الأوقاتِ للخَوْضِ فيه ... أطلبُ إليكَ أن تُفضِىَ إلىَّ فى صراحةٍ بكلِّ شيءٍ ! ... ماذا تأخذُ على المؤتمر ؟ ...

— وهل أنتِ محتاجةٌ إلى بيانٍ وتفصيلٍ فيما أُحِسُّه نحوَ المؤتمرِ ؟

— الظاهرُ أن التغالِيَ في النظامِ الديمقراطيِّ وأخذِ الأصواتِ هو الذى

لا يظفرُ برضاكَ ...

فتضاحكَ العالِمُ الرُّوحانىُّ وقتًا وقال: إنها حقًّا لَديمُقراطية عجيبةٌ هـذه التى يَتخذونَ أُسلوبَها ويستتِرُونَ خلفها فى سبيلِ إنفاذِ المـآرِبِ والرَّغَبات ... ومع ذلك فليَفعلوا مايشاءونَ، وليُقِرُّوا مايوافِقُ مِزاجَهم العامَّ ... وهل أنا إلَّا فرْد ؟

— إن أردتَ الحقَّ فإنى أُشارِكُكَ متاعِبَكَ فى صَدَدِ هـذا المؤتمر ... لا أُنـكِرُ عليكَ أنى أحسُّ بشىء من الضِّيقِ بأحوالِه، بل إنى لَأُحِسُّ بالضِّيقِ بكلِّ شىء يُحيطُ بى ... إنى بَرِمةٌ بهذه البيئةِ التى تَـكتنِفنى ... إنه لجوٌّ خانِق! ... خُذْ مثلا: أنطونيو ...

— ما له ؟!

— ألا تراه قد بات لا يصلُحُ له حال ... ؟!

— لماذا ؟

— إنه يخُرُجُ علينا كلَّ يومٍ فى بِدْعةٍ جديدة ... ألم ترَهُ فى خُوذَتِهِ الرُّومانيَّةِ المنسوجَةِ من اللِّبْدِ التى يتَّخذُها غِطاءً للرأسِ ؟ إنهـا أُضْحُوكة، لقد أصبح أنطونيو حقًّا هُزْأةً ... إنه يُعرِّضُ سُمْعتَنا للسُّخرِيَة، سُمْعتَنا نحن الذين جِئنا من العـالَمِ العُلْويّ !

فنظر إليها العالِمُ الرُّوحانىُّ طويلًا نِظرة تَفحُّصٍ، وقال:

إن أمرَ أنطونيو بين يديكِ ... !

— بل بين يديكَ أنتَ ... !

— وماذا تُريدينَ أن أفعلَ ؟

— اِفعل مايروقُكَ ... ولـكنى أُشفِقُ عليك ... إن الألسنةَ قد بدأتْ تتحدَّثُ فى شأنِكَ ... !

— ماذا يقولون ؟

— هذا التراخي ، هذا الضَّعْف ، هذا السكوت ، هذا الإغضاء ... !

— بل أفْصِحي وقُولي الحقَّ ... إنهم يَعْزُون إلىَّ أني أُعَرْقِلُ سَيْرَ المؤتمر ... ولذلك لَزِمْتُ الصَّمْت ...

ثم اعتدل في جِلْستِه ، وواصل حديثَه قائلًا :

أراكِ تعيبينَ على أنطونيو تصرُّفاتِه ، ولكنَّ كلَّ الأعضاءِ قد صاروا في نظري أنطونيو ... كلَّهم ... لاأستثْنِي مِنهم من أحدٍ ... !

فظهرَت على « كليوبترةَ » مَسحةُ امتِعاضٍ ، وهمهمتْ :

ماذا تريدُ أن تقولَ ؟

فنظر إليها نِظرةَ جُرأةٍ ومُصارَحةٍ ، وقال : إذا أَلقيْتِ نَظرةً واحدةً على شكلِ المَعبَدِ الذي تَأوِينَ إليـه بدا لكِ كلُّ شيء كوضَحِ النهار ... هبَطْتِ هذا العالمَ قِدِّيسةً زاهدةً متقشِّفةً ... والآن ، كيف أنتِ ؟ !

ثم صمتَ ، دون أن يُتِمَّ بيانَه ، وحَرفَ بصرَه عن المِلكةِ ، فقالت في صوتٍ متهدِّجٍ : أَتِمَّ ماتريدُ أن تقول ...

فتكلمَ وهو على حالِه منحَرِفُ البصر :

نَظرةً إلى هـذا الخانِ الأمريكانيِّ ...

وأشار بسَبَّابتِهِ إليه إشارةَ تحدٍّ واستنكار .

فقالت « كليوبترةُ » على الأثَر : لم أَطْلُبْ أن يُقيموا لي هذا الخانَ ...

— ولكنكِ على كلِّ حالٍ مسرورةٌ بإقامتِهِ ... وما هذا الترَفُ البالِغُ الذي تمرَحين فيه ؟ ... إنَّ كلَّ مايحيطُ بكِ يدلُّ على غلُوٍّ وإسراف ...

وأشار العالِمُ الرُّوحانيُّ بيدِه إلى ما في القاعةِ من أثاثٍ ورِياش ...

فقالت « كليوبترةُ » :

إن صحتي تتطلَّبُ شيئًا من العنايةِ بمَسْكني ووسائلِ عيشي ...

فقال فى لهجةٍ تَشُوبها سُخْرِيَةٌ واضِحَة :

كما تَطَلَّبَتْ صِحَّتُكِ إجراءَ عمليةِ الأنفِ ؟ !

فقالت « كليوبترة » مُحتَدَّةً :

كان بأنفي بعضُ الزوائدِ الباطنةِ التى تَسَبَّبُ لى عُسْرَ التَّنَفُّسِ ...

فتابع العالِمُ الرُّوحانِيُّ قولَه فى لهجتهِ الساخِرَةِ : عمليةٌ فى مَعهَدِ تجميل ؟ ! ...

ومع ذلك فإن أنفَكِ ظَلَّ على حالِه لم يَظْهَرْ عليه أيُّ تغيير ... إنك تعيبين على أنطونيو تصَرُّفاتِه ، وتُغمِضين عن تصَرُّفاتِكِ أنتِ ... !

فضربتْ « كليوبترة » المِنْضَدَةَ بيديها ، وقالتْ :

لقد جاوَزْتَ الحَدَّ ياسيدى العالِمَ !

— لو أنصفْتِ نفسَكِ وأنصفْتِنى لقاتِ لى من فورِكِ : أَعِدَّ طائرةً تحمِلُنى أنا وأنطونيو وهذا التَّتَرِيَّ صاحبَ حمامةِ السلامِ ، لتعودَ بنا إلى العالَمِ الآخر ... !

ثم اندفع يقهقهُ ... وبعد لحظةٍ التفتَ اليها ، وقال :

إني أرى لهذهِ الحمامةِ أنياباً كأنيابِ الأفاعى ومِنْقاراً كَمِنْقارِ النُّسور !

فنهضتْ « كليوبترةُ » ، وهى تقولُ متعاظِمةً :

حسبُكَ ماقلتَ ... حسبُكَ ... ماستَدْعَيْتُكَ لتُسمِعَنى هذا كلَّه ...

فقال لها ، هادئَ الصوت رزيناً ، وهو يَتَفَحَّصُها بثاقبِ بَصَرِه :

مادمتِ قد آثَرْتِنى فعلَيَّ أن أَنْفُضَ جَعْبَتى لا أَكتُمُكِ شيئاً ولا أَكْذِبُكِ الحديثَ ... ألستِ على رأيي فى إعدادِ الطائرةِ لتعودَ بكم إلى مَقَرِّكُمُ الأوَّلِ ... ؟

فظلَّتْ « كليوبترة » واقفةً وِقْفَتَها الشامخة ، وقالتْ ، وهى تتجافى عنه بنظراتِها :

أأحملُ كلامَكَ هذا على مَحمَلِ الوعيد والتهديد ؟

— اِحمليه أىَّ مَحمَلٍ تشائين ...

فالتفتَتْ إليه ، وحدَجَتْه ببصرِها ، وقالت فى لهجة إصْرار وعَزْمٍ :

لن أعودَ إلى مَقرّيَ الأوَّلِ قبل أن أُتِمَّ المهمَّةَ التى هَبَطْتُ من أجلِها ... !

— أيةُ مُهِمَّةٍ ياسيدتى ؟ أتقصِدين تلعيبَ فُرسانِكِ الثلاثة ... تُؤَجِّجينَ بينهم نارَ المنافسة ، وترْقبينَهم في تناحُرِهم وأنتِ طَلْقَةُ المُحيَّا بَسَّامَةُ الثَّغْرِ ... ؟ ! إنى أُمَجِّدُ مِنْ بينهم أنطونيو ، لأنه الوحيدُ الذى استطاعَ أن يُسَبِّبَ لكِ بعضَ الضِّيقِ ... ألا تَعْترِفينَ لى بالحقيقة ، وهى أنكِ لم تَسْتَدْعيني إلا لـكى تطلُبى نقلَه إلى العالَمِ الآخرِ تَخَلُّصاً من مضايقاتِه ؟ !

فصاحتْ الملـكة ، والرِّعْشَةُ تنتظِمُ نَبَراتِ صَوْتِها :

هذا كذِبٌ صُراحٌ ... !

وجعلتْ تشُدُّ مِنديلَها بين يدَيها وهى مهتاجَةُ النفسِ ، فقال العالِمُ الرُّوحانىُّ ، وقد ألَانَ من لهجتِهِ : لم أقصِدْ أن أُحْرِجَ الملِـكةَ ، فلتغفِرْ لى ... إنى رجلٌ صريح ... عيبى أنى لا أقبَلُ المُداورَةَ ... !

فظلَّتْ « كليوبترة » بُرْهةً صامتةً ، وهى مابرِحتْ تشُدُّ المنـديلَ بين يديها ، ثم قالت فى صوتٍ أبَحَّ يتخلَّلُه رنينُ الأسى والألم :

أنتَ رجلٌ غليظُ القلب ... لم أعْهَدْ فيكَ هذه القساوةَ ... كيف تُسَوِّغُ لك نفسُك أن ترْمِيَنى بكلِّ هذا ؟

وبغتةً خبَأَتْ وجهَها فى منديلِها وانطلقتْ تَنْشِجُ ، فأدرك العالِمَ الرُّوحانىَّ اضطرابٌ بدتْ عليه آثارُه . وشاعَ فى حركاتِهِ الارْتباكُ والحيْرَة ، وظلَّ واقفاً لايدرى ماذا يفعلُ ، وجمجمَ قائلًا : لم أقصِدْ أن أُزْعِجَ الملِـكة ...

وخطا نحوَها خُطوةً ، وقال : ألا تستريحين فترةً على المقعَد ؟ !

فقالت له ، وما زالت متماديةً فى النَّشيج :

دَعْنى ... دعْني ... أنتَ رجلٌ تخلَّتْ عنكَ الرحمةُ والإشفاقُ ...

— ناشدتُكِ اللهَ أن ...

فمسحت عينيها وقالت :

كان في وُسْعِكَ أن تتكلمَ كما تريدُ ، وأن تُفْصِحَ لى عن طَوِيَّتِكَ دون أن تؤلمني ... لم تتخذْ لنفسكَ أُسْلوبًا حكيمًا في المصارحة ...

فاقتربَ منها أكثرَ من ذى قبلُ ، وقال لها في مظهرٍ من التوسُّل :

ماوَدِدْتُ أن أكونَ لإيلامِكِ سببًا ، ولكن ثِقى أنى لم أُرِدْ بكِ إلا خيرًا ...

وشُغِلَتْ « كليوبترةُ » لحظةً تُصْلِحُ من أمرِها ، ثم قالت في لهجةٍ وادعةٍ وقد رَنَتْ إليه في تلطُّفٍ : أتراني حقًّا قد انحرفْتُ عن الجادَّةِ ؟ !

فتلاطمتِ الكلماتُ وقتًا على شفتَي العالِمِ الرُّوحانيِّ ، ثم قال :

إن الحقَّ ياسيدتى يُغْضِبُكِ ... !

فأقبلتْ عليه في رِقَّةٍ ، وقالت :

كلَّا ... كلا ... لن تُغْضِبَني بعدَ الآنَ صراحتُكَ ... فلا عليك ... يبدو لى أن لكَ فيما تقولُ وجهَ حقٍّ !

ثم أمسكتْ بيدِه تشدُّ عليها ، وهى تقولُ :

ناشدتُكَ اللهَ ... ماذا يجبُ عليَّ أن أفعلَ ؟ أَعِدُكَ بأن أستمعَ لنُصحِكَ ... بيدَ أنى أطلبُ إليكَ ألَّا تَغضَبَ ... !

وأخذت تُرَبِّتُ يده في ملاطفةٍ ظاهرة ، وقالت : أما زلتَ مُحنقًا ؟

فأجابها ، وقد تنازعَتْه عواطفُ متضاربةٌ : كلا ... ليس بى حَنَقٌ ؟ !

— إن وجهكَ مُحتقِنٌ ... مازلتَ في غضبِكَ ... !

ثم صاحت بالوصيفةِ تقولُ لها : علينا بأقداحِ الليمون ...

ثم التفتتْ إلى العالِمِ الرُّوحانيِّ ، وقالت :

أم تريدُ قهوةً من التى اعتادوا أن يصنعوها لى خاصةً ؟

فهمهم الرجلُ شاردَ البصرِ : قدح من الليمونِ فيه غَناءٌ !

وجلستْ « كليوبترة » ، وقالت له : سنتناولُ الليمونَ معًا فى صفاءٍ وهدوء ...

ثم أشارت بسَبَّابتِها مُداعِبةً ، وهى تقول :

يجب أن تعترفَ بأنكَ كنتَ قاسيًا فى معاملتِكَ إيَّايَ اليومَ ... نستطيعُ أن نصلَ إلى حلٍّ مُوفَّقٍ ... كلُّ شىء سهلٌ ، فلِمَ التعقيدُ والمُشادَّةُ ؟

وجاءت أقداحُ الليمونِ ، فبالغتْ « كليوبترةُ » فى إعدادِ الشرابِ للعالمِ الرُّوحانىِّ ، وتقديمِ القدحِ له ، وطَفِقَا يَكْرَعانِ وهى تُزْجِى له من معسولِ القولِ ولَيِّنِ المُلاطفةِ ماجعله يُفاكِهُها متطلِّقَ الأسارير ...

ونهض العالم الرُّوحانىُّ يتأهَّبُ للإنصراف ، فقامت تَصحَبُهُ إلى البابِ ، فقال لها : حسنٌ أن أجدَ منكِ رغبةً صادقةً فى إصلاحِ نفسِكِ وتقويمِ انحرافِكِ .

فقالت له فى توكيدٍ : ثِقْ أنى سأتوخَّى مايُرْضيكَ !

وما كاد الرجلُ يَطويه البابُ ، حتى ألفيتُ الملكةَ تستدعينى فى عجلةٍ واهتمام ، وقالت لى : بى حاجةٌ إلى مقابلةِ زينِ السيوف باشا وتيمورلنكَ ... حالا ... أطْلُبْهُما ، وجئنى بهما من فورِكَ ..

فخرجتُ مُهرولًا ، أبحثُ عنهما فى مختلفِ المَظانِّ ، وبعد لأْيٍ عثرتُ عليهما معا يَلعَبان البوكرَ فى نادى « الفرسانِ العشرةِ » وما هى إلا أن قَدِمَا على « كليوبترةَ » ، وما أسرعَ أن اختلَتْ بهما فى حُجرتِها الخاصةِ ، وبعد وقتٍ هرولَتْ إلىَّ كُبْرَى الوصائفِ تطلُبُ منى أن أُلَبِّىَ الملكة ...

فلما مَثُلْتُ أمامَها واجهَتْنى بقولِها فى لهجةِ جِدٍّ وعزمٍ :

أنتَ سكرتيرُ المؤتمر وكاتمُ أسرارِه ... وقد اخترتُكَ لتنفيذ أمرٍ يستوجبُ الأمانةَ والكتمان ، وأرجو أن تكونَ عند ثِقتى بكَ ...

فانحنيتُ بين يديها ، وقد تقسَّمَنى شعورُ غِبْطةٍ ورَهبةٍ ، وقلتُ :

إن ثقةَ مولاتى بى تملؤنى زَهواً وشرفًا ...

— أُقسِمْ أمامى أن تَصُونَ السِّرَّ فلا تبوحَ به لأحدٍ ، وأن تطيعَني فيما آمُرُكَ به طاعةً لاعصيانَ معها مهما يكنْ من شأن !

فوجدْتُني على الأثرِ أُقسِمُ على الطاعةِ وصَوْنِ السرِّ ... فقالت بصوتٍ رقيقٍ ليِّنِ النَّبراتِ : أشكرُ لك ياحضرةَ السكرتير ... هاكَ يدى أمُدُّها إليك ...

ومدَّت أناملَها متراخيةً وهى تُسبِلُ جفنيْها فى عطفٍ وتودُّدٍ ، فأسرعْتُ إلى يدِها أقْتطِفُ منها قُبلةً شَيِّقةً أفْعمتْني لذَّةً ونَشوةً ، وأثارت بين حناياىَ جديداً من الإحساسِ لاعهدَ لى به من قبلُ .

وألفيتُني أُغمغِم : مُرِيني أُطِعْكِ يامولاتى ... ماذا تبغين ؟

فانبرى « تيمورلنكُ » يقولُ : انتبِه لما أقولُه ياحضرةَ السكرتير . بوصْفِكَ كاتمَ أسرارِ المؤتمرِ ومندوبًا مرافقًا لجلالةِ الملكة ، قد أشركناكَ معنا فى إنقاذِ المؤتمر !

فقلتُ على الأثرِ دَهِشاً : إنقاذُ المؤتمر ؟

فتابعَ « تيمورلنكُ » قولَه : اعلمْ أن المؤتمرَ على وَشْكِ الإخفاقِ ، والسببُ في ذلك هذا الشيخُ الخَرِفُ البعيدُ عن رُوحِ الحياةِ العصريَّة ... !

ففطَنْتُ على الفورِ إلى أنه يعني العالِمَ الرُّوحانىَّ .

وصَمتَ « تيمورلنكُ » بُرْهةً ، ثم قال فى حَزْمٍ : لقد أزْمَعْنا فيه أمراً !

والتفتَ إلى زميلِه « زينِ السيوف باشا » ، وقال : هيَّا إلى العملِ ياصديقى ...

والتفتَ إلىَّ يقول : ستعلَمُ كلَّ شىءٍ فى حِينِه .

واستأذَنَ من « كليوبترةَ » قائلًا : تسمحينَ لنا أن ننصرفَ ؟ وقْتُنا محدود !

وسارَ مسرعًا يتبعُه « زينُ السيوف باشا » ، وأنا معهما أُلاحِقُهما ...

وركِبنا السيارةَ ، وإذا بـ « تيمورلنكَ » يقولُ لـ « زينِ السيوف باشا » :

لن يكونَ هـذا الرجلُ حَجَرَ عَثْرَةٍ فى سبيلِ تحقيقِ فِكْرَتِنَا المِثالِيَّةِ ...

لن يكونَ ! ... لقد شرَحْتُ لكَ الخُطَّةَ ياصديقى ...

وقصدْنا أولًا إلى مسجِدِ السلطان حسنٍ ، حيث نَزَل « تيمورلنكُ » ... ثم يَمَّمَتْ بنا السيارةُ شَطْرَ قَصْرِ الورد ، فدخل فيه « زينُ السيوف باشا » وحدَه وبعد لحظاتٍ عادَ إلى السيارة يُرافِقُه العالِمُ الروحانيُّ ، وصَعِدَا فيها . وكان « زينُ السيوف باشا » يبالِغُ في تحيته والحفاوةِ به ، ثم أخبره بأن « تيمورلنكَ » يَرْغَبُ في أن يراه ، وعادتْ بنا السيارةُ أدراجَها إلى مسجِدِ السلطانِ حَسَنٍ ، وكان ببابه « سيد متولى » ينتظِرُنا ، فتقدَّم من « زينِ السيوف باشا » بعد أن أدَّى له التحيةَ في حركاتِه الصُّلْبةِ العنيفةِ كأنه آلةٌ صَمَّاء ... وهو يقول :

مولاى تيمورلنكُ ينتظرُكُمْ في خَلْوَتِه حيث يَتَعَبَّد ...

وسار أمامنا ونحنُ خلفَه ، فاخترقْنا شِبْهَ سِرْدابٍ ينتهي بباب ضَخْمٍ ، فدفعه يَفْسَح لنا ، وقال : تفضلوا ...

ورأينا شَبَح « تيمورلنكَ » يتقدَّمُ من العالِمِ الروحانيِّ خُطواتٍ مُرَحِّبًا به محيِّيًا له ، وقال له على الفَوْر : أشكرُ لكَ ياسيدى تكرُّمَكَ بهذِهِ الزيارةِ ... لديَّ أمْرٌ أريُد أن أُفْضِيَ به إليكَ ... تفضَّلْ بالجلوس ...

فجلسَ العالِمُ الروحانيُّ على دَكَّةٍ عتيقة ، وبقِيَ « تيمورلنكُ » واقفًا تُجاهَه ، أما « زينُ السيوف باشا » فلم أرَ له من أثَر ، وجُلْتُ بعيني في الحجرةِ فإذا هي ضَيِّقَةٌ رَطْبَةٌ ليس بها من الأثاثِ إلا الدَّكَّةُ وحَصِيرٌ عليه بعضُ الحشايا ... وفي أعلَى الحائطِ كُوَّةٌ عليها شَبَكَةٌ من الحديد ..

وسمعتُ « تيمورلنكَ » بغتةً يدُقُّ بعصاهُ الأرضَ دَقَّةً عنيفةً ، وقد نَصَبَ قامتَه وتَنَفَّخَ في وِقْفَتِه ، وقال بصوت مَهيب : باسمِ مؤتمر المدينةِ الفاضلة لدَعْمِ السلامِ أعْتقِلُكَ ياسيدى العالِمَ ... فأنتَ منذُ اللحظةِ أسِيرى ... !

تمَّ ذلكَ في لَمحةٍ خاطفةٍ ، ومباغتةٍ طارئة ، لم تَدَعْ للعالِمِ الروحانيِّ أن يتمالكَ فيَنْبِسَ ، ولكنى لاحظتُ أن وَجْهَه قد شاعَ فيه الإمْتِقاعُ ...

وتابعَ « تيمورلنكُ » قولَه : ستبقى فى هذه الحجرةِ حتى ينتهيَ المؤتمر من مُهمَّتِه ... لا تخشَ بأساً ... ستُعامَلُ معاملةَ عظماءِ الأسرى ... لك حُرِّيَّتُكَ كاملةً فى نِطَاقِ هذه الحجرةِ ، ولكَ مطالِبُكَ مُيسَّرةً فى حُدودِ القانون ...

وأدَّى له تحيةً عسكريَّةً بالغةً ، وخرجَ على الفوْرِ وأنا أتْبعه سليبَ اللُّبِّ !

وأغلقَ « تيمورلنكُ » البابَ الضَّخْمَ بمفتاحٍ غليظٍ ألقاهُ فى جيْبِه . ولم ألبثْ أن رأيتُ « زينَ السيوف باشا » مقبلاً بثُلَّةٍ من الحُرَّاسِ على رأسِهم « سيد متولى » فاصْطَفُّوا أمامَ البابِ . ووقفَ « تيمورلنكُ » يقول لـ « سيد متولى » :

عيَّنْتُكَ رئيسَ الحُرَّاسِ فى هذه المِنْطَقَة ، ومَنَحْتُكَ نوطَ النِّظامِ الفِضِّيَّ .

ودنا منه يُعلِّقُ على صدْرِه هذا النَّوْطَ ، على حينِ كان « سيد متولى » تلتمعُ عيناه غِبْطَةً وزهواً ، وهو يزْدادُ صلابةً وعُنْفاً ...

وفارقَ « تيمورلنكُ » الجمعَ ، ومضَى إلى السيارةِ وأنا أقتفِي خُطاهُ ، وتركْنا « زينَ السيوف باشا » يُرتِّبُ مواقِفَ الحُرَّاسِ من محبِسِ الأسير ...

وفيما كان « تيمورلنكُ » خارجاً من البابِ صادفَ كلْبَه الذى تعهَّدَه برعايَتِهِ مُقبلا يُبَصْبِصُ بذَنَبِه ويَهَشُّ له ، فالتفتَ إلى البوَّاب ، وقال له :

عليكَ أن تعامِلَ هذا الحيوانَ معاملةَ كَرَمٍ وعَطْفٍ على الدوام ، إنه حيوانٌ أعْجَمُ .. لقد أفْهَمْتُكَ ذلكَ غيرَ مرةٍ ... حاذِرْ أن تُسِيءَ إليه ... !

ودنا منهُ الكلبُ يهِزُّ له ويتلاعَبُ أمامَه ، فقال له « تيمورلنكُ » ، وقد مدَّ عصاه فى وجْهِه : قِفْ ولا تدْنُ منِّي . لا تنسَ أنك حيوانٌ نجِسٌ . لقدْ توضَّأْتُ !

فأرادَ الكلبُ أن يُحيِّيَهُ بقفْزةِ تلطُّفٍ وتحبُّب ، فما كان من « تيمورلنكَ » إلا أن هَوِي عليه بعصاهُ صائحًا : جاوزْتَ الحدَّ ... اُغْرُبْ عن وجْهِى ...

وفرَّ الكلبُ مذْعوراً يَعْوِى أحدَّ عُواءٍ !

---

١٩ فبراير

أُسبوعانِ انقضيا دون أن أَخُطَّ حرفًا فى دفترِ مذكّراتى ، وأغلبُ الظن أن ذلك مبعثُه اضطرابٌ نفسانىٌّ من جرَّاءِ ما أحاطَ بى من أحداثٍ شتّى ...

ألِى أن أعترفَ بأنى قد ضِقتُ بهذا المؤتمرِ ذرْعًا ؟ لقد خامرتْنى فِكرةُ الاِستقالة فترةً بعدَ فترة ، وهممتُ بأن أنتبذَ مكانًا قصِيًّا لا أُلاقى فيه من أحد ، ولا أُفكِّرُ فى شىء من هذه المشكلاتِ التى صدَّعوا بها رأسى لإصلاحِ المجتمعِ وإحلالِ الوِفاقِ محلَّ الشِّقاقِ وبَسْطِ السلامِ على رُبوعِ البشر .. لقد أمضيتُ هذين الأُسبوعَيْن ، وليس بى رَغبةٌ فى أن أتناولَ القلمَ مَلالةً وسَأَمًا . ولكني الآنَ ، وقد أحسستُ بعضَ الاِستجمامِ والترفيهِ ، أجلسُ لاستئنافِ تدوينِ مذكراتى .

أذكرُ أنه فى اليومِ التالى لِاعتقالِ العالِمِ الرُّوحانىِّ انعقد المؤتمرُ فى البهوِ الكبيرِ من معبدِ أبى الهول بجوارِ الخانِ الأمريكانىِّ ، وأن « تيمورلنكَ » قام يُعلِنُ للأعضاءِ هذا الحادثَ بالبيان الآتى :

« يسوءنى أيها الزملاء الأمجادُ أن أُفْضِىَ إليكم بنبإٍ يبعثُ على الأسفِ ، وهو أن صديقنا العالِمَ الروحانىَّ قد أصابه مَسٌّ ، وأن حالتَه العقليةَ لا تسمحُ له بمزاولةِ عملٍ » .

فسرَتْ بين الأعضاءِ همهمةُ دَهشةٍ وتساؤلٍ ، ولكن « تيمورلنكَ » واصل بيانَه قائلا :

« ولكن ثِقوا أيها الزملاء أن غَيبتَه عن المؤتمرِ لن يطولَ أمدُها ، فنحن نبذُلُ فى سبيلِ علاجِه وتوفيرِ أسبابِ الراحةِ له أقصى المستطاعِ ، ولكم أن تطمئنُّوا ... »

فاشرأبَّ رئيسُ المؤتمر بعُنقِه ، وقال متردِّداً : هل من سبيلٍ إلى عِيادتِه ؟ !

فحدجه « تيمورلنكُ » بنظرةٍ نكْراءَ ، وقال :

كلُّ زيارةٍ له زيادةٌ فى متاعبه ... حسبُكَ ياسيدى الرئيسَ أن تَكِلَ هذا إلىَّ ... فإنى أرعاه نائبًا عن المؤتمرِ كلّه ... !

فجعل رئيسُ المؤتمر يتصفَّحُ وجوهَ الأعضاءِ مخالَسةً ليتبيَّنَ إلى أىِّ مدًى يُشايعونَه فى رأيِه ، فلم يَشهَدْ إلا وُجوهًا صُلبةَ الملامحِ ، فطأطأَ رأسَه ، وانهال على جلدةِ صلعتهِ يحكُّها بأنْمُلةِ خِنْصَره ...

ولم يقعْ فى هذه الجلسةِ شىءٌ يستحقُّ الذكر ، فقد كان لنبإ اعتلالِ العالِمِ الرُّوحانىِّ وتبليغِ « تيمورلنكَ » ذلك النبأَ المؤتمر على هذه الصورة أثرٌ فى نفوسِ الأعضاءِ أشاعَ بينهم الحيرةَ والوُجومَ .

وفى اليومِ نفسِه ، بينما كنتُ فى قصرِ الورد مَساءً أخطو فى أحدِ الممرَّاتِ أمامَ حجرةِ رئيسِ المؤتمرِ ، استرْعى انتباهى هَمساتٌ مختلِطة ، فوقفتُ أسترقُ السمعَ ، فطافت بأذُنى ألفاظٌ ذُكِر فيها اسمُ « تيمورلنكَ » والعالِمِ الرُّوحانىِّ ، ففهِمْتُ منها أن رئيسَ المؤتمرِ وبعضَ شِيعتِه من الأعضاءِ مجتمعون يأتمِرُون بشىء ... فلم أُطِلْ وَقفتى خشيةَ انكشافِ أمرى ، ومضيتُ في سبيلي ...

وأما « عبدُ العال » فقد ذهبتُ لعيادتِه ، فأعلمَتْني زوجُه فى لهجةٍ ملتويةٍ مُريبةٍ بأنه ارتحل وحيداً إلى بلدٍ غيرِ بعيدٍ ، يَقضى فيه فترةَ النَّقهِ من العِلةِ . فلم يطمئنَّ لى بال ، وساورَتْنى أشتاتٌ من الشُّكوكِ ...

وقد والى المؤتمرُ اجتماعَه فى المعبدِ بجوارِ الخانِ الأمريكانىّ ، وكان « مارتنُ » يقتحمُ علينا الجلساتِ ، ليتحدَّثَ بما تمَّ فى شأنِ الفلم ، فكانت الجلسةُ تتحوَّل من البَرنامجِ المرسومِ لها إلى الفلم ومراحِله ، واشتراكِ الأعضاءِ فيه ... وانتهى الأمرُ بأن صارَ ذلك الفلمُ هو المحورَ الذى تدورُ عليه أعمالُ المؤتمر ، فأصبحت الجلساتُ خاطفةً لاتكادُ تنعقِدُ حتى تنفضَّ ويتفرّقَ الأعضاء مع « مارتنَ » لإجراءِ التجارِبِ الفنِّيَّة ... على أني أقرِّرُ أنه على الرَّغْمِ مما كان ظاهراً من

ووئام بين الأعضاء ، كانت تنمّ بعضُ الحركاتِ عن تيارَيْنِ متنازعَيْن يدُلان على أن المؤتمرَ منقسمٌ على نفسه. ففئةُ الأكثريَّةِ التى من بينها وزيرُ المناطقِ الجنوبيَّةِ السبع ومندوبُ اتحادِ الشرقِ الأعلى ، و « زينُ السيوف باشا » و « كليوبترةُ » تؤلِّفُ حزبَ « تيمورلنكَ » الغلَّابَ . وفئةُ الأقلِّيَّةِ التى من بينها مندوبُ اتحادِ أوربةَ الشماليةِ تؤلف حزبَ الرئيسِ الذى لاسلطانَ له فى كثيرٍ ولا قليل .

ولا أكتُمُ أنى كنتُ مَسُوقًا بدافعٍ لاأدرى كُنهَهُ إلى مناصرةِ حزبِ الأكثريَّةِ ، حتى إنى كنتُ أتجسَّسُ من تِلقاءِ نفسى لأتعرَّفَ خفايا حزبِ الأقليَّةِ مستطلعاً أسرارَه وتدابيرَه .

واقد كان أمرُ « أنطونيو » أعجبَ العجبِ ... لم يكدْ ينقضى على حفلةِ أبى الهولِ الأخيرةِ يومان ، حتى رأيتُه يَقْـدَمُ لزيارةِ « كليوبترةَ » فى المعبدِ متذلِّلا متصاغِراً حتى صفحَتْ عنه وضَمَّتْه إلى مجلِسِها الخاصِّ ، وعاد الصفاء شامِلا بعودةِ الفرسانِ الثلاثةِ إلى ميْدانِهم المعهودِ ، كلٌّ منهم يقومُ بشَوْطِه بحسَبِ ما يَعِنُّ له . وعلى الرغم من تبايُنِ منازِعِهم ومحاذَرةِ بعضِهم لبعضٍ تلاقَوْا كلُّهم على غرض واحدٍ هو ابتغاء مَرْضاةِ المـلكة وتوخِّى هواها ، فـكان يتعذَّرُ ألَّا تجدَهُمْ متلاقِين يَقضونَ معًا سهراتٍ مديدةً فى سَمَرٍ وشرابٍ وإيناسٍ يتنقَّلون من نادٍ إلى نادٍ ومن مَرْقَصٍ إلى مرقصٍ ...

وعلى هـذا النحوِ انقضى الأسبوعانِ ، وأنا لاأدرى إلى أيِّ طريقٍ يُساقُ المؤتمر ؟ وإلى أيِّ مصيرٍ ينتهى ؟ ...

٦ مارس

تَرَادفَتْ عليَّ الأحداثُ خِلالَ هذيْن الأُسْبُوعَيْن ، أحداثٌ جِسَامٌ كان يَزْحَمُ بَعْضُها بعضاً فى اخْتِلاط ، حتى ما أَدْرِى كيف أُرَتِّبُها فى فِكْرِى ؟ وكيف أُجرِيها على قَلَمِى ؟ ...

صَرفَ المؤتمر ، أو على الأصحّ حِزْبُ الأكْثَرِيَّة فيه ، كلَّ اهتمامِهِ إلى شئونِ الفلْمِ ، إذْ كانَ - كما يَزْعُمون - أَرْحَبَ خُطوَةٍ عمليةٍ يمكنُ بها أن يواجِهُوا العالَمَ المتعطِّشَ إلى دِعَايَةٍ ناجعةٍ للسَّلام ولم يكن حزبُ الأقليةِ متحمِّساً لفكرةِ الفلمِ ، ولطالما تخلَّفَ عن شُهُودِ التجارِبِ والاشْتِرَاكِ فيها ، بيْد أنه لم يكن يُجاهِرُ بعِدَائِه للفكرةِ تجنباً لإثارةِ الشُّبُهاتِ ونَأْياً بنفسِه عن اتهامِهِ بغَرْسِ بُذُورِ الشِّقاقِ ... وكثيراً ما كان الأعضاء يَشْهَدُون جلَساتِ المؤتمر فى أزْياءِ الفلمِ ، وخاصَّةً « تيمورلنكَ » الذى كان لا يَخْلَعُ زِيَّه بوصْفِه قائدَ سُورِيَّةَ الأكبرَ ، فإذا خُوطِبَ فى ذلك ، قال :

ليس عندى من فُسْحَةِ الوقْتِ ما أُبدِّلُ فيه مَلْبَسِى !

وكان يقضِى مُعْظَمَ يومِهِ فى التجارِبِ ، يَزْعَمُ على الصُّفوفِ ويَرْسُمُ خُطَطَ الحرب ، مهاجِماً تارةً مدافعاً أخرى ، وهو فى هذه وتلك بادِى النشاطِ قَوِيُّ الحماسِ ...

أما « كليوبترةُ » فقد كانت تحيا حياةَ الملِكة « تفرتيتى » متشبِّهةً بها فى كلِّ شىء ، حتى كأنها قد تقمَّصتْ رُوحَها . واستطاع « مارتنُ » أن يَقلِبَ لها المعبَدَ مرةً أخرى قصراً من قصور تلك الملِكةِ الغابرةِ ، فالجُدْرانُ حافلةٌ بالنُّقوشِ والتهاويلِ التى تُمثِّلُ عصرَ « أخناتون » ، وقُرْصُ الشمسِ - المعبودُ الأعلى فى ذلك العهدِ - يُشرِقُ فى كلِّ مكان ، وكذلك هندسةُ بناءِ الأعمدةِ كانت

من ذلك الطِّرازِ الأخناتونيّ ، وكلُّ شيء في الجملةِ كان يحمِلُ طابَعَ ذلك العهدِ بدِقَّةٍ وأناقةٍ . وقد استكثرَت الملكةُ « كليوبترةُ » من الوصائفِ ، فكنتَ تراها تتخطَّر في البهوِ وحولها هالةٌ منهنَّ ، و « زينُ السيوف باشا » يتبعُها كالظِّلِّ وهو بلَبُوسِ « حورمحب » قائدِ مصرَ الأولِ . وقد سمعتُها غيرَ مرةٍ تقول لـ « مارتن » : صنيعُنا هذا أدعى إلى إتقانِ دَوْرِنا ... يجب أن نُشْرِبَ نفوسَنا رُوحَ ذلك العصرِ الغابرِ ونصطبِغَ به ونحيا فيه كأننا أهلوه ...

أما فيما يتعلَّقُ بحزبِ الأقليَّةِ ونشاطِه الخفيّ ، فلم يَعُدْ في الإمكانِ أن يَعقِدَ رئيسُ المؤتمرِ جلساتِه الخاصَّةَ في حجرتِه من قصرِ الورد ، إذْ توجَّس خِيفةً من رِقابةِ الأرصادِ التي بثَّها حولَه « زينُ السيوف باشا » .

وقد حَداني الفضولُ على أن أُراقِبَ حزبَ الرئيسِ بنفسي ، فانكشفَ لي بعدَ مراقبةِ حركاتِهم وتأثُّرِ خُطاهُمْ أنهم قد اختاروا منزلًا في حيِّ « الحسيْن » مُنزَوِيًا في زُقاقٍ مهجور ، فهم يجتمعونَ فيه حيث لا يُحِسُّ بهم أحدٌ ، وفي إحدى الأماسيِّ كنتُ على مقرُبةٍ من ذلك المنزلِ أرتقِبُ في مَكْمَنٍ لا تراه العيونُ انْفِضاضَ اجتماعِهم ، فلمحتُ البابَ يتثاءبُ في حَذَرٍ عن ثلاثة أشباحٍ تسلَّلوا لِواذًا . وبعد لحظةٍ بُوغِتُّ بأن وجدتُني في قبضةِ هذه الأشباحِ تحمِلُني إلى داخلِ المنزل ، وتُلْقيني فيه ، وإذا البابُ يَرتَدُّ خلفي ، وإذا أنا في ظلامٍ دامِسٍ ... ولم تَمضِ برهةٌ حتى رأيتُ « عبدَ العال » يتقدَّمُ مني حاملًا مِصباحًا شحيحَ الضوءِ ، تركَه في جانبٍ وأقبلَ عليَّ ، فشدَّ على يدي شدَّةً عنيفةً لم أستطِعْ معها حَراكًا ، فكان ذلك مفاجأةً ارتعتُ لها وسرَتِ الدهشةُ في أوصالي ، وأرْسلَ « عبدُ العال » من حلقِه ضحكةَ النَّمرِ ، وقال :

لعلَّكَ تعجبُ كيف أُوتيتُ تلك القوةَ ؟ ألا فاعلَمْ ياسيدي السكرتيرَ أني أخذتُ برأيِكَ واستجبتُ لنُصحِك ... أتذكرُ أنكَ رغبْتَ إليَّ في أن

أتعلَّمَ المصارعةَ فأشُدَّ من أَسْرى وأُقَوِّى من عضلاتى ؟ لقد تمَّ ذلك فى تلك الأيامِ التى غِبْتُها عنك ... !

وصمتَ برهةً ، ثم عاد يقولُ وهو مابَرِحَ قابضاً على يدى :

نأسَفُ إذْ أزعجناكَ ، ولكنَّ عُذْرَنا أنه لم يكُنْ مما صنَعْنا معك بُدٌّ !

فقلتُ وأنا أتفحَّصُ « عبدَ العال » بنظراتٍ حائرة :

إنى أُكَذِّبُ عينيَّ ياعبدَ العال ... ماذا أَرَى ؟

لا تُكَذِّبْ عينيكَ ياسيدى السكرتير ... لقد عَلَّمنا مؤتمرُكم تعاليمَ جديدةً ... ثِقْ أننا نسيرُ على هَدْيِه !

وقادَنى إلى إحدى الحُجَرِ ، وقد أطلقَ يدى ، وقال : سنمكُثُ هنا فترةً نتحدَّثُ .

وجلسْنا على الحشايا ، فقال « عبدُ العال » : ماذا تحِبُّ أن أطلُبَ لك ؟

فقلتُ على الأثَر : مُغْلَى النَّعناع !

فقهقه « عبدُ العال » طويلا ، ثم قال :

لم يَعُد لِمُغْلَى النَّعناعِ مكانٌ عندى ... سآمُرُ لك بكوبٍ من الزَّنجبيلِ أو من القِرفةِ ... أو من كوكتيل مارتنَ إذا أردتَ ... ولكن اعْلَمْ قبلَ كلِّ شىء أنك ستكونُ ضيفَ هذا المنزلِ أيامًا لاأدرى مَدَاها . وإنى أرجو منكَ بحقّ الصداقةِ التى بيننا أن تكونَ حكيماً فى تصرُّفاتِكَ ، وألَّا تَضْطَرَّنى إلى اتخاذِ العُنفِ معك . إن لدينا من الأَحراسِ الأشِدَّاءِ مايكفُلُ للبيتِ حِراسةً منيعةً !

فصعَّدْتُ فيه بصرى ، وأنا أقول : أتعني أنى أصبحتُ سجينَ هذا المنزل ؟ !

— ولِمَ تعُدُّ نفسَكَ سجينًا ؟ فلتُسَمِّ نفسك ضَيْفاً ، ضيفاً له حدودٌ يجب ألَّا يتخطَّاها ! ثِقْ أن فترةَ بقائِكَ هنا لن تطولَ ، فالمؤامرةُ على وَشْكِ الانتهاءِ .

— أيَّةُ مؤامرةٍ ياعبدَ العال ؟ !

— أعترفُ لكَ بأن فمى قد انْزَلَقَ بذكر هذه الكلمة ، فانسَ أنى

قلتُها ... على أيّةِ حالٍ أرجو أن يقصُرَ انتظارُكَ !

ونهضَ عنّي بعد أن قال لى :

أنا مُضطرٌّ إلى الانصرافِ عنكَ لبعضِ عملى ، وسأُعِدُّ لكَ كلَّ ما يَضمَنُ الراحة .

وأخذ من ركن الحجرة عصاً ضخمةً قرعَ بها الأرضَ أمامى بِضعَ قرعاتٍ وقال :

منذ تركتُ خِدمَةَ المؤتمر تخذتُ العصا شِعاراً لحياتى ... ولكنها لا تحمِلُ حمامةَ السلام كعصا صاحبِكَ التّتريّ ... !

ولزِمتُ هذا المنزلَ مُخلِداً إلى السّكينة ، ولستُ أُنكِرُ أن الحياة قد طابتْ لى فيه بما أحسستُ من هدوءٍ ودَعةٍ وعُزلةٍ عن أعباءٍ أثقلَتْ كاهلى فترةً من الزمن ، وأنا فى خدمةِ ذلك المؤتمر الصاخِب . وصَفتْ مودّةُ « عبدِ العال » لى كعَهدِى به فيما مَضى ، فكان يتعهّدُنى بإكرامِه ، ويجلِسُ إلىّ كلّما خلا من عملِه ، نتحدّثُ ونَسْمر ؛ ولكننا لا نخوضُ فى شىءٍ من حديثِ المؤتمر وذيولِه وشئونِ أعضائه ...

وتواصلَت الأيامُ على هذا المنوالِ ...

وفى ذاتِ صَباحٍ ، بينما كنتُ أتناولُ فطورِى ، إذ أقبلَ علىّ « عبدُ العال » وقال لى فى هَشاشةٍ وبِشرٍ :

أنتَ منذُ الساعةِ حرٌّ طليق !

فنظرتُ إليه مبهوتاً متسائلا ، فتابع قولَه : لقد انتهى كلُّ شىء !

— ماذا تعنى ؟

— ستعرِفُ تفصيلَ الأمرِ من بَعدُ ... !

— ألا تخبرُنى إجمالا ... ماذا حدَث ؟

— حدَثَ كلُّ خير ... أكمِلْ فطورَكَ ...

وازدردتُ بضعَ لُقَيماتٍ صامتاً ، وقد ذهبتْ بى الأفكارُ شتّى المذاهِب .

وسمعتُ « عبدَ العال » بعدَ قليلٍ يتكلّمُ كأنه يناجى نفسَه قائلا :

لقد أعلنَ الرئيسُ أمسِ في جلسةِ المؤتمر - أقصدُ الرئيسَ الحقيقيَّ الذى لا يَفْتأ يَحُكُّ جلدةَ صَلعتهِ بخنصرِه - أن جلساتِ المؤتمرِ قد تأجَّلَتْ إلى أجلٍ غيرِ مُسَمًّى ...

— أتقصدُ أن المؤتمرَ قد مُنِيَ بالإخفاقِ ؟ !

— لا أقصدُ شيئاً ... فلتقلْ إنه أَخْفَقَ ، أو فلتقلْ إنه تأجَّلَ اجتماعه للاستعداد ... غايةُ الأمرِ أنه وقفَ أعمالَه وكفى ... !

— والأعضاء ... ؟ !

— رحلوا ...

— كيفَ ؟ !

— رحلوا أجمعين ... لقد أقلَّتْهُم الطائرةُ أمسِ ، وقد حملتُ بنفسي خزانةَ مندوبِ البلاغةِ الدوليةِ إلى مكانِها من الطائرة ... والحمدُ للهِ على أنى كنتُ حائزاً لرضاه ، فقد مَسَح على رأسي يبارِكُني ... !

فقلت ، وقد اشرأبَّ عُنقي إليه : وكليوبترة ؟ !

— ولماذا تريدُ أن تبقَى كليوبترةُ والأعضاء راحِلون ؟ !

— كيف كان مَصيرُها ؟ !

فدنا مني « عبدُ العال » ، وقال هامسًا فى اهتمامٍ وجدٍّ :

استمِعْ إليَّ ... بعد أن استنقذْنا العالَمَ الرُّوحانيَّ من محبسه ، ودَبَّرْنا مؤامرَتنا أحكمَ تدبيرٍ ، تَسَلَّمَ حزبُ الأقليةِ زمامَ الأمرِ ، فبَتَّ في شأنِ المؤتمرِ برأيٍ لا محيصَ عنه ...

— ولكنْ كليوبترة ... ماذا صنعتُم بها ؟

فرنا إليَّ طويلًا يتفحَّصُني ، وقال : اِطمئنَّ ... لا بأسَ عليها ... إن العالَمَ الرُّوحانيَّ كان بها وبصاحِبَيْها رحيماً ... لقد استقْدَمَ لهم السحابةَ الورديَّة وودَّعهم حتى المطارِ ، ومكثْنا حتى تزايلت السحابةُ فى عُرْضِ الأُفُقِ ...

— ولكنْ أخبِرْني ياعبدَ العال ... كيف كان حالها ؟

— تظاهرتْ بالوَقارِ ، وقلبُها يَتلظَّى بغَيْظٍ مكتوم ... فلم تكنْ تَلفِظُ من قولٍ ، ولكنني لاحظتُ أن عينيها كانتا نَدِيتين ...

وأظلَّتْنا فترةُ صَمْتٍ شاعت فيها الكآبةُ بين جوانِحى ، وتوالتْ فى خاطِرى مُسرِعةً مَشاهِدُ شتَّي من حياةِ المليكةِ فى عهدِ المؤتمرِ ... وانطلقتْ من أعماقِ صدرِى تنهُّدَةٌ حزينةٌ دون أن أستطيعَ لها رَدًّا ...

وبعد حينٍ نظرتُ إلى « عبدِ العال » وقلتُ : وتيمورلنكُ ؟ !

— لقد عاد إلى لُبسِ طُرْطُورِه ... ولاذَ بصَمْتٍ مديد ، فلم أسْمَعْه ينطِق إلا جملةً واحدة ردَّدَها وهو على أُهْبةِ امتطاءِ السحابةِ الورديَّةِ ، إذ قال : « يُريدُ العبدُ شيئًا واللهُ يفعلُ مايريدُ ! » ... أما عصاهُ ذاتُ حمامةِ السلامِ فهى كلُّ ماورِثْتُه أنا من تركَةِ المؤتمرِ ... ها كَها ... !

وعمَدَ إلى بعضِ الحشايا ، فاستخرجَ العصا منها ، وقال ، وهو يَقرَعُ بها الأرضَ : ستكونُ عِمادى فى الحياةِ ... ولكن بطريقةٍ أشرفَ من طريقة صاحبِكَ ، وأسلوبٍ أنبلَ من أُسلوبِه ... !

— وكيف انتهتْ الحالُ بزينِ السيوف باشا ؟

— شَدَّما سَخِطَ وغضِبَ ، وأرْغَي وأزْبَدَ ، وأقسمَ أن يَنْفُضَ يده من أمثالِ هذه الهيئةِ ، مُؤْثِرًا العودةَ لإتمامِ عملِه فى أعالى النيل حيث يُكافِحُ الملاريا ويُزيلُ السُّدودَ ...

فقلتُ ، وقد سرَّحتُ بَصَرِىَ التائهَ فى أرجاءِ الحجرة :

وَاأَسَفًا على المؤتمر ... وفى ذِمَّةِ اللهِ آمالٌ رِطَابٌ عقَدْناها به ... !

فأمسكَ « عبدُ العال » يدى وضَغطَها قائلاً :

فى نظرى أن المؤتمرَ نجحَ أيَّما نجاحٍ ... لقد بَصَّرَنا بمسالكِ الحياةِ ،

وعرّفنا أيُّ الأساليبِ أهدى للفوزِ فى مِضمارِ العَيْش ؟ ...

فقلتُ « لعبدِ العال » : إنك لم تخبرْني خبرَ أنطونيو ...

— كان وحدَه المرِحَ الطَّروبَ لعودتِه إلى مقرِّه الأولِ ... إن المسكينَ يحلُمُ بأن يقضيَ في العالَمِ الآخرِ أيامَه كلَّها تحتَ أقدامِ كليوبترة لاينازعُه فيها مُنازِع !

... غادرتُ المنزلَ ، أو بالحرِيِّ المحبسَ ، فكان أولَ ما عملتُه أن قصدتُ إلى معبدِ أبي الهول ، فوجدتُه قاعًا صفصفًا تسفِي الرِّيحُ فى مَناحِيه ، وقد تناثرَتْ فى مكانِ البهوِ أوراقٌ مهملةٌ وأعقابُ لفائِفِ التَّبْغِ .. وبعضُ مَناضِدَ عليها أكوابٌ ما زالتْ تعلَقُ بقراراتِها صُبابَةٌ من كوكتيل مارتن ...

فجعلتُ أرجِّعُ الطَّرْفَ هنا وهنالكَ متمثِّلاً ذِكرياتِ الليالى العِذابِ والأيامِ الهانئةِ التى سَعِدَتْ بها هذه البُقْعَةُ منذ قليلٍ ... !

ومضيتُ إلى استوديو « مارتنَ » ، فأخبرونى بأن الفنانَ قد بارحَ مصرَ إلى أمريكا حيثُ اعتزمَ إخراجَ فِلمِه فى موطِنِ السينما الأكبرِ ...

فأخذتُ طريقِي إلى قَصْرِ الورد ، فألفيتُ على بابه الشاويشَ « سيد متولى » واقفًا فى مهانةٍ وذِلَّةٍ كأنه آلةٌ قد لحِقَ بها العَطَب ، فقلتُ له : كيفَ الحالُ ياسيد متولى؟

— أسوأُ حالٍ ... لقد طردونى ...

فربَّتُّ كتفَه ، وقلتُ : تجلَّدْ ، فالدنيا يومٌ لكَ ويومٌ عليكَ ، وليس لحالٍ دوام !

ولمحتُه يُخرِجُ النَّوْطَ الفِضِّيَّ الذى منحَه إيَّاه « تيمورلنكُ » وجعل يجلُوه ، ثم علَّقَه على صدرِه برهةً ، وهو يُنعِمُ النظرَ فيه ويزفِرُ ، ثم أخفاه فى جيبِه ، ونأى عنِّى كالظِّلِّ المتقلِّص ...

ودخلتُ قصرَ الورد ، فما إن بلغتُ البهْوَ حتى رأيتُ شخصًا مفتولَ العضلاتِ ممشوقَ القوامِ يَذرَع البهوَ بخُطواتٍ حَثيثةٍ ، فلما رآنى أقبلَ علَيَّ بوجهِه المُشرَبِ رَوْنَقَ الصحةِ والعافية ، وحدجنى بنظرةٍ لا تخلو من حِدَّةٍ ، وقال :

مضى عليّ الآنَ نصفُ ساعةٍ وأنا لا أجِدُ هنا من أحدٍ ... أينَ المؤتمرُ ؟ أين الرئيس ؟ أينَ الأعضاء ؟ أينَ السكرتيرونَ ؟

فقلتُ له على الأثَر : من الذى يُشرِّفنى بحديثِه ؟

فوقف أمامى وِقفَةَ اعتِزاز ، ورفع هامتَه ، وقال :

أنا « نور الدين بك » مندوبُ مِصْرَ في المؤتمر ... لقد قدِمْتُ الساعةَ من رِحْلَتى فى « أُورلوفَ » دون إبلاغِ أحدٍ لتكونَ مفاجأةً ... !

فقلتُ من فورى : لقد تخلَّفْتَ يا سيدى عن شُهودِ جلَساتِ المؤتمر ، إذْ كنتَ مسافِراً لحضورِ مؤتمرِ الدِّببَةِ العالميِّ .. أليس كذلك ؟

— صحيح ! ... والآنَ ... هأنَذَا أعودُ ...

— أُقَدِّمُ لسعادتكم نفسى ... أنا سكرتيرُ المؤتمرِ العامُّ ...

ومَثَلْتُ أمامَه أفْرُكُ إحدى يديَّ بالأُخرى ، وقد طأطأتُ رأسى ، وقلتُ مُهَمْهِماً : يسوءنى أن أُنهِىَ إليكَ أن المؤتمرَ قد انفضَّ ...

— هل أتمَّ عملَه ؟

— بل وَقَفَتْ جلَساتُه ، وتأَجَّلَ انعقادُه ...

فصاح دَهِشاً : تأجَّلَ ؟ لِمَ ؟ وإلى متى ؟

— تأجَّلَ ياسيدى ... إلى أجلٍ غيرِ مُسَمًّى !...

كتب المؤلف

ا - فى العربية

الوثبة الأولى
أبو على عامل أرتيست
الأطلال
الشيخ عفا الله
قلب غانية
فرعون الصغير
نداء المجهول
مكتوب على الجبين
نشوء القصة وتطورها
ثلاث مسرحيات
عروس النيل
المخبأ رقم ١٣
حورية البحر
قال الراوى
عوالى
سهاد أو اللحن التائه
المنقذة وحفلة شاى
قنابل
أبو شوشه والموكب
بنت الشيطان
عطر ودخان
فن القصص
حواء الخالدة
كليوبترة فى خان الخليلى

ب - فى الفرنسية

غراميات سامى
حلم سمارا
بنت الشيطان

ج - فى الألمانية

مجموعة قصص (ترجمة الدكتور ويدمار)

تحت الطبع

شفاه غليظة وقصص أخرى

893.7T136
S4

1958

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58889434
893.7T136 S4
Kliyubatra fi Khan a